القطوف الدوانى فى التاريخ الإسبانى

أبو أدهم
عبادة بن عبد الرحمن رضا كُحيلة
أستاذ
كلية الآداب - جامعة القاهرة

1419 - 1998

الطبعة الأولى

الغلاف هدية من الفنان سعيد المسيري

إهداء

إلى علي أدهم

أديب المؤرخين

ومؤرخ الأدباء

قال كلمته ومضى

ومن حالق ومض

فهـــرس

الباب الثاني

إسبانيا الإسلامية

« الأندلس »

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمـــة

موضوع هذا الكتاب هو تاريخ إسبانيا ، منذ مفتتح العصور الوسيطة ، حتى مفتتح العصور الحديثة ، وهو موضوع شغل الفرنج قبلنا ، وشغلنا فى شطره الأندلسى ، ولم يشغلنا فيما عداه .

والحق إن التأريخ لإسبانيا من منظور عربى ، أمر له دلالته القصوى ، لأننا لا نستطيع أن نفهم تاريخنا فى مكان ، دون أن نفهم تاريخ من شاركونا وجودنا فى هذا المكان .

من هذا وعليه ، فإن ما كتبناه - عربا - عن الأندلس فى العهد الأخير يشوبه قصور - أعظم به من قصور - وهو ما أهمنا إلى كتابنا ، نملأ به فراغا ، طالت مدته واتسع مداه .

بطبيعة الحال ، فقد اعتمدنا فى الشطر الأندلسى من هذا الكتاب ، على ما سطرناه فى غير كتاب ، وأخصها جميعها «المغرب فى تاريخ الأندلس والمغرب» .

أما فيما يختص بالشطر النصرانى ، فقد اعتمدنا على كتب فرنجية ، أخصها جميعها « تاريخ إسبانيا فى العصور الوسطى » لجوزيف أوكالاهان .

وعلى ذكر هذا الكتاب - وقد صدر منذ نيف وعشرين سنة - فهو أحفل كتب الفرنج - نذهب - وأشمل هذه الكتب وأوعب ، وكانت الفائدة منه وافرة ، والعائدة وافرة ووافرة .

وكان منهجنا أن نعرض للوقائع الكبيرة ونعرض عن سواها ، ونستجلي ما صدرت عنه هذه الوقائع وما صدرت إليه ، وتوجهنا بخطابنا إلى عامة المثقفين وخاصتهم على سواء .

نسأله تعالى تأييده وتسديده ، وفائض نعمائه وحسن ثوابه ، وله الأمر من قبل ومن بعد

الهرم - الجيزة في يوم السبت
الثامن من ربيع الآخر 1419
الأول من أغسطس (آب) 1998 .

أبو أدهم

عبادة بن عبد الرحمن رضا كحيلة

تمهيد

١ - إسبانيا والأندلس :-

إسبانيا شبه جزيرة ، تقع لدى الطرف الآخر البعيد من بحر الروم ، عرفت عند اليونانيين بهسپيريا Hesperia، وهى تسمية شاعرية ، مشتقة من هسپيروس Hesperus ، وتعنى « نجمة المساء » كناية عن كون هذه البلاد فى قاصية المعمورة غربًا عند « بحر الظلمات » . ثم تطورت هسپيريا إلى إيبريا Iberia ، وهو تعبير ما يزال له حضوره الواضح فى عصرنا ، وعادةً ما يستخدم فى مجال الجغرافية .

عرفت هذه البلاد عند اليونانيين كذلك بإسبانيا Ispania وسپانيا Spania، ويغلب إن هذا التعبير مشتق من سپان Span ، وهى كلمة فينيقية تعنى «أرنب»، وبذا تصير إسبانيا هى بلاد الأرانب ، ولا يخفى أن الفينيقيين هم أول الشعوب المتحضرة التى تطرقت إلى هذه البلاد فى القديم .

وجد هذا التعبير طريقه إلى الرومان فى صورتين : هسپانيا Hispania وسپانيا Spania ، ومنهما اشتق التعبير الحديث إسبانيا España (إشبانية عند العرب) .

على أن تعبير إسبانيا - وإن كان قديمًا - فإنه لا يتواتر كثيرًا فى أدبيات العصور الوسطى ، وكان الإسبانى فى هذه العصور يعبر عن نفسه ، بأنه قشتالى ، أو أرغونى أو برتغالى ... وهكذا ، وفى ملحمة السّيد La poema de mío Cíd - وهى الملحمة الوطنية الكبرى - لا يتردد تعبير إسبانيا سوى ثلاث مرات .

أما عن مصطلح الأندلس ، فهو مشتق من ڤندالوسيا Vandalusia نسبة

إلى شعب الڤندال (أو الوندال) Vandali (W) ، وهو شعب همجى[١] غزا إسبانيا فى مطلع القرن الخامس الميلادى ، وجرى طرده بعد سنوات إلى إفريقية .

كان هذا الشعب (أو غالبه) قد استقر فترةً فى إقليم بايتيكا Baetica (باطقة عند العرب) ويقع إلى الجنوب الشرقى من شبه الجزيرة ، وتتخلله عدة أنهار أهمها الوادى الكبير Guadalquivír ، وصار اسمهم علماً عليه .

عندما غزا العرب البلاد فى مطالع القرن الثامن ، كان هذ السهل هو أول ما واجههم منها ، فأبدلوا الواو المفتوحة همزةً ، وهو ما تجيزه قوانين لغتهم ، فصار الأندلس ، وعمموا هذه التسمية على شبه الجزيرة بأسرها ، أو اختصوا بها ماكان واقعاً تحت سيطرتهم فحسب .

فى عصرنا هذا الحديث عاد المفهوم القديم للأندلس Andalucía ، وإن أضحى إدارياً ، يعنى المحافظات الجنوبية الثمانى ، وتمتد من حدود مُرسية Murcia شرقاً إلى حدود البرتغال Portugal غرباً .

هذه المحافظات هى أَلْمَرِيَّة Almería ، غَرْناطة Granada ، مالَقَة Málaga، جيَّان Jaén ، قرطبة Córdoba ، إشْبِيلِيَة Sevilla ، قادس Cádiz ووَلْبَة Huelva .

2 - الأرض والناس :

إسبانيا هى ثالثة أشباه الجزر الكبيرة فى بحر الروم ، وكانت فى العصور القديمة تشغل موقعاً متطرفاً فى نهاية المعمور غرباً ، وانعزلت أو كادت أن تنعزل عن غيرها من الأقطار ، وكان القسم الشرقى منها هو الذى يستقبل تيارات

---

(١) يطلق على المدرسة الوحشية فى الفن الحديث تعبير الڤندالية Vandalism .

الحضارة والهجرة ، فى حين كان انتقال هذه التيارات غربًا أمرًا صعبًا ، بسبب القلب الميت فى الميسيتا La Meseta ، وبسبب الجبال التى تنهض لدى الساحل ، فضلاً عن أن الأنهار السريعة الجريان ، كانت عائقًا فى سبيل الملاحة فى معظم شهور السنة .

فى قاصية الشمال على التخوم مع الأرض الكبيرة (فرنسا) ، كانت البُرتات [١] Pirineos [٢] ، وهى سلسلة جبلية عالية ووعرة ، تجعل المرور عسيرًا عبر بواباتها الأربع ، ويزيد من ذلك أن أقام لدى الجهات الغربية منها شعب البَشْكُنْس Los Vascones [٣] ، وكانوا يضايقون من يحاول العبور من ناحيتهم .

مع ذلك فإن هذه الجبال لم تمنع الاتصال بين قطالونيا Cataluña [٤] فى شمال شرقى إسبانيا وبين سبتمانيا Septimania [٥] على الساحل الفرنجى، وقد تفردت هذه المنطقة عبر العصور بشخصيتها المستقلة ، ولغتها التى تمت بصلات من القربى مع لغة جيرانها الشماليين .

على أن هذا الاتصال بين قسم من إسبانيا وبين ما يليه شمالاً ، لم يكن معناه استمرار هذا الاتصال بين الأراضى جنوبى البرتات وشماليها ، بسبب التقطع الجغرافى الداخلى ، ونشير إليه بعد .

---

(١) أو البُرت وتعّرب خطأً بالبرانس .

(٢) وبالفرنسية Pyrenees والتسمية مشتقة من Porta اللاتينية (و Puerta الاسبانية) أى بوابة .

(٣) أو Los Vascos وبالفرنسية Basques .

(٤) أو Catalonia .

(٥) أى أرض المدن السبع وقصبتها أربونة (أو نربونة) Narbonne .

وتنفصل إسبانيا عن بلاد المغرب جنوبها بحراً ، ولكن ثمة اتصالاً بين السهل الأندلسى وبين العدوة ، ولا يبدو الاختلاف كبيراً بين جبال الأطلس فى الريف المغربى وبين جبل الثلج (شُلَّيْر) Sierra Nevada فى إسبانيا ، والفاصل بين العدوتين يسمى المجاز أو الزقاق ، وتروى الأساطير أن العدوتين كانتا متصلتين فى القديم إلى أن فصل بينهما الإسكندر .

بوجه عام فإن عدوتى المضيق ، اجتمعتا لدى سلطة واحدة فى أزمنة مختلفة ، ففى العصر الرومانى كانت ولاية مرطانية الطنجية Mauretania Tingtana ، تضم سواحل العدوتين ، وعندما اشتد ساعد الأمويين بعد إعلان خلافتهم استولى الناصر (٣٠٠/ ٩١٢ _ ٣٥٠/ ٩٦١) على سبتة وأطاعه بنو إدريس وملوك زَناتة ، وفيما بعد سقطت عدة من معاقل المغرب وثغورها البحرية قبل سقوط غرناطة نفسها .

وكما كانت الحال بالنسبة لقطالونيا ، فإن التأثيرات القادمة من الجنوب كانت تضعف حين تجاوز السهل الأندلسى ، وفى الحالين صارت لهذين الإقليمين خصائصهما التى يتفردان بها عن سائر أقاليم إسبانيا .

إذا انتقلنا إلى شبه الجزيرة فى ذاتها ، أى إسبانيا موضعاً ، فإننا بداءةً نتعامل مع ما ورد فى كتب الجغرافية العربية بحذر شديد ، فالجغرافيون العرب فى وصفهم للأندلس ، وجعلها فى معظمها داخلةً فى الإقليم الرابع ، وهو خير الأقاليم عندهم ، إنما يضعون فى أذهانهم الأراضى التى استقر بها المسلمون الأوائل على نحو واضح ، وعرفوها أكثر من غيرها ، وهى السهل الأندلسى وجنوبى البرتغال (مقاطعة الغرب Algarve) والشرق Levante ، وهم فى الأحوال جميعها يبالغون فى وصفهم .

ونحن نلاحظ تنوع الخصائص الجغرافية لإسبانيا ، من تباين فى سطح

الأرض وتقطعه الحاد وتعدد الأقاليم المناخية والغطاء البنائى . وشغلت الميسيتا ـ وهى هضبة عالية ـ معظم الداخل وتخترقها سلاسل جبلية تقترب فى بعض الأحيان من سواحل البحر ، فلا تترك سوى أراض صغيرة المساحة منخفضة .

وتسود البلاد ثلاثة أنماط مناخية ـ محيطى وقارى ومتوسطى ـ ففى الشمال الغربى مطر كثيف موزع على مدار العام ومراع غنية ، وفى الوسط (الميسيتا) إستبس قارى شبه جاف ، تغطيه أعشاب فقيرة ، وفى الجنوب والشرق مناخ معتدل صيفاً ، وإن كان أدنى إلى الجفاف فى الشرق ، وبوجه عام تعيش معظم إسبانيا فى ظل المطر .

أدت هذه الطبيعة المتباينة إلى تعدد أشكال الحياة الزراعية فى إسبانيا ، فتعيش بعض اقاليمها على مياه الأمطار التى تتفاوت من مكان إلى آخر ، ويعيش بعضها الآخر على مياه الأنهار التى تحمل أحياناً وتجف أحياناً ، وتسبب أضراراً فى الحالين .

تركت الجغرافية ـ موقعاً وموضعاً ـ أثرها الواضح (وأحياناً الفادح) فى تاريخ إسبانيا وحضارتها عبر العصور . وقد نشأ عن الموقع المتطرف والمنعزل ، أن اتخذت هذه البلاد طريقها الخاصة بها فى فترة باكرة ، وصار أهلها يشعرون بالتوحد فى جزيرة تميل بطبيعتها إلى التعدد ، وصار لديهم نزوع دائم إلى الاستقلال عن دولة عامة تجمعهم ، ونزوع آخر دائم إلى الاستقلال بدين واحد (ومذهب واحد) يجمعهم .

وإذا كان الموقع المتطرف والمنعزل يدفع الإسبان إلى التوحُّد ، فإن الموضع المتقطع دائماً والمتناقض أحياناً ، كان يدفعهم إلى التعدُّد ، وقد أسفر هذا التعدد عن نزعة محلية يعبر عنها بالإقليمية Regionlismo ، تحققت داخل المجتمعات الإسبانية الصغيرة ، وأعان عليها ما كانت تواجهه هذه المجتمعات من

مشكلات حياتية ، وأعان عليها أيضاً صعوبة المواصلات بين بعضها البعض ، وصار لكل مجتمع منها مدينته الحصينة (أو مدنه الحصينة) وإليها يتوجه شطر كبير (أو الشطر الأكبر) من انتماء أفراد هذا المجتمع .

التعدد أيضاً كان له دوره في أن صارت الشخصية الإسبانية (والأندلسية أيضاً) عنيفةً وعنيدة ، مما كان يطيل في أمد النزاعات السياسية ، ويدنى من وقعها في الوقت نفسه ، ويكرّس الميل إلى الشغب على أصحاب السلطان ، وتوزعت الشخصية الإسبانية (والأندلسية أيضاً) بين التطرف في اللهو وبين التطرف في الزهد ، مع نزوع واضح إلى تضخيم الذات .

والإسبان ـ شأنهم شأن غيرهم من الشعوب ـ مزيج مركب من الأعراق ، ولا ندرى على نحو محدد إلى أية مجموعة بشرية ينتمى الإسبان الأوائل ، وكل ما لدينا أن ثمة جنساً قديماً ، يرجح إنه إفريقى ، كان يسكن فى تلك البلاد فى حقبة سحيقة ، وأطلق عليه الباحثون المحدثون تعبير الأيبيريين Iberi ، وربما كانوا الأجداد المباشرين للبشكنس سكان التخوم بين إسبانيا وفرنسا .

قبل الميلاد بألف سنة أو نحوها توافد إلى إسبانيا شعب الكلت Celti [١] ، وهم سلالة هندية ـ أوربية ، ملأت فضاء أوربا الغربية ، ولا يزال لهؤلاء الكلت ولغتهم (أو لغاتهم) وتدعى أحياناً بالغاليّة Gallic بقية فى أنحاء متفرقة من الجزر البريطانية وفرنسا .

بدأ هؤلاء الكلت عصراً جديداً فى تاريخ إسبانيا هو عصر الحديد ، فقد اصطحبوا معهم أسلحة حديدية وعربات حربيةً وخيولاً ، ثم تزاوجوا مع الايبيريين، ونشأ جيل جديد ، يطلق عليه المؤرخون وعلماء الأنثروبولوجيا تعبير الكلت ـ أيبيريين Celitberi .

---

(١) أو Celtae .

فى العصور التالية تعرضت إسبانيا لهجرات أعراق أخرى ، غزتها سلماً وحرباً، هم الفينيقيون واليونانيون والقرطاجيون والرومان ، وهؤلاء أتوا من جهة الشرق ، والجرمان ـ القوط الغربيون على نحو أساس ـ وهؤلاء أتوا من جهة الشمال ، والمسلمون ـ عرباً وبربر ـ وهؤلاء أتوا من جهة الجنوب .

شارك هؤلاء الغزاة جميعهم فى تكوين الشخصية الإسبانية ، كما شاركوا فى تكوين الحضارة الإسبانية ، على أن حظوظهم تفاوتت فى هذا الصدد ، وكان أظهرهم فى العصور القديمة الرومان ، وكان أظهرهم فى العصور الوسطى المسلمون .

3 ـ الحقبة الرومانية :-

فى مطالع القرن الثامن قبل الميلاد ، توافد إلى إسبانيا مهاجرة من الفينيقيين، وهم شعب متحضر مغامر ، كان يسكن سواحل بلاد الشام ، وبرع فى التجارة عبر البحر ، فأسس عدة مدن على سواحل إسبانيا الشرقية والجنوبية ، أقدمها قادش ثم مالقة .

بعد مائة عام أو مائتين توافد مهاجرة من اليونانيين ، أنشئوا بدورهم مدناً ومستوطنات ، أهمها إمبوريون Emporion ، وهى أنبوريش Ampurias على الساحل القطالونى ، ونشأت منافسة بين الشعبين ، حسمها تدخل قرطاجة Carthago .

كان الفينيقيون قد أسسو هذه المدينة على الساحل الإفريقى على مقربة من موقع مدينة تونس الحالية ، وعندما استوى عودها ، شرعت فى تأسيس امبراطورية واسعة فى غربى المتوسط بلغ صداها إسبانيا ، وجالدت اليونانيين إلى أن حلت

محلهم هناك وأسست قرطاجة الجديدة Cartagena [1] ، على الساحل الإسبانى ، لتصبح مركزاً لسيادتها هناك .

فى بدايات القرن الثالث قبل الميلاد بزغت قوة جديدة هى قوة روما التى حققت السيادة فى إيطاليا ، ونازعت قرطاجة السيادة على صقلية ، وأفضى ذلك إلى ثلاثة حروب أسفرت فى النهاية عن تدمير قرطاجة نفسها فى سنة ١٤٩ ق.م .

كانت إسبانيا مسرحاً لبعض المعارك التى نشبت بين القوتين الكبيرتين ، وكانت الجسر الذى عبرته جحافل حنيبعل Hannibal فى غزوته الشهيرة لروما ، كما كانت الجسر الذى عبرته جحافل خصمه سكيبيو Scipio ، وعلى يديه انتهت الإمبراطورية القرطاجية فى إسبانيا فى سنة ١٩٧ ق.م .

على إنه كان على الرومان أن يخوضوا صراعاً آخر لتثبيت سلطانهم فى الأراضى الإسبانية ، واستغرق هذا الصراع سنوات طويلة ، لأنهم واجهوا قبائل عنيدةً شديدة المراس فى قاصية الشمال والغرب ، ولم تتحقق لهم السيادة الكاملة إلا فى عهد أُغسطس Augustus (٢٧ ق.م ـ ١٤ م) .

قسمت إسبانيا إلى خمس ولايات ، وكان الحاكم العام ويلقب بنائب إسبانيا Vicarius Hispaniorum يزاول حكمه من مدينة هيسپاليس Hispalis التى عرفت فيما بعد بإشبيلية Sevilla .

درج الرومان فى حكمهم على أن يجعلوا الوحدة الأساسية للإدارة هى البلدية Municipium (Civitas) ، وكانت تضم نواةً حضريةً Urbs ، وإقليماً ريفياً مترامياً Territorium ، ويضم قرى عديدةً وضياعاً ، ونهضت على إدارة البلدية

---

(١) وتعرف أيضاً بـ Carthago nova .

هيئة تدعى بالمَشْوَرَة Curia ، تضم مائة شخص يختار منهم كبار الموظفين .

صارت إسبانيا جزءاً من الإمبراطورية الرومانية نحواً من خمسة قرون ، وقامت بدور فاعل فى تاريخ هذه الإمراطورية وحضارتها ، وشاركت فى الصراعات على السلطة ، بين القادة الرومان ، وكان لوقوفها إلى جانب پومپى .Gn Pompeius. أثره فى أن اقتحمها خصمه قيصر G. Julius Caesar فى آخر حرب من حروبه المشهورة .

فى المرحلة الأولى من السيادة الرومانية كانت الأحوال العامة مستقرة ، وأنشئت العديد من الطرق والقنوات والقناطر والملاعب ، وتقبل الناس القانون الرومانى والعادات الرومانية واللغة اللاتينية ، كما تقبلوا الديانة النصرانية ، وصاروا ينظرون إلى أنفسهم على أنهم رومان ، وذلك قبل سنوات طويلة من إعلان كاراكلاً Caracalla (٢١١ ـ ٢١٧)فى سنة ٢١٢ منح الجنسية الرومانية لرعايا الدولة كافة .

فى المقابل فإن إسبانيا قدمت إلى الحضارة المعاصرة عدداً من رجالها البارزين، ومنهم سنيكا Seneca (ت٦٥) ولوكان Lucanus (ت٦٥) وكولوميلا Columella (عاش فى القرن الأول) وأوروسيوس P. Orosius (بعد ٤١٦) كما قدمت عدداً آخر من الأباطرة ومنهم تراجان Trajanus (٩٨ ـ ١١٧) وهادريان Hadrianus (١١٧ ـ ١٣٨) وماركوس أُورليوس Marcus Aurelius (١٦١ ـ ١٨٠) وثيودوسيوس Theodosius (٣٧٩ ـ ٣٩٥) ، وقدمت كذلك واحداً من البابوات هوداماسوس Damasus (٣٦٦ ـ ٣٨٤) .

على أنه عندما بدأت أحوال الدولة تضطرب فى غضون القرن الثالث ، انصرف همها إلى جباية ما تستطيع جبايته من أموال رعاياها ، وفى مقدمها ضريبة الرأس Capitatio ، واستحدثت ضرائب أخرى ، فضلاً عن السخرة Munera .

كان أصحاب الضياع الكبيرة Latifundia (Villae) بنجوة من أعباء هذه الضرائب ، فى حين إن أصحاب الضياع الصغيرة ، وهم من أهل المشورة Curiales لم يجدوا إلا أن يلجئوا ضياعهم إلى كبارهم ، مقابل حمايتهم ، وتحولوا بدورهم إلى مستأجرين وأحياناً إلى أقنان .

كان الأقنان Coloni هم كثرة سكان الريف ويرتبطون بالأرض يؤدون إلى المالك الكبير أموالاً وخدمات عمل ، فضلاً عن جزء من المحصول ، ولم يكن من حقهم أن ينتقلوا من أرضهم ، أو أن يغيروا مهنهم ، بينما كان من واجبهم الخدمة فى الجيش . أما العبيد Servi فبعضهم يزرع الأرض للسيد ، وآخرون يعملون فى دواره ، وللسيد أن يحرر عبده ، لكن المحررين Liberti ، كانوا عادةً ما يبقون فى الأرض أتباعاً لسيدهم .

الباب الأول

إسبانيا القوطية

الفصل الأول

مملكة القوط الغربيين

١ - رحلة القوط الغربيين من جرمانيا إلى إسبانيا :

فى مطالع القرن الخامس الميلادى وصلت الإمبراطورية الرومانية إلى نهاية رحلة أفولها الطويلة .

وليس عملنا هنا أن نؤرخ لهذه الإمبراطورية فى مرحلتها المتأخرة ، على أن أهم معالم هذه المرحلة ، هى الهجرات المتتابعة للشعوب الجرمانية ، ولم يعد فى إمكان الفيالق الرومانية أن تدافع هذه الشعوب ، وقد تدافعت بحشودها الهائلة ، فأخلت لها جبهة الدانوب - الراين ، ومضت فى اتجاه العاصمة التالدة روما .

كان القوط Gothes [١] هم أوفر هذه الشعوب حضارةً ، وأكثرها قوة ، وقد تنصروا فى فترة باكرة على مذهب أريوس Arius [٢] كما ترجم الإنجيل إلى لغتهم ، وبعد صدامات بينهم وبين الدولة ، صاروا حلفاءً لها ومعاهدين Foederati ، ثم انقسموا إلى شرقيين وغربيين ، واستقرت الحال بالغربيين منهم فى ولاية داكيا Dacia [٣] .

فى أخريات القرن الرابع ، ونتيجة لدفع الهون ، وهم قبائل همجية ، اضطر القوط الغربيون إلى عبور الدانوب ، حيث عاودوا صدامهم مع الدولة ، كان من نتائجه أن قتل الإمبراطور ڤالنس Valens (٣٦٣ - ٣٧٨) ، كما كان من

---

(١) أو Gothones .

(٢) كاهن من الإسكندرية يذهب إلى ترجيح الناسوت فى المسيح عليه السلام على اللاهوت .

(٣) رومانيا الحالية على وجه التقريب .

نتائجه أن اعترفت الدولة لهم بالسيادة على تراقيا [١] .

فى أعقاب هذا النصر صار الاريك Alaricus ملكًا على القوط الغربيين ، وكان لديه طموح ، لأن يحقق لنفسه وقومه مكانةً كبيرةً فى العالم الرومانى ، وأداه هذه الطموح ، لأن يحاصر القسطنطينية فى سنة ٣٩٥ ، ثم استولى على إلليريا Illyria [٢] لكنه لم يلبث أن صرف ناظريه إلى إيطاليا ، وتردد بهجماته على روما ـ وكان الإمبراطور قد غادرها إلى راڤنا Ravenna ـ وحاصرها مرتين إلى أن اقتحمها فى العام ٤١٠ .

كان لاقتحام روما أثره الفادح عند المعاصرين ، فانصرف عدد من الوثنيين ـ وكانوا غالب سكان الإمبراطورية ـ فنسبوا إلى النصرانية مسئوليتها عما جرى من نكبات لهذه الإمبراطورية فى عهدها الأخير ، مما أثار حفيظة أحد أحبار الكنيسة ورجالها المرموقين ، وهو القديس أوغسطين Augustinus (ت ٤٣٠) ودفعه إلى أن يصنف كتابه « مدينة الله » De Civitate Dei ، يفند فيه هذا الزعم .

بعد يسير من دخوله روما ، غادرها ألاريك فى اتجاه الجنوب ، من أجل أن يضع يديه على منابع القمح فى ولاية إفريقية [٣] ، لكنه عند عبوره إلى صقلية ، هبت ريح عاصفة مزّقت سفنه ، ثم مرض هو نفسه ومات ، وانصرف قومه عن إيطاليا إلى غاليا Gallia [٤] ، حيث اعترفت الدولة بسيادتهم على غالية النربونية

---

(١) أقصى الطرف الشرقى من شبه جزيرة البلقان ، موزعة اليوم بين تركيا واليونان .

(٢) غربى شبه جزيرة البلقان (تقابل اليوم ألبانيا وأجزاءً من بلاد اليونان) .

(٣) المقصود ما كان خاضعًا للسيادة الرومانية (ثم البيزنطية) من بلاد المغرب ، وعلى نحو خاص تونس .

(٤) فرنسا على نحو أساس .

Gallia Narbonensis ، وتضم الأطراف الجنوبية من غاليا والأطراف الشمالية من إسبانيا .

فى السنوات التالية ، اتسع مدى السيادة القوطية فى غاليا ، خصوصاً بعد أن شارك القوط الرومان فى مدافعة الهون ، وهزيمتهم فى شالون Chalons فى سنة ٤٥١ ، وصارت لهم دولة كبيرة عاصمتها تولوز Toulouse .

كذلك اتسع مدى السيادة القوطية فى إسبانيا ، فدافعوا من سبقهم إليها من الشعوب البربرية ، وطاردوا الفندال ، ومن لاذ بهم من اللان Alani إلى باطقة (السهل الأندلسى) ، ثم إلى إفريقية ، وحصروا السويف Suevi فى جليقية Gallaecia[1] ولُجْدانِيّة Lusitania [2].

وصلت الدولة القوطية إلى أوج قوتها فى عهد يوريك Euric (٤٤٦ - ٤٨٤) لكن القوط تعرضوا إلى خطر جسيم ، من قبل أقربائهم الفرنجة ، الذين نازعوهم السيادة فى غاليا ، واستطاع ملكهم كلوفيس Clovis (٤٨٦ - ٥١١) [3] أن يقضى على هذه السيادة فى سنة ٥٠٧ بانتصاره على القوط فى ڤوييه Vouglé [4] على مقربة من پواتييه Poitiers ، وقتل ملكهم الأريك - ولديوريك - واقتحم عاصمتهم تولوز ، فانتقلوا عنها إلى أربونة ثم برشلونة Bar-celona ، ولم يتبق لهم فى غاليا سوى شريط ضيق على الساحل الجنوبى هو سبتمانيا ، وقد ظل هذا الشريط يصاحب وجودهم فى إسبانيا ، حتى زوال دولتهم .

---

(١) وهى جاليثيا Galicia .
(٢) البرتغال تقريباً .
(٣) ويعرف عند العرب بقلوذية .
(٤) أو Vouillé .

2 - السيادة القوطية في إسبانيا :

أفضى الصدام بين الفرنجة والقوط فى غاليا إلى أن وصل هؤلاء ـ أى القوط ـ إلى قناعة بأن خيارهم النهائى هو إسبانيا ، ولما كانت برشلونة المتطوحة فى الشمال الشرقى قريبةً من تخومهم مع خصومهم ، فإنهم انتقلوا بحاضرتهم إلى ماردة Mérida المتطوحة فى الجنوب الغربى ، والمصاقبة لإقليم الأندلس الخصيب، حيث توجد معارضة قوية من سكانها الرومان الكاثوليك .

على أنه ما كادت تمضى عدة سنوات حتى ووجه القوط بخطر داهم ، توافد إليهم من الشرق .

كان الإمبراطور البيزنطى جستنيان Justinianus (٥٢٧ ـ ٥٦٥) قد سعى إلى إحياء الإمبراطورية الرومانية باعتباره الوريث الشرعى لها ، وعليه استطاع أن يسترد إفريقية ثم إيطاليا من البرابرة ، وبات يتطلع إلى إسبانيا .

أفاد جستنيان من نزاع نشب حول عرش القوط ، فانحاز إلى أحد طرفى النزاع ، وأرسل قائده ليبريوس Liberius فى سنة ٥٥٤ ، وأصحبه جيشاً وأسطولاً من صقلية ، فنجح فى أن ينصب أثناجيلد Athanagild (٥٥٤ ـ ٥٦٧) ملكاً ، لكنه رفض أن ينسحب فى المقابل ، ووضع يديه على جنوبى وجنوب شرقى البلاد ، وظلت السيادة البيزنطية فى إسبانيا ، بين مد وجزر نحو سبعين سنة . وهو ما أهم ليو ڤيجيلد (٥٦٧ ـ ٥٨٦) ولد أثنا جيلد ، لأن ينتقل بعاصمته من ماردة القريبة من خصومه البيزنطيين إلى طُلَيْطُلَة Toledo البعيدة عنهم .

كانت طليطلة بموقعها المتوسط هى المدينة الملكية Urbs regia بامتياز ، ومنها انطلق الملوك القوط ، لتحقيق سيادتهم الكاملة على شبه الجزيرة ، وكان على ليوڤجيلد أن يخوض صراعاً، استمر سنوات حكمه جميعها مع البيزنطيين فى

باطقة ، والبشكنس فى البرتات والسويف فى جليقية .

أفاد ليو ڤيجيلد من موت خصمه الإمبراطور القوى فى سنة ٥٦٥ ، فاسترد بين سنتى ٥٧٠ و ٥٧٢ مالقة وشذونة Medina Sidonia وقرطبة ، وتقلّص الوجود البيزنطى إلى مدى خطير ، ثم أقمع البشكنس فى سنة ٥٨١ ، وخلد نصره عليهم بأن ابتنى مدينة ڤيتوريا Vitoria ، ومع أنهم عاودوا العصيان عدة مرات فى عهده وعهود خلفائه إلا أنه وضع بنصره هذا حدوداً لعصيانهم ، أما السويف فقد انتهى أمرهم فى سنة ٥٨٥ ، وأرغم آخر ملوكهم على دخول الدير.

على أن المشكلة الأهم لتأكيد السيادة القوطية فى إسبانيا كانت هى إذابة الحواجز بين القوط ـ وهم الحكام ـ وبين الإسبان ـ الرومان ـ وهم المحكومون ـ فكان لكل من الشعبين قانونه الخاص ، كما كان له مذهبه الدينى الخاص ، وقد استغرقت هذه العملية نحواً من قرن من الزمان .

سعى ليوڤيجيلد ـ شأنه شأن أسلافه ـ إلى أن يفرض العقيدة الأريوسية على رعاياه ، لكنه أخفق فى مسعاه ، بل إن أحد ولديه تكثلك ، وكان نصيبه القتل، لكنه عندما خلفه ولده الآخر ريكاريد Reccared (٥٨٦ ـ ٦٠١) فإنه أعلن عقيب ولايته الكاثوليكية عقيدةً رسمية ، وألزم رعاياه بها ، ومع أن إعلانه هذا لم يمردون مقاومة ، بل إن أحد خلفائه نكص إلى الأريوسية ، إلا أنه لم تمض سنوات كثيرة ، حتى أضحت الكاثوليكية هى العقيدة السائدة فى البلاد كافة .

كان للتحول العقدى أثره فى أن استمرت عملية الرومنة ، وكانت عمليةً كاسحةً ، من معالمها أن اتخذ الملوك سمت الأباطرة الرومان ، واتخذوا ألقابهم ، كما اتخذوا اللغة اللاتينية ونهضوا بآدابها ، وأصبحت إسبانيا معقلاً هاماً من المعاقل الحضارية القليلة الباقية فى الغرب .

على أن الخطوة التالية كانت هى التوحد التشريعى ، فقد كان لكل من

الشعبين ـ القوط والإسبان ـ الرومان ـ مجموعته القانونية الخاصة به ، وكان من الضرورى أن يحتكم الإثنان إلى مجموعة قانونية واحدة . وقد بدأ يوريك هذا المسعى فى سنة ٤٧٠ ، وتابعه خلفاؤه إلى أن تم تتويج هذه الجهود فى عهد خنداسفنث Khindaswinth (٦٤٢ ـ ٦٥٣) وولده ركسفنث Recces-winth (٦٥٣ـ ٦٧٢) حيث صدر كتاب القوانين Liber Iudiciorum[1] وروجع عدة مرات ، ثم أقر على نحو نهائى فى سنة ٦٩٣ .

ترتب على ذلك أن تحققت الوحدة الدينية والوحدة التشريعية ، واكتملت الوحدة السياسية ، بإزالة ما تبقى من السيادة البيزنطية على يدى سفنتيلا Swin-thila (٦٢١ ـ ٦٣١).

3 - نظم الدولة والكنيسة :

كان الملك يعرف بملك القوط Rex Gothorum ، وتلقب ـ وإن كان فى وقت متأخر- بألقاب رومانية ، مثل Princeps وتعنى أميراً وفلاڤيوس Fla-vius [2] . وجرى العرف عند القوط ، على أن يكون منتخباً من قبل الأحبار والنبلاء وتأكد هذا المبدأ فى مجمع طليطلة الرابع (٦٣٣) وفى مجامع تالية أهمها المجمع الثامن (٦٥٣) .

جرى العرف كذلك بأن الملك لدى تتويجه ، يقسم بأن يحكم بالعدل ، طبقاً للقانون وقواعد الكنيسة ، كما كان على من قاموا بانتخابه أن يقسموا بالولاء له ، وكان النكث بهذا القسم كالنكث بشعيرة دينية .

---

(١) ويعرف أيضاً بـ . Lex Romana Reccevindiana و Forum Iudiciorum

(٢) نسبة إلى الأباطرة الفلاڤيين الذى حكموا فى روما (٧٩ ـ ٩٦) ، وحققت الدولة فى عهدهم قدراً وافراً من الازدهار .

اجتمعت لدى الملك كل السلطات ، أو إنه كان يمارسها ، من خلال المجلس الملكى ومجمع طليطلة .

كان المجلس الملكى Aula regia هيئةً ، يضم كبار المتنفذين فى البلاط وكبار النبلاء Magnates وأساقفة الكراسى الكنسية القريبة من طليطلة ، وله دور استشارى فى التشريع والإدارة والحرب والسياسة الخارجية ، كما كان يتحول أحياناً إلى هيئة قضائية .

أما مجمع طليطلة ، ويعرف أيضاً بمجلس طليطلة ، فكان هيئةً تشريعيةً ذات صبغة دينية تضم كبار رجال الدين ، وعلى رأسهم مطران طليطلة ، وعندما كان المجمع يناقش أموراً علمانية ، كان يضم إليه أعضاء المجلس الملكى .

كان المجلس يعقد بناءً على دعوة الملك، وتحدد دوره فى تقديم المشورة ، واقتراح القوانين أو تعديلها ، وأحياناً تضاف إليه مهام قضائية . على أن الأهم من هذا كله أن المجلس كان يصدق على القوانين التى يصدرها الملك ، لهذا فقد صار أشبه بأداة فى يديه Instrumentum regni .

انقسمت المملكة إلى خمس ولايات داخل إسبانيا ، هى طَركونة Tarra-gona قرطاجنة ، لجدانية ، باطقة وجليقية ، وولاية واحدة خارج إسبانيا هى سبتمانيا ، ويحكم كل ولاية دوق Dux ، يعينه الملك ويختاره من بين أبنائه أو من النبلاء . كما كانت كل ولاية تنقسم إلى أقاليم Territoria ، وقد حلت مكان البلديات الرومانية ، وعلى كل إقليم منها قومس Comes [1] ، يعينه الملك كذلك ، وتتبع كل إقليم قرى وضياع بها ملاك ، توافرت لديهم سلطات واسعة، فيقومون على النظام داخل القرية أو الضيعة ويتقاضون الأجور من أتباعهم، ويتلقون خدماتهم ، ويمارسون القضاء بينهم .

---

(١) أى كونت .

كان يعهد إلى الدوقات والقوامس بجباية الأموال المستحقة للدولة ، ومنها ضريبة الأرض وتؤدى نقداً أو عيناً من أراضى الرومان وأحياناً من أراضى القوط ، وضريبة الرأس ويؤديها الرومان والقوط جميعاً ، والرسوم على التجارة العابرة وغيرها .

أما عن الكنيسة فقد صارت لها فى إسبانيا مكانة لا تدانيها مكانتها فى أقطار أخرى خارج إسبانيا ، والسبب فى ذلك أنها كانت منظمةً تنظيماً جيداً ، يعود فى أصوله إلى الحقبة الرومانية ، وقام عليها فى بعض الفترات رجال ذوو فضائل شخصية ومواهب وثقافة ، والأهم من هذا كله أن رجال الكنيسة كانوا هم المكون الأساسى لمجامع طليطلة ، وقد صاحبت تاريخ الدولة ، منذ أخريات القرن السادس بحيث بدت هذه الدولة ـ يذهب البعض ـ دولةً ثيو قراطية .

كانت الكنيسة ـ شأنها شأن الدولة ـ تضم ست ولايات ، على رأس كل ولاية منها مطران ، وفى غضون القرن السابع ، صار مطران طليطلة هو الرئيس الأعلى للكنيسة الإسبانية .

انقسمت كل مطرانية إلى أسقفيات ، بلغ عددها ثمانية وسبعين ، وكان شعب الأسقفية يختار أسقفه ، وبعد أن تحول ريكاريد إلى الكاثوليكية ، صار هذا الأسقف ـ شأنه شأن المطران ـ يعين من قبل الملك ، وتم تنظيم هذا المبدأ على نحو نهائى فى المجمع الثانى عشر (٦٨١) .

كان الأسقف فى كاتدرائيته مسئولاً عن الكنائس التابعة له ، وهو الذى يرسم قساوستها ويشلحهم ، ويشرف على أدائهم لمهامهم ، كما كانت تتبعه محاكم خاصة بهم ، تصدر أحكامها مستقلةً عن الدولة ، ويصل بعضها إلى الحرمان ، على أنها قد تستأنف أمام المستوى الأعلى وهو المطران ، وربما أمام البابا .

كان للكنيسة مواردها الخاصة بها ، فقد امتلكت ضياعًا واسعةً معفيةً من الضرائب ، يتوجه ثلث مواردها للنفقه على منشآتها ، وثلث لحاجات الأسقف ، والثلث الأخير لمن هم دونه ، كما كان لها مواردها من العشور والهبات .

إلى جانب الكنائس أنشئت العديد من الأديرة للرجال والنساء ، ووضعت اللوائح المنظمة لها ، وأهمها اللائحة المنسوبة إلى القديس ايسيدور Isidorus (ت ٦٣٦) وتنحو نحواً معتدلاً ، واللائحة المنسوبة إلى القديس فروكتوسوس Fructuosus (ت ٦٦٧) وتنحو نحواً متشدداً .

الفصل الثاني
البناء الإجتماعي والثقافة

أ - البناء الإجتماعي :

كان المجتمع الإسباني ينقسم على نحو حاد إلى كثرة من الأحرار ، وقلة من غيرهم ، وكان هذا التقسيم يتخذ فى بعض الأحيان طابعاً عرقياً ، ولم تكن تلك ظاهرةً خاصةً بإسبانيا وحدها ، إنما كانت ظاهرةً عامةً فى أوربا بأسرها .

كان النبلاء Seniores [1] فى معظمهم من القوط ، ويشكلون مع رجال الدين الطبقات العليا Clasas elevadas ، وقد حازوا ضياعاً واسعة ، وآلت إليهم ثلثا الحيازات الرومانية Fundi ، بينما احتفظ الرومان بالثلث ، وتمتعوا إلى جانب ذلك بامتيازات قضائية ، وشارك كبارهم فى مجمع طليطلة والمجلس الملكى ، كما كان من مهامهم انتخاب الملك .

نتيجةً لما جرى من توحد مذهبى ، وما جرى أيضاً من توحد تشريعى ورَوْمَنَة ، فقد صار من حق من ينتمون إلى أصول غير عريقة أن يرفعوا إلى درجة النبالة ، إذا ما أظهروا مواهب معينةً ، وهذ يعنى أن عدداً من الإسبان ـ الرومان أدرجوا فى طبقة النبلاء ، لكنه لا يعنى بالضرورة أنه صار ظاهرةً عامةً ، لأن الأرستقراطية بدت فى أواخر القرن السابع وراثية .

أما عن رجال الدين ، فلم يكونوا جماعةً واحدةً فى صدر دولة القوط ، فالبعض منهم كانوا أريوسيين والبعض الآخر كانوا كاثوليك . ومع ما جرى من توحد مذهبى فى زمن ريكاريد ، صاروا جميعهم جماعةً واحدةً ، تعود فى

---

(١) ويعرفون أيضاً بـ Maiores ، Primates ، Proceres .

معظمها إلى إصول إسبانية رومانية . وقد ازداد عدد رجال الدين ، بعد أن دخل فى جملتهم عدد من غيرهم ، حتى لا يلتحقوا بالخدمة فى الجيش ، مما دفع بعض الملوك فى مرحلة متأخرة إلى تعميم الخدمة العسكرية ، لتشمل كذلك رجال الدين .

الملاحظ ـ على نحو عام ـ أن سلطة رجال الدين تصاعدت ، بعد ما جرى من توحد مذهبى فى عهد ريكارد ، لكن هذا لا يعنى بالضرورة ـ يذهب أوكالاهان O'Callaghan ـ أن الدولة صارت ثيو قراطيةً ، فالملوك لم يتنازلوا عن سلطاتهم للأساقفة ، وإنما أتاحوا لهم أن يمارسوا قدراً من النفوذ فى الشئون العامة . ومثلما اعترف الأساقفة من ناحيتهم بأن الملكية هى الضمانة الأكيدة للقانون والنظام ، فإن الملوك اعترفوا بالكنيسة على أنها الدعامة الأساسية لقوتهم . وإذا بدت مؤسسة الكنيسة فى بعض الأحيان أقوى من مؤسسة الملكية ، فالسبب فى ذلك هو الضعف الأساسى لهذه الأخيرة وهو الأسلوب الإنتخابى .

وكان العامة (أو الأحرار)Ingenui[1] هم كثرة عناصر السكان ، ويتحدرون على نحو أساسى من أصول إسبانية ـ رومانية ، وحدد لهم القانون حقوقاً معينةً وواجبات ، لكنه كانت تفصلهم عن النبلاء هوة واسعة ، ولم يتمتعوا بما كان لهؤلاء من امتيازات قضائية ، فكانوا يخضعون للتعذيب ، كما تناقصت أعدادهم، مع انقراض طبقة الكورياليس . وكان الحرفيون منهم والتجار وتجمعهم طوائف مهنية Collegia يعانون من الضرائب ، مما حمل عدداً كبيراً منهم للهرب إلى الريـف .

أما فى الريف فقد استمرت ظاهرة الإلجاء واتسع مداها ، وتحول الملاك

---

(١) ويعرفون أيضاً بـ Minores ، Inferiores

الصغار إلى مستأجرين عند ملاك كبار ، وعرفوا - من ثم - بالمحميين Buccel-larii ، وكان لهؤلاء الحرية فى أن يتركوا خدمة المالك إلى مالك آخر ، لكنه كان عليهم أولاً أن يعيدوا إليه الأرض التى منحها لهم ، ولم ينهج هذا النهج سوى عدد يسير ، وصارت التبعية وراثية .

على أن عامة سكان الريف كانوا من الأقنان Coloni من أصل إسبانى - رومانى ومع أنهم كانوا من الناحية النظرية أحراراً ، إلا أن أحوالهم كانت أقرب إلى أحوال العبيد ، فكانوا مرتبطين بأرضهم Adscripti Gelebae لا يستطيعون مغادرتها ، ويؤدون لسادتهم الأجرة وخدمات شخصية وضريبة الرأس ، وألزمهم القانون بأن يتزاوجوا فيما بينهم ، وليس للواحد منهم أن يتزوج دون موافقة سيده، فإذا فعل فصلت عنه زوجه ، وعندما كان يتزوج بسيدة من ضيعة أخرى غير ضيعته كانت الذرية تقسم بين الضيعتين .

أما العبيد Servi [1] ، فهم فى أصلهم أسرى حرب أو مدينون أو مجرمون سابقون ، وازدادت أعدادهم زيادةً كبيرةً فى القرن السابع ، بعد أن دخل فيهم عدد من الأقنان .

كان العبد من الناحية النظرية شيئًا ، ليست له حقوق وحاله مؤبدة ، بل إنه حين كان يتزوج بحرة ، يصير أولاده عبيداً . ولم تسع الكنيسة - يذهب دوزى Dozy (ت ١٨٨٣) - إلى حل لمشكلة العبيد ، بأن تدعو إلى الرفق بهم وتحريرهم ، بل كانت تحثهم على طاعة أسيادهم ، وكان موقفها فى عهد الهرطقة الأريوسية أفضل من موقفها ، بعد أن أعلنت الكاثوليكية عقيدةً رسمية ، وآلت إلى الكنيسة ضياع كثيرة ، يعمل بها عدد كبير من العبيد وأكبر دليل

(١) أو Mancipii .

على سوء أحوالهم ما صدر من قوانين ضد العبيد الآبقين .

ومع أن العتق كان حقاً من حقوق السيادة ، إلا أن الشواهد عليه قليلة ، كما إن حال المعتق Libertus لم تكن لتختلف كثيراً عن حاله السابقة ، فعليه أعباء مالية أكثر من الحر ، وليس له حق الشهادة ضد حر ، وغالباً ماكان يخضع لحماية سيده السابق . وتوضح قرارات المجامع أن معتقى الكنيسة ما يزالون مرتبطين بالأرض التى نشئوا بها عبيداً .

ولما كان القوط ـ عند قدومهم ـ يدينون بالأريوسية وسط شعب من الكاثوليك ، فإنهم سمحوا لليهود بحرية العقيدة ، ولم يتدخلوا فى حياتهم الخاصة وتركوهم ينظمون أمورهم ، وفق عاداتهم وأعرافهم .

يعود وجود اليهود فى إسبانيا إلى فترة باكرة ، ويستدل من قرارات مجمع البيرة Elvira (٣٠٠ ـ ٣١٤) على وجود جماعة يهودية كبيرة ، يمتلك بعض أفرادها ضياعاً واسعةً ، ويعملون تجاراً وجباةً للضرائب ، وحققوا قدراً وافراً من الثراء .

عندما أعلن ريكاريد الكاثوليكية مذهباً رسمياً للبلاد ، بدأ اليهود يتعرضون لحملة متصلة من الإضطهاد ، صدرت بشأنها قرارات من مجامع طليطلة ، تمثل بدايات مبكرةً ـ يذهب البعض ـ لمناهضة السامية .

نستطيع أن نفسر هذه السياسة فى ميل إسبانيا الدائم نحو مبدأ الوحدة الدينية،ومما يؤكده أن من كان يتنصر من اليهود ، تصير له حقوق غيره من النصارى ، بل يجوز له أن يصعد فى مناصب الدولة والكنيسة معاً ، ومنها مطرانية طليطلة .

على أنه لا يخفى حاجة الملوك ـ بخاصة فى القرن الأخير ـ إلى أموال

اليهود ، فقد كانت لهم تجارتهم الواسعة عبر البحر ، وكان تعبير يهودى Iudae-us يرادف أحياناً تعبير تاجر Mercator ، كما لا يخفى دور ينوه إليه البعض فى مناصرة اليهود بحكم مصالحهم للروم فى صراعهم مع القوط على السيادة فى شبه الجزيرة .

على أية حال ، فقد تقرر فى المجمع الثالث (٥٨٩) حرمان اليهود من الوظائف العامة ، أو أن يحوزوا عبيداً من النصارى ، كما فرض التعميد على أطفالهم من الزواج المختلط . وعندما ولى سيسيبوت Sisebut (٦١٢-٦٢١)[1] مضى خطوةً أبعد فأمر فى سنة ٦١٣ بتعميد اليهود خلال عام واحد وإلا فالنفى والمصادرة ، فتنصر عدة آلاف ، وهرب إلى غاليا عدة آلاف .

لم تحقق هذه القوانين ما كان مرجواً منها ، لأن الإيمان مناطه الإقتناع ، وهو ما أكد عليه القديس إيسيدور ، لكنه لم يلتزم بهذا المبدأ ، عندما عقد المجمع الرابع برئاسته فى سنة ٦٣٣ ، فأصر على أن اليهود الذين تم تعميدهم لا يجوز لهم أن يعودوا إلى دينهم الأصلى ، وأصر أيضاً على تعميد اليهودى الذى يتزوج بنصرانية ، وإلا فصلت عنه زوجه .

تصاعدت الحملة ضد اليهود ، ووصلت إلى ذروتها فى المجمع الثانى عشر (٦٨١) حين تقرر مصادرة كل من لا يتنصر وتعذيبه ونفيه ، وتطبيق هذه الجزاءات على الذين يعمدون ، ثم لا يتركون الطقوس اليهودية ، كما ألزمهم بحضور القداسات ، وألزم رجال الدين بمراقبتهم .

كانت تلك صورة عامة للمجتمع الإسبانى بطبقاته كافة فى عهده القوطى، ومنها يتضح إن هذه الطبقات ـ على نحو عام ـ كانت طبقات مغلقة Estate ،

---

(١) يدعوه العرب شيشفوط .

فلم يوجد حراك اجتماعى ، بمعنى إن كل طبقة كان لها عالمها الخاص بها ، وليس لها أن تجاوزه إلا فى أحوال لا يقاس عليها . ثم إن القوط عاشوا ـ على نحو أو آخر ـ بمعزل عن أهل البلاد ، وهو ما تؤكده الكشوف الأثرية الحديثة ، فقد تركزوا فى شمالى القسم الأوسط من الميسيتا الإسبانية ، أى ما يعرف اليوم بقشتالة القديمة Castilla la vieja ، ولم ينتشروا فى سائر شبه الجزيرة .

يخرج البعض من ذلك بأن البناء الاجتماعى فى عصر القوط كان به خلل واضح ، عانى الشعب من سوءاته ، وكان أكثره معاناةً من يتحدر من أصول إسبانية ـ رومانية ، ووصلت الحال بمفكر كبير مثل أورتيجا اى جاسيت Orte-ga Y Gasset (ت ١٩٥٦) إلى أن يقرر بأن مقدم القوط مسئول عن كل النكبات التى أصابت إسبانيا عبر العصور ، بل إن كاسترو Castro يذهب إلى أنهم لم يكونوا إسباناً فى يوم من الأيام .

والحق إن فى هذا كله مغالاةً لاتصمد أمام الحقائق الثابتة ، فأحوال إسبانيا فى عهدها القوطى ، لم تكن أسوأ من أحوال أقطار أخرى غيرها ملكها الجرمان ، بل إنها كانت تفضلها فى غير مساق ، والخلل الاجتماعى الذى نشاهده فى إسبانيا تحت حكم القوط ، كان أهون من الخلل الاجتماعى الذى نشاهده فى غاليا تحت حكم الفرنجة ، أو الخلل الاجتماعى الذى نشاهده فى إيطاليا تحت حكم البرجنديين . ومنذ أخريات القرن السادس سارت إسبانيا خطوات واسعة نحو الدمج بين القوط ورعاياهم الإسبان . وكان قميناً بهذه السياسة أن تؤتى ثمارها لولا ما جرى من تطورات ننوه إليها بعد .

2 ـ الثقافة :

كانت إسبانيا تزخر بتراث ثقافى وافر ، ورثته عن الحقبة الرومانية ، لا يدانيه تراث ثقافى آخر فى أقطار أوربية أخرى .

تعرض هذه التراث لصعوبات جمة ، خلال الفوضى العامة التى رافقت الغزوات الجرمانية ، لكن إسبانيا ما لبثت أن تواصلت مع هذا التراث ، بعد أن هدأت هذه الغزوات ، واتخذها القوط مستقراً نهائياً لهم فى مطالع القرن السادس .

توافرت مجموعة من الأسباب لنهضة ثقافية محدودة ، فقد تنصر القوط ـ نعلم ـ فى فترة باكرة ، وتمثلوا حضارة الرومان واتخذوا لغتهم ، وشجعوا هذه النهضة ، بعد أن تحولوا عن الأريوسية إلى العقيدة الصحيحة ، وخطوا خطوات واسعة نحو الاندماج مع السكان .

الأكثر من هذا فإن هذه النهضة ، حظيت بقدر وافر من اهتمام الملوك ، فقربوا إليهم رجالها ، واختصوهم بمناصب رفيعة وأجزلوا اعطاءهم ، بل إن بعض هؤلاء الملوك شاركوا فى هذه النهضة ، وتنسب إلى الملك سيسيبوت معرفة واسعة بالفنون السبعة الحرة[١] ، وكتب فى علم التاريخ ، كما كان شاعراً .

سار على نهج هذا الملك عدد آخر من الملوك ، بينهم خنداسڤنث وركسڤنث وڤامبا Wamba (٦٧٢ ـ٦٨٠)

ولما كانت هذه النهضة ترتبط بالكنيسة ، فقد أنشئت العديد من المكتبات فى الأديرة والأسقفيات ، وبخاصة أسقفية إشبيلية ، فكانت مكتبتها تزخر بكتب الأدب والفلسفة والقانون والطب والتاريخ ، فضلاً عن كتب آباء الكنيسة . وقد بلغت هذه المكتبة ذروة مجدها فى عهد أسقفية إيسيدور ـ ونتحدث عنه بعد ـ

(١) وهى النحو والبيان والجدل والحساب والهندسة والفلك والموسيقى .

وقد وضع فهرساً لرصيدها من الكتب .

خلال الحقبة القوطية برزت عدة أسماء، بينها حنا البكلارى (ت ٦٢١) وهو قوطى الأصل ، تلقى العلم فى القسطنطينية ، ثم صار مقدماً لدير بكلارو Biclaro (فى البرتغال) ، ثم أسقفا لجرُنْدة Gerona ، وخلّف مدونةً تسجل الأحداث من سنة ٥٦٧ إلى سنة ٥٨٩ ، أى إنه أرخ لعهد ليوفيجيلد وصدر دولة ولده ريكاريد .

الأهم منه القديس لياندر Leander (ت ٥٩٩) وقد ولد فى قرطاجنة لأبوين من أصل رومانى ، وكان وراء كثلكة أحد ولدى ليوفيجيلد ــ ومن ثم تمرده ــ فارتحل إلى القسطنطينية ، وهناك إلتقى بصديقه الذى صار بعد البابا جريجوريوس الكبير (٥٩٠ ــ ٦٠٤) . وبعد عودته إلى إسبانيا ، كان ليوفيجيلد قد مات ، وتحول ريكاريد إلى الكاثوليكية ، وأعلنها عقيدة رسميةً فى مجمع طليطلة الثالث (٥٨٩) الذى رأسه لياندر ، وتعد خطبته التى ألقاها فى هذه المناسبة من جوا مع الكلم .

كان للياندر جهود ثقافية ، فقد أسس مدرسةً فى إشبيلية لتدريب رجال الدين ومكتبةً عامرة تضم مؤلفات لكتاب نصارى ووثنيين ، كما نشط فى التأليف وله كتابات فى ذم الأريوسية ، كما إن له كتاباً وصل إلينا فى مدح الديرية النسوية.

على أن أهم الكتاب الذين ينتمون إلى هذا العصر هو القديس إيسيدور الإشبيلى Isidorus Hispalnsis (ت ٦٣٦) .

تعلم إيسيدور على يدى أخيه لياندر ، وخلفه فى مطرانية إشبيلية ، وترأس المجمع الرابع فى سنة ٦٣٣ ، وعمل مستشاراً للملوك ، وكان واسع الثقافة غزير

الإنتاج ، كتب فى موضوعات دينية ودنيوية منها الديرية وقواعدها واللاهوت ونظم الكنيسة ورسومها ، كما إن له ثلاثة كتب فى التاريخ وكتاباً فى علم اللغة هو المترادفات Synonymes .

الأهم من هذا كله موسوعته الكبيرة فى عشرين مجلداً وتدعى بالأصول Etymologiae Sive Origines وهى أولى موسوعات العصور الوسطى ، وقد لخص فيها علوم القدماء بحيث يصعب أن نجد علماً واحداً لم يتطرق إليه .

حظى إيسيدور بتقدير كبير من أهل عصره ، وما تلاه من عصور ، فيصفه صديقه القديس براوليو Braulio أسقف سرقسطة Zaragoza (ت ٦٥١) « بمجد إسبانيا وعمود الكنيسة » ودعاه المجمع الثامن الذى عقد فى سنة ٦٥٣«بالمعلم العلامة» Doctor Egregius ، وبعد سنوات طويلة فإن فرناندو الأول Fernando I ملك ليون León (١٠٣٥ ـ ١٠٦٥) طلب من ابن عباد ملك إشبيلية . تسليمه رفاته ، ليعاود دفنها فى ليون ، وبعد قرنين أمر الفونسو العاشر Alfonso X ملك قشتالة Castilla (١٢٥٢ ـ ١٢٨٤) بترجمة الأصول إلى القشتالية ، وجعله دانتى Dante (ت ١٣٢١) فى الفردوس ، صحبة كبار اللاهوتيين .

أتى بعد ايسيدور عدد آخر من الأعلام ، يدخل فى جملتهم بعض مطارنة طليطلة هم إيوجين الثانى وكان فلكيا وإيوجين الثالث وكان شاعراً ، والقديس إلديفونسى Ildefonse (ت ٦٦٧) وكان لاهوتياً ومؤرخاً .

وآخر الكتاب الكبار هو القديس يُليان Julianus (ت ٦٩٠) ويعود إلى أصل يهودى ، وله عدة كتابات ، بعضها فى التاريخ ، وبعضها الآخر فى اللاهوت ، وكتب فى دحض الفكرة اليهودية عن المسيح عليه السلام .

الفصل الثالث
نهاية دولة القوط الغربيين

١ - الدولة القوطية وعوامل سقوطها :

فى أخريات القرن السابع ، كانت دولة القوط الغربيين فى إسبانيا ، تمضى بخطى واسعة نحو مصير ، تحدد لها على أيدى غزاة أتوا من خارجها .

يختلف المؤرخون فى تحديد الأسباب التى تكمن وراء هذا المصير ، وجرت العادة عند غالبهم لأن ينوهوا - على نحو خاص - إلى ما جرى من خلل فى البنية الاجتماعية - الاقتصادية ، وهو الأمر الذى نوهنا - فى موضع سابق - إلى تهافته .

كيف نفسر إذن فتح العرب لإسبانيا فى سنوات ، فى حين استعصت على الرومان قديمًا (والفرنسيين حديثًا) سنوات وسنوات .

نستطيع أن نتلمس هذه الأسباب فى تحليلنا لما جرى من تطور للمؤسسات الحاكمة فى إسبانيا خلال العقود القليلة السابقة للفتح .

نعنى بهذه المؤسسات .. مؤسسة الملكية ومؤسسة الكنيسة والمؤسسة العسكرية .

درجت الحال عند القوط على انتخاب ملوكهم ، وكانت هذه العملية تقوم على قاعدة الغلبة ، بمعنى أنه كان يلى الحكم أقواهم . ولم تكن لهذه القاعدة نتائج فادحة فى صدر دولتهم ، مع ما كان يصحبها أحيانًا من وسائل عنيفة ، لأن القوط كانوا يعيشون حال حرب دائمة وهجرة ، منذ انطلاقهم من قاصية القارة الأوربية شمالاً وشرقًا إلى قاصيتها جنوبًا وغربًا ، ثم إن ما كان يلوح لهم من أخطار ، وما يترتب على هذه الأخطار من ميول فطرية نحو الاتحاد ،

كان يدنى من وقع هذه النتائج .

استمرت هذه الحال ، بعد أن استقر القوط فى إسبانيا ، فما تزال توجد صدامات مع الفرنجة فى الشمال ، ومع الروم فى الجنوب الشرق ، فضلاً عن صدامات أخرى مع البشكنس فى جبال البرتات ، والسويف فى جليقية ، ومع الأهالى فى أنحاء متفرقة من البلاد .

فى مطالع القرن السابع كانت الأحوال العامة قد هدأت إلى حد كبير ، ولم يعد ثم حاجة إلى قاعدة الغلبة ، فقد تحققت للبلاد وحدتها الدينية ، ثم وحدتها التشريعية ، وأخيراً وحدتها السياسية ، وظهر اتجاه قوى نحو تنظيم مؤسسة الملكية . وحبذ الملوك من ناحيتهم قاعدة الوراثة ، وسعى بعضهم إلى تأكيد هذه القاعدة ، عن طريق اشراك أبنائهم معهم فى الحكم ، ونجحوا فى أحيان ، وأصابهم الإخفاق فى أحيان أخرى .

أما عن النبلاء ـ والطموحين منهم على نحو خاص ـ فقد وجدوا فى هذا المبدأ ما يتعارض مع مصالحهم ، ويغلق الطريق أمامهم إلى سدة الحكم ، فجنحوا إلى التمرد عليه ، وتناودوا إلى حقهم فى انتخاب ملوكهم ، وحقهم أيضاً فى عزلهم ، ووصلت الحال ببعضهم إلى أن يتحدوا مع قوى خارجية ، من أجل أن يصلوا إلى أهدافهم .

فى المقابل فإن الملوك ـ من ناحيتهم ـ صاروا يحتاطون لمثل هذه الأحداث، ويبالغ جريجوريوس التورى (ت ٥٩٤ أو ٥٩٥) فيقول إنه صار من عادتهم أن يقتلوا كل الذكور الذين يمكن أن ينافسوهم وأبناءهم على التاج ومصادرة ممتلكاتهم .

تعايشت الكنيسة مع هذه الظاهرة فكانت تغض البصر عن ملوك وصلوا إلى مناصبهم بوسائل غير كريمة ، لكنها سعت فى الوقت نفسه إلى أن تبحث عن حل لها ، فتقرر فى مجمع طليطلة الرابع (٦٦٣) ـ وقد رأسه ايسيدور ـ

حصانة ذات الملك وعدم المساس بها ، كما تقرر أيضاً أنه عند موته يجتمع الأساقفة والنبلاء ، ويختارون من بين هؤلاء الأواخر من يجدونه أهلاً لهذا المنصب ، وعاودت التأكيد على هذا المبدأ فى المجمع الثامن الذى عقد بعد عشرين سنة ، لكن الفرصة لم تتهيأ لاحترامه ، وجرى نقضه مرات ومرات .

أما عن مؤسسة الكنيسة فقد ولى أمورها رجال لم تتوافر لديهم ما توافر لأسلاف لهم من استقامة شخصية وفضائل ، وانصرف عدد منهم عن شئون دينهم إلى شئون دنياهم ، وامتدت أيديهم إلى الأموال المخصصة للنفقة على الكنائس ، كما لم يراعوا مبدأ العزوبة المقررة على القساوسة النظاميين ، وترك هذا أثره فى الديانة نفسها ، فالقرارات المتتابعة لمجامع طليطلة ، تنوّه إلى إنه ما تزال توجد معاقل للوثنية فى معظم أنحاء إسبانيا .

عندما تسرب الضعف إلى مؤسسة الملكية تصاعد نفوذ مؤسسة الكنيسة ، واستخدمت مجامع طليطلة ، فيما يحقق لها مصالحها ، وتدخلت على نحو سيء فى الصراعات على العرش ، الأمر الذى دفع عدداً من المؤرخين المحدثين إلى أن يتهمها بالخيانة والغدر ، وإلى أن يصف الدولة القوطية بأنها دولة يمتطيها القساوسة .

أما عن المؤسسة العسكرية ، فكان ينهض بها القوط ، وإذا كانت قد توافرت لديهم روح عسكرية قوية فى صدر دولتهم ، فإنهم فقدوا هذه الروح إلى حد كبير بعد أن انقطع ورود الدماء الجرمانية من مواطنهم الأصلية ، وتزاوجوا مع أهالى البلاد من الإسبان ـ الرومان ، ومالوا إلى الترف ، وفقدوا بعض خصائصهم الأصلية ، بل إن بعضهم هجر الجيش ليلتحق بسلك الكنيسة وبعد أن كانت حروبهم موجهةً إلى أعداء الدولة فى الخارج ، صارت موجهةً إلى أعداء خارجين على الدولة فى الداخل .

إلى جانب ذلك فإن الملك كان يستنفر جيشه عن طريق حكام الولايات وغيرهم من النبلاء ، وكانت سلطة هؤلاء فى ولاياتهم وبين أتباعهم أكبر من سلطة أقرانهم فى غاليا ، ولما لم يكونوا دائماً فى حال من الوفاق مع الملك ، صار صعباً أن يتوافر له جيش قوى يدين له بالولاء .

سعى بعض الملوك إلى حل لهذه المشكلة ، بأن يعمموا الخدمة العسكرية ، بحيث تطول الأحرار من القوط والرومان جميعاً ، بل لتطول أيضاً الأقنان ، حتى رجال الدين أنفسهم ، وأتبعوها بعقوبات شديدة ، لمن لا يلتزم بها . لكن هذا المسعى ، لم يسفر عن نتائج مرضية للملوك ، وهيأ السبيل للانتقاض عليهم .

فى أواخر عهد القوط فاق عدد الأقنان فى الجيش عدد الأحرار ، وصار واجب الدفاع عن الوطن ـ يذهب دوزى ـ يعهد إلى جنود يؤثرون التواطؤ مع العدو فى الحرب ، لا أن يدافعوا عن ظالميهم .

إذا كانت هذه التطورات قد شاركت جميعها فى إضعاف الدولة القوطية فى إسبانيا ، فإن ما أصاب اليهود من اضطهاد ، أسهم بدوره فى إضعاف هذه الدولة ، لأن هؤلاء لم يسكتوا عما أصابهم من اضطهاد ، وشرعوا يناهضون الدولة ، بأن يشاركوا فى الانتقاض عليها ، بل وصلت بهم الحال إلى أن يتآمروا مع قوى خارجية عبر البحر .

2 ـ أيام القوط الأخيرة :

كانت الأحوال العامة فى إسبانيا ، عند موت ركسفنث فى سنة ٦٧٢ تبدو مستقرة على نحو أوآخر ، فقد استكمل هذا الملك جهود من سبقه من ملوك ، فى توحيد القوانين ، وما تبع ذلك من إزالة الحواجز الباقية بين القوط والرومان ، ثم إنه كان قد تم التأكيد على الآلية الخاصة بتنصيب الملوك . وعليه فقد اجتمع الأساقفة والنبلاء ، واختاروا ڤامبا ملكا عليهم .

كان ڤامبا ـ إذ ذاك ـ شيخًا كبيرًا عزوفًا عن المناصب ، لكنه قبل ـ فيما يروى ـ أن يُملَّك تحت تهديد السيوف ، وربما كانت هذه الرواية صحيحةً ، ويمكن أن نخرج منها ، بأن النبلاء المتنافسين ، شاءوا أن يختاروا ڤامبا كحل وسط ، إلى أن يستطيع أحدهم إزاحته .

بعد شهور قليلة من ولايته ، نشبت ثورة فى سبتمانيا ، ونادى زعيمها ويدعى بولس Paulus بنفسه ملكًا فى أربونة ، وأيده عدد من النبلاء ، كما أيده عدد آخر من اليهود . لكن ڤامبا نجح فى قمع هذه الثورة ، وانصرف بعدها إلى تقوية جيشه ، بأن أحيا عرفًا قديمًا ، يقضى بتعميم الخدمة العسكرية على الرجال الأحرار جميعهم ، بمن فيهم رجال الدين . وكان هذا سببًا فى سخط هؤلاء عليه ، وزاد من سخطهم شروعه فى إنشاء أسقفيات جديدة ، مما ألجأهم إلى التآمر عليه فى سنة ٦٨٠ ، وتزعمهم فى تآمرهم يليان مطران طليطلة ، واضطر ڤامبا إلى أن يتنازل عن العرش لصالح إرڤيج Erwigius ، وانزوى فى دير ، يقضى فيه بقية أيامه .

لما كانت ولاية إرڤيج تفتقر إلى الشرعية ، فإنه أمر بعقد المجمع الثانى عشر فى العام التالى برئاسة يليان ، حيث تم إقراره فى منصبه ، وأحل الناس من ولائهم لسلفه . وفى الوقت نفسه أدان المجمع إقامة أسقفيات جديدة ، وجعل ذلك من حق مطران طليطلة برضا الملك ، كما أصدر عفوًا عن النبلاء الذين شاركوا فى ثورة بولس ، ورد إليهم حقوقهم المدنية وممتلكاتهم .

قبل وفاة إرڤيج فى سنة ٦٨٧ ، حاول أن يجرى مصالحة مع أنصار ڤامبا ، فزوج ابنته من إخيكا Egica ، وهو من قرابة سلفه واستخلفه دون أن يكترث ، بما كان قد تقرر فى مجامع سابقة .

ما كاد إخيكا يصل إلى الحكم ، حتى طلق زوجه ، وسارع فعقد المجمع

الخامس عشر فى العام التالى (٦٨٨) ، وتقرر إعادة الإعتبار لڤامبا وأنصاره ، كما تقرر معاقبة من تآمروا عليه ومصادرة أملاكهم ونفيهم أو استرقاقهم .

فى العام الخامس لولايته (٦٩٢) اكتشف إخيكا مؤامرة ، تزعمها سيسبرت Sisebert خليفة يليان فى مطرانية طليطلة ، وشارك فيها اليهود ، وكان الهدف منها قتل الملك وخمسة من كبار رجاله . وترتب على ذلك أن فقد هذا الكاهن منصبه ، وحرم من الكنيسة ، وتقرر مصادرته ونفيه .

كان لمشاركة اليهود فى هذه المؤامرة أثرها فى أن أمر الملك فى المجمع السادس عشر (٦٩٣) بأن يبيعوا بأسعار يحددها الملك عبيدهم وعقاراتهم وأراضيهم وكرومهم ، وضوعفت الضرائب عليهم .

لم يقف اليهود إزاء هذه السياسة صامتين ، فعاودوا التآمر ضد الدولة ، ولم يلبث أن راجت شائعات بأنهم يتآمرون مع من هم وراء البحر Los Tansmari-nos ، وهو تعبير غامض ، ويقصد به يهود المغرب أو العرب أوهما معاً . فسارع إخيكا وعقد المجمع السابع عشر فى العام التالى ، واتهمهم بالخيانة وأعلنهم عبيداً وصادر ممتلكاتهم ، وأمر بأن يؤخذ منهم أطفالهم ، لينشئوا مع نصارى ويتزاوجوا معهم ، وإزاء ذلك اضطر عدد من اليهود إلى الهرب من البلاد ، وتم استرقاق الباقين .

سعى إخيكا من أجل أن يؤمن العرش لولده ڤيتيزا Witiza ، فأشركه فى الحكم معه ، وعلى هذا فقد خلفه فى سنة ٧٠١ (أو ٧٠٢) .

تتسم السنوات الأخيرة من السيادة القوطية بالتعقيد والتشابك والغموض ، وتختلط فيها الحقيقة بالأسطورة ، فوقائعها لم تدون إلا بعد فترة طويلة ، وبطبيعة الحال سوف تشوبها أهداف سياسية ومصالح وأهواء ، مما أهمنا إلى أن نتعامل معها باختصار ، ونركز على ما صار الإجماع على وثاقته .

جدير بالذكر أن ڤيتيزا حظى بتقدير المؤرخين المسلمين ويدعونه غيطشة ،

وتصفه إحدى رواياتهم بأنه « كان حسن السيرة لين العريكة ، وأطلق كل محبوس فى سجن أبيه » .

بدأ غيطشة عهده بأن أصدر عفواً عاماً ، شمل النبلاء الذين تمردوا على أبيه ، لكنه لم يلبث أن أثار سخطهم وغيرهم ، حين عهد لولده أكيلا Aquila[١] (وهو وَقْله أو رُمُلُه عند العرب) بولايتى طركونة وأربونة ، وذلك توطئةً لأن يعهد له بالمَملكة بعده . كما تعزو إليه حولية إسبانية متأخرة أنه انتهك قوانين الكنيسة ، وأرغم القساوسة على الزواج ، ورفض عقد المجامع مما أفضى إلى خلاف بينه وبين سندريد Sindered مطران طليطلة ، كما أفضى إلى خلاف بينه وبين بعض النبلاء ، فأمر بسمل عينى ثيودوفريد Theodofred دوق قرطبة، كما أمر بنفى بيلاجيوس Pelagius [٢] ، وربما كان ابناً لفافيلا Fafila [٣] دوق كنتبرية Cantabria .

إستطاع غيطشة أن يتغلب على ما صادفه من مؤامرات حتى سنة ٧٠٩ (أو ٧١٠) حين مات فى رواية ، أو سملت عيناه ونفى وربما قتل فى رواية أخرى.

لم يعترف النبلاء بأكيلا ملكاً ، واختاروا بدلاً منه رودريك Rudericus[٤] ـ وهو ولد ثيودوفريد ـ واستطاع رودريك ـ ويدعوه العرب رذريق [٥] ـ أن يهزم جيش أكيلا ، فلا ذهو وأخواه [٦] وعمه[٧] بالهرب ، وبعث ـ ربما ـ يطلب العون من المسلمين .

---

(١) ويدعى أيضاً Akhila ، Achila ، Agila .

(٢) يذهب بعض المؤرخين الإسبان إلى أنه هو نفسه بلاى Pelayo مؤسس حركة المقاومة النصرانية ضد المسلمين .

(٣) قتل على يدى إخيكا .

(٤) ويدعونه الإسبان Rodrigo ، Don Rodrigo .

(٥) ويدعونه أيضاً لو ذر يق .

(٦) Artavasdes ويدعوه العرب أرطباش و Olmundo ويدعوه العرب أُلْمُنْد .

(٧) Oppa ويدعوه العرب أَبّه .

الباب الثانى

إسبانيا الإسلامية

(الأندلس)

الفصل الرابع
فتح الأندلس

كان العرب يدركون ـ لدى استمام فتح المغرب ـ الصلة الوثيقة بين هذه البلاد والأندلس ، وفى كتاب موسى بن نصير إلى الخليفة الوليد بن عبد الملك (٨٦/ ٧٠٥ ـ ٩٦/ ٧١٥) ، حين وجده متخوفاً من عبوره إلى الأندلس : « إنه ليس ببحر ، وإنما هو خليج يصف صفة ما خلفه للناظر » .

تذهب الرواية العربية إلى قيام يليان صاحب سبتة ، بدور رئيس فى حفز العرب إلى غزو الأندلس ، وكان يليان هذا مخاصماً لرذريق الذى اغتصب عرش القوط ، وأساء إلى شخص يليان باعتدائه على ابنته ، كما تذهب أيضاً إلى أن أبناء غيطشة ، قاموا بالدور نفسه مع العرب .

ربما كانت هذه الرواية صحيحةً ، لكنها لم تكن العامل الأهم لغزو العرب بلاد الأندلس ، والأرجح إنها ـ فى حال صحتها ـ كانت عاملاً مساعداً فحسب .

على أية حال فإن موسى استجاب لنصيحة الوليد بن عبد الملك ، فأرسل فى سنة ٩١/ ٧١٠ بعثاً استطلاعياً من البربر يقوده طريف بن ملوك ، وضم هذا البعث أربعمائة راجل ومائة فارس . ونزل هؤلاء بقرب من الموقع الذى ستقوم عليه ـ فيما بعد ـ جزيرة طريف Tarifa ، واتصلوا ببعض أصحاب يليان وأبناء غيطشة ، وأصابوا بعض المغنم ثم عادوا .

كان للنجاح الذى أحرزه طريف ورجاله فى هذه الغزوة أثره ، فى أن يجهز موسى بن نصير حملةً كبيرةً لفتح الأندلس ، يقودها مولاه طارق بن زياد ، وأصحبه سبعة آلاف سوادهم من البربر .

عبر المسلمون المضيق فى رجب من سنة ٩٢/ أبريل ٧١١ فى بعض سفنهم ، وقيل بل سفن يليان ، ونزلوا بالجبل الذى واجههم ـ وكان يدعى كلبه Calpe ـ فدعوه جبل طارق ، واستولوا على الجزيرة الخضراء Algeciras ، وبذا أصبح المضيق فى أيديهم . ووقعت اشتباكات بين المسلمين وبعض أصحاب رذريق، وكان إذ ذاك فى بنبلونه Pamplona يجالد البشكنس، فاتخذ طريقه بسرعة إلى قرطبة ، واستعد لقتال المسلمين .

تقدم رذريق من قرطبة فى أربعين ألفاً ، وعسكر عند مدينة شذونة ، فأرسل طارق إلى موسى ، فأمده بخمسة آلاف من البربر .

التقى المسلمون والقوط بموضع من أحواز شذونة ، عرف بوادى لُكه Guadalete وتذهب الرواية العربية إلى أن طارقاً ألقى فى أصحابه قبل أن تبدأ المعركة خطبته الشهيرة وأولها : « أيها الناس !! أين المفر ! البحر من ورائكم والعدو أمامكم ، وليس لكم والله إلا الصدق والصبر ! » .

بدأت المعركة فى ٢٨ من رمضان ٩٢/ ١٩ من يوليو ٧١١ ، ودامت ثمانية أيام ، وكانت حامية الوطيس ، إلى أن رجحت كفة المسلمين ، بعد أن انحاز اليهم عدد من المخاصمين لرذريق ، وتخلى عنه فرسانه ، ومالوا إلى المسلمين . ولما لاحت هزيمته مضى إلى جواده الأشهب فامتطاه ، وغادر ساحة القتال ، ويقال إن طارقاً اتبعه وتمكن منه واحتز رأسه ، ويقال إنه غرق فى النهر المجاور . ويذهب البعض إلى إنه لم يقتل أو يغرق ، وإنما ارتد مع بعض أتباعه ، وصمد لهجمات العرب المتكررة ، حتى لقى حتفه بعد سنتين .

أسرعت فلول القوط ـ وقد هزتها وطأة الهزيمة إلى إسْتجّة Ecija ، وجد طارق فى إثرها ، ولقى منها مقاومةً عنيفةً ، إلى أن تمكن من الاستيلاء على المدينة . ولما استقر له الأمر بها ، أشار عليه يليان : « قد فرغت بالأندلس ،

وهؤلاء أدلاء من أصحابى ، فرق معهم جيوشك ، وخذ أنت إلى طليطلة ، ففرق طارق جيوشه من إستجة ، وسار أحدها إلى قرطبة ، وسار هو ومعظم الناس يريد طليطلة .

عندما اقترب طارق من طليطلة ، علم بأن أهلها فارقوها ، فدخلها دون مقاومة تذكر ، ولما كان الشتاء قد أقبل ، وجد من الأفضل للمسلمين أن يستقروا بعض الوقت بالمدينة .

استطاع الجيش الذى قاده مغيث الرومى أن يباغت قرطبة ليلاً ، ودخلها من ثغرة فى سورها ، واعتصم أميرها وأصحابه بكنيسة غربى المدينة ، فحاصرهم المسلمون إلى أن تغلبوا عليهم وقتلوهم وأسروا أميرهم ، واحتل مغيث قصره الذى سوف يصبح ـ فيما بعد ـ مقاماً للأمراء المسلمين ، وضم اليهود إلى حامية المدينة .

عندما وصلت أخبار طارق إلى موسى عبر إلى الأندلس فى رمضان ٩٣/ يونية ٧١٢ وقد اصطحب معه ثمانية عشر ألفاً من العرب ، ونزل بالجزيرة الخضراء ، وسار منها إلى شذونة ثم قَرْمونة Carmona ، وواجه هناك مقاومةً عنيفة ، فاضطر إلى محاصرتها شهراً ، ثم دخلها بحيلة ، إذ أوهم يليان أهل المدينة أنه وأصحابه من فلول القوط التى فرت من وجه العرب ، ففتحوا له وأصحابه أبوابها ، وفى أعقابهم دخل المسلمون . ثم اتجه موسى إلى إشبيلية ، وكانت الحامية القوطية قد انسحبت إلى لَبْلَة Niebla على مصب وادى أنّة Guadiana ، كما هرب نفر من أهلها إلى باجة Béja ، ودخل موسى المدينة، وأنزل بها فريقاً من اليهود .

سار موسى من إشبيلية إلى ماردة Mérida ، ودخلها فى يوم الفطر من سنة ٩٤/ يونية ٧١٣ ، وظفر المسلمون بالشىء الكثير ، ووقعت فى أيديهم زوج

رذريق ، فأنكحها موسى ولده عبد العزيز ، واستقر المسلمون بالمدينة فترةً يستريحون فيها من عناء الحرب . بيد أن موسى علم بانتقاض إشبيلية ، وأنه قد اجتمع إليها أهل باجة ولبلة الذين كانوا هاربين ، فسير إليهم ولده عبد العزيز ، ففتحها من جديد واستولى على باجة ولبلة .

اتضح لموسى أن المقاومة فى غربى الأندلس شديدة وعلم بأن فلول القوط تجمعت فى المسالك الجبلية الوعرة لمهاجمة المسلمين ، وقادهم ـ فيما يقال ـ رذريق ، ولم يكن موسى ليستطيع أن يمضى فى طريقه إلى طليطلة ، وهؤلاء يتحينون الفرصة للانتقاض عليه ، لذا طلب من طارق أن يلتقى به عند موضع يقع فى منتصف الطريق بين ماردة وطليطلة ، بالقرب من مدينة طَلَبيرة Talavera .

استطاع موسى بعد لقائه بطارق ، أن يقضى على المقاومة فى غربى الأندلس وعلى نهر صغير ـ حمل اسمه فيما بعد وهو نهر موسى Valmuza ـ التقى المسلمون بالبقية الباقية من جيش رذريق ، وتمكنوا من تحقيق الانتصار النهائى عليه ، وقتل الملك نفسه ـ نرجح ـ على يدى مروان بن موسى بن نصير ، وعقب المعركة دخل القائدان الكبيران طليطلة .

ما كاد موسى يستقر بطليطلة ، حتى سارع بضرب عملة ذهبية ، ليدفع منها رواتب جنده ، وجدير بالذكر إن هذه العملة نقش عليها بالعربية واللاتينية معاً ، وبعث بمغيث الرومى إلى الخليفة بدمشق ينبئه بالفتح .

انتظر موسى فى طليطلة حتى انتهى الشتاء ، ثم سار وطارق إلى حوض الإبرُه Ebro ، واقترب من مدينة سرقسطة ، ففزع أهلها وازمعوا الفرار ، لكن موسى أرسل إليهم يبلغهم الأمان ، ودخل المسلمون المدينة دون مقاومة ، وما كادوا يستقرون بها ، حتى شرعوا فى ابتناء مسجد جامع ، قدر له أن يعيش عدة

قرون بعد ذلك .

بعد سرقسطة استولى موسى على وَشْقَة Huesca ولارِدَة Lérida وطركونة ، وأخذ إلى البرتات ، حين أتاه مغيث الرومى عائداً من دمشق ، ومعه كتاب الوليد بالعودة ، لكن موسى تابع سيره فى قشتالة القديمة ليؤمن طليطلة ، ثم قسم جيشه إلى قسمين ، فعهد إلى طارق بالسير نحو جبال كنتبرية ، حيث استولى على أماية Amaya وأسترقة Astorga وليون ، وسار موسى بمحاذاة نهر دويره إلى لُك Lugo بالقرب من أُبيط Oviedo ، وفر القوط إلى مكان بعيد يدعى بالصخرة Pico de Europa ، وانتهى به المسير إلى جيخون Gijón .

كان المسلمون قد نال منهم الجهد ، وقد ابتعدوا مسافات طويلةً فى مناطق جبلية نائية ، وكانوا فى الوقت نفسه قد قضوا على المقاومة الرئيسية للقوط ، ولم يتبق من هذه المقاومة سوى عدد يسير ، اعتصم بالجبال الوعرة ، فأهمل موسى شأنهم ، وما كاد يأتيه رسول آخر من الوليد بالعودة ، حتى اتخذ أهبته ، واجتمع بطارق فى نواحى ليون ، وسارا معاً إلى طليطلة ، ثم قرطبة وإشبيلية ، وبارحا الأندلس فى ذى الحجة من سنة ٩٥ / سبتمبر من سنة ٧١٤ ، فوصلا إلى دمشق فى بداية العام التالى ، وكان الوليد مريضاً مرض الموت .

تذكر بعض المصادر أن سليمان بن عبد الملك (٩٦ / ٧١٥ ـ ٩٩ / ٧١٧) حين أحس باقتراب أجل أخيه أرسل إلى موسى ، يطلب منه أن يبطئ فى عودته حتى يصل إلى دمشق ، وقد صار هو خليفةً للمسلمين ، فيتصرف فى الغنائم كما يشاء . وربما كانت هذه الرواية صحيحةً ، لأن موسى – نعلم – لم يتلق معاملةً طيبةً من سليمان ، ولم يلبث أن أختفى ذكره وطارق ، ولم نعد نسمع عنهما ، بعد يسير من عودتهما المظفرة إلى المشرق .

رغماً عن تغير سليمان بن عبد الملك على موسى بن نصير ، إلا أن أقر

ولده فى بلاد المغرب والأندلس ، ولكن إلى حين .

بعد رحيل موسى وطارق افتتح المسلمون بعض المدن التى كانت ما تزال خارجة عن سيطرتهم ، ومنها برشلونة وبنبلونة ، ثم توجه عبد العزيز بن موسى ابن نصير - أول ولاة الأندلس ففتح يابُرَة Evora وشنترين Santarém وقُلُمْرِيَة Coimbra فى أقصى الغرب ، ثم انتقل إلى مالقة وغرناطة ، ومنها إلى إقليم مرسية Murcia فى الشرق ، وكان يحكم هذا الإقليم قائد قوطى يدعى تُدْميره Teodomiro ، حاصره المسلمون فترةً فى عام ٩٦/ ٧١٤ ، ثم صالحوه على مدنه السبع ، على أن يؤدى الجزية ، ثم انصرفوا عنه .

على أن هذا الاتفاق كان يرتبط بشخص تدمير فحسب ، وصارت حال هذا الإقليم بعد سنوات حال غيره من أقاليم الأندلس ، ولم يتبق من ذكريات لتدمير سوى اسمه الذى صار علما على كورة مرسية[١] .

---

(١) وتعنى فى المصطلح الإسلامى ولاية صغيرة ، وتعنى فى أيامنا محافظة .

الفصل الخامس
عصر الولاة

١ ـ المسلمون والفرنجة :

فى أواخر القرن السابع الميلادى ضعفت سلطة الملوك الميروفنجيين من عقب كلوفيس ، وصعدت سلطة أمناء البلاط فى الممالك الثلاث التى انقسمت إليها مملكة الفرنجة ، ودبت النزاعات بين هذه الممالك ، وأفضت عن استقلال أقطانية Aquitania (الشطر الجنوبى من فرنسا الحالية) .

فى سنة ٧٢٠ استطاع كارل Carolus [1] أمين بلاط مملكة أوستراسيا ، أن يستولى على السلطة فى معظم الأراضى التى خضعت للفرنجة ، وشغل بالصراع مع أودو Audo دوق أقطانية .

فى هذه الأثناء كان المسلمون قد استتموا فتح إسبانيا ، ويروى إن موسى بن نصير كان يخطط للعبور إلى المشرق عن طريق أوربا ، وربما كانت هذه الرواية صحيحةً ، وتتعاصر مع مشروع الخلافة الأموية الخاص بفتح مدينة القسطنطينية .

بعد أن ولى الحر بن عبد الرحمن الثقفى بلاد الأندلس ، عبر فى سنة ٩٩/ ٧١٨ إلى غاليا Gallia (فرنسا) فغزا سبتمانيا ، وافتتح مدنها السبع ، بما فيها قاعدتها أربونة ، ويبدو أن المسلمين فقدوها بعد قليل ، إذ أعاد خلفه السمح ابن مالك الخَوْلانى فتحها فى العام التالى ، كما زحف إلى مملكة أقطانية ، لكنه أخفق فى الاستيلاء على تولوشة Toulouse ، واستشهد فى سنة ١٠٢/٧٢١ .

ارتد المسلمون خلف البرتات ، واختاروا لقيادتهم عبد الرحمن بن عبد الله الغافقى ، الذى استطاع أن ينسحب بهدوء ، حتى أتى الوالى الجديد عَنْبَسَة بن سُحَيم الكلبى .

---

(١) ويدعوه المسلمون قارْله .

وفى سنة ١٠٥ / ٧٢٤ عبر عنبسة البرتات ، وثبت سلطان المسلمين فى سبتمانيا ، واستولى على قرقشونة Carcassonne ، وزحف شمالاً مع وادى الرَذانة (الرون) إلى أن اقتحم أوتون Auton وصانص Sens ، وتقع على مبعدة مائة ميل من مدينة باريس الحالية ، على أنه فى عوده دهمته جموع كبيرة من الفرنجة مما أسفر عن إصابته بجروح بالغة ، واستشهاده فى سنة ١٠٧/ ٧٢٥ .

توقفت غزوات المسلمين فى فرنسا عدة سنوات ، إلى أن ولى عبد الرحمن ابن عبد الغافقى مرة أخرى فى سنة ١١٣/ ٧٣١ .

كان منوسة Munuza من زعماء البربر الذين ينقمون من العرب فوزهم بمواقع الصدارة فى الأندلس ، فانتهز فرصة ولايته لبعض الثغور ، كى يستقل بها، وتحالف مع أودو دوق أقطانية وتزوج ابنته ، وقد أرسل الغافقى جيشاً إلى منوسة ، فتمكن من قتله وأسر زوجه ، وأرسلت ـ فيما يقال ـ إلى البلاط الأموى بدمشق .

تحرك الغافقى بجيش كبير فى أوائل سنة ١١٤/ ٧٣٢ ، واخترق جبال البرتات ، وتوجه إلى مدينة آرلة Arles على نهر الرون فاستولى عليها ، وألحق بالدوق هزيمةً فادحة ، ثم استولى على عاصمته برَذال Bordaux ، وفر الدوق شمالاً ، بعد أن وجد أقطانية كلها قد سقطت فى أيدى المسلمين .

استنجد أودو بكارل الذى حشد جيشاً ضخماً التقى بالعرب ، قرب الضفة الجنوبية لنهر اللوار ، فى السهل الواقع بين مدينتى تور Tours وبواتييه Poitiers وكان العرب قد استولوا عليها وأحرقوا كنيستها .

بدأ القتال فى أواخر شعبان ١١٤/ أكتوبر ٧٣٢ ، ودام تسعة أيام ، دون نتيجة حاسمة ، وفى اليوم العاشر وضح أن النصر يميل إلى المسلمين ، لكن

حدث أن افتتح الفرنجة ثغرةً فى معسكر الغنائم الإسلامى ، فارتد قسم كبير من المسلمين لينقذوا المعسكر ، فدب الخلل فى صفوف سائرهم ، ولم يفلح عبد الرحمن فى إصلاح الخلل ، وبينما هو يتنقل بينهم ، يحمسهم ويجمع صفوفهم ، أصابه سهم أودى بحياته ، فعم الذعر واشتدت وطأة الفرنجة على المسلمين ، وتفشى القتل بينهم ، ولكنهم صمدوا إلى أن أقبل الليل ، فافترق الجيشان ، وانسحب المسلمون تاركين أثقالهم ومعظم أسلابهم ، ولم يشأ كارل أن يطاردهم خوفًا من الكمين .

عرفت معركة تور - بواتييه عند المسلمين بالبلاط أو بلاط الشهداء ، لكثرة من استشهد فيها منهم ، وهى لا تظفر من مؤرخيهم سوى بسطر أو سطرين ، وهذا دليل على جلالها وفداحة خطبها ، من ذلك ما يروى من أن الآذان ظل عصوراً طويلة يسمع فى هذا المكان . ونستطيع أن نقرر إن العرب فقدوا السيادة على العالم بأسره بعد هذه المعركة ، وارتدوا فى الغرب ، مثلما ارتدوا فى الشرق لدى أسوار القسطنطينية ، ثم شغلوا بنزاعاتهم الداخلية .

لا ريب إن العنصر الأساسى فى النكبة التى أصابت المسلمين فى غاليا ، هو إن الفتوح الإسلامية كانت قد وصلت إلى غايتها ، ولم تعد ثم قوة دفع جديدة ، وقد ابتعد المسلمون عند نواتهم النووية بالمشرق ، وهم برغم الوحدة الظاهرية التى جمعتهم كانوا منقسمين ، وكان العرب قلةً بين جنود كثرتهم برير ، ينفسون عليهم مكانهم ومكانتهم .

كان للهزيمة فى بلاط الشهداء وقع كبير فى خلافة دمشق ، مما دفع هذه الخلافة ، لأن تأمر واليها الجديد عبد الملك بن قَطَن الفهرى ، بأن يعبر البرتات ، ويحصن مواقع المسلمين فى لا نجدوك Languedoc ، ويعيث فى أنحاء أقطانية، وفى سنة ١١٧ / ٧٣٥ قام عبد الرحمن بن علقمة اللّخْمى والى أربونة

بغزوات مماثلة واستولى على أَبْنيون Avignon .

عندما علم كارل ـ الذى صار يدعى بالمطرقة Martellus ـ بذلك أرسل أخاه شلدپراند Childprand ، فاسترد أبنيون ، وسار هو بنفسه إلى أربونة وحاصرها ، وأصاب مدداً أتى إليها من جهة البحر ، لكن المدينة لم تستسلم ، فاضطر إلى رفع الحصار عنها ، وفى طريقه أصاب معاقل إسلاميةً أخرى .

شغل كارل بعد ذلك ببعض النزاعات على السلطة فى مملكة الفرنجة ، فى حين عبر عُقْبة بين الحجاج السّلولى والى الأندلس جبال البرتات فى سنة ١٢٠/ ٧٣٨ ، وعاود الاستيلاء على أبنيون وغيرها ، لكن الفرنجة شددوا فى قتالهم ، مما اضطر عقبة للانسحاب إلى الأندلس .

فى السنوات التالية شغل المسلمون بالفتنة بين العرب والبربر ، ثم بين القيسية واليمنية ، ودامت هذه الفتنة حتى مقدم عبد الرحمن الداخل فى سنة ١٣٨/ ٧٥٥ ، وكان لهذه الفتنة انعكاساتها على النضال بين المسلمين والفرنجة فى غاليا .

خلف پيپين Peppin القصير أباه كارل مارتل كأمين للبلاط الفرنجى ، ثم انتزع العرش لنفسه فى سنة ٧٥١ ، وأصبح أول ملوك الأسرة الكارولنجية ، وتحالف مع أنسيموندوس Ansemundus ، وهو أحد الزعماء المحليين فى الجنوب ، وغزا لانجدوك فى سنة ٧٥٣ ، ولم تجد الحاميات الإسلامية عوناً من الوطن الأم بالأندلس ، فاستسلمت له فيما عدا أربونة .

انفرد يوسف بن عبد الرحمن الفهرى بولاية الأندلس فى سنة ١٢٩/ ٧٤٦ ، واعتزم انقاذ المدينة ، فأرسل اليها حملةً لم توفق فى مسعاها ، كما إن أميرها الشجاع عبد الرحمن بن علقمة اللخمى هلك فى حروب العصبيات ، فتهيأت الفرصة للفرنجة لاقتحام أربونة ، وفى سنة ٧٥٥ زحف إليها پيپين

وحليفه أنسيموندوس ، وصمد المسلمون لحصارها اربع سنوات ، قتل خلالها أنسيموندوس . ولما لم يجد بيبين وسيلةً لفتحها ، اتفق مع النصارى من أهلها ، فقاموا بثورة داخلية ، أربكت المسلمين ، وحالت دون تركيز جهودهم لصد هجمات الفرنجة ، مما أسفر عن اقتحام هؤلاء المدينة وفتكهم بالمدافعين عنها ... وهكذا فقد المسلمون أربونة فى سنة ١٤٢/ ٧٥٩ ، بعد أن تملكوها زهاء نصف قرن .

2 ـ انتشار الإسلام في بلاد الأندلس :

يذهب بعض المؤرخين الفرنج إلى أن انتشار الإسلام فى بلاد الأندلس ، يعود إلى أسباب مادية ، والحق إن فى هذه المقولة كبير مبالغة ، فلم يكن ثم ضرورة ملحة لأن يفارق أحد من النصارى دين آبائه ، لأن المسلمين أبقوهم على أحوالهم التى كانوا عليها ، بل إن هذه الأحوال تحسنت على نحو واضح .

وليس من شك فى أن العامل الدينى هو العامل الأساسى فى إسلام النصارى، ويضاف إلى ذلك عوامل أخرى ، من بينها المناخ العام الطيب الذى صاحب مقدم المسلمين ثم إن جمهور الوافدين من هؤلاء المسلمين ، عقدوا مع النصارى علاقات تتسم بالمودة ، ودخلوا معهم فى صداقات ومصاهرات ، وخالطوهم وشاركوهم أعيادهم ومناسباتهم الاجتماعية ، وكانوا يقصدون كنائسهم ودياراتهم ، وصار بعضهم على دراية باللاتينية .

رافق ذلك عنصر آخر هو التعريب الذى كان ظاهرةً عامةً ، تصحب الإسلام وتسبقه فى بعض الأحيان ، فقد بدأت اللغة العربية تنتشر بين الإسبان ، وتداخلت فى حياة الناس ، حتى أضحت جزءاً من نسيجها فى مرحلة تالية .

ومع أن النصرانية كانت الديانة السائدة فى الأندلس قبيل مقدم المسلمين ، إلا إنه كانت توجد معاقل للوثنية ، أشير إليها فى قرارات المجامع بطليطلة ، من

عبادة للينابيع والأحجار والأشجار ، بل وجد أيضاً من يعبد الشيطان . وكان لمواقف الكنيسة فى الحقبة الأخيرة من السيادة القوطية آثارها فى نفور الشعب منها، ومما زاد من هذا النفور الخلافات العقدية بين الكهنة . كما إن الأريوسية لم تكن قد اختفت بعد من البلاد ، وكان لما ذهبت إليه من بشرية المسيح عليه السلام ، أثره فى تقريب مسافة الخلف بين النصارى والمسلمين .

لا شك إنه كان من العوامل التى أعانت على انتشار الإسلام عتق الرقيق ، فكان العبد النصرانى لسيد نصرانى يعتق على الفور عند إسلامه ، بل إن العبد النصرانى لسيد مسلم كان لا يدفع الجزية عند عتقه . ويقول دوزى إن العبيد لم يكونوا يعرفون الكثير عن النصرانية ، وكانت غوامض الإسلام عندهم ، مثل غوامض النصرانية ، ولكن الذى كانوا يدركونه جيداً هو كراهيتهم للقساوسة .

كما إن قتل عدد من النبلاء إبان الفتح ، وهرب عدد آخر أزال عقبة كبيرة أمام انتشار الإسلام ، بل إن بعضهم أسلم وحسن إسلامه ، ولعب دوراً هاماً فى الدفاع عن المسلمين فى مناطق الثغور .

فى الوقت نفسه سعى المسلمون ـ من جانبهم إلى نشر دينهم ، وكان للتابعين دور واضح فى هذا الشأن ، ويذكر ابن حبيب (ت ٢٣٨/ ٨٥٣) أنه قدم إلى الأندلس من التابعين ، سوى من لا يعرف نحو من عشرين رجلاً . كما يسر الفقهاء التعريف بالإسلام لمن لا يحسن العربية وأجاز بعضهم ـ فيما بعد ـ تفسير القرآن بالأعجمية ، وإن منع من تلاوته بها .

وكان وضع الذين دخلوا الإسلام فى الإندلس ، أفضل من وضع من دخلوه فى غير الأندلس ، فلم يعرف عن العرب إنهم فرضوا الجزية على من أسلم من أهل الأندلس ، فى حين إنهم حاولوا فرضها أحياناً فى إفريقية والمشرق .

لم تمدنا المصادر بمعلومات وافرة عن بدء انتشار الإسلام ، ويروى الخُشنى (ت ٣٦١/ ٩٧١) عن عقبة بن الحجاج السلولى والى الأندلس إنه « كان صاحب جهاد ورباط ، وذا نجده وبأس ورغبة فى نكاية المشركين . وكان إذا أسر الأسير لم يقتله ، حتى يعرض عليه الإسلام حيناً ويرغبه فيه ، ويبصره بفضله ، ويبين له عيوب دينه الذى هو عليه . فيذكر إنه أسلم على يديه بذلك الفعل ألفا رجل » .

ومن أوائل من اعتنق الإسلام فى هذه الفترة قَسِّى Casius قومس الثغر ، وهو من النبلاء ، فعبر البحر إلى المشرق غداة الفتح ، وأسلم على يدى الوليد بن عبد الملك بدمشق ، وأضحى من مواليه . ويذهب ابن حزم (ت ٤٥٦/ ١٠٦٤) إلى أن عصبية بنى قسى فيما بعد للمضرية ، مصدرها هذا الولاء الأموى .

ولم نذهب بعيداً فيليان صاحب سبتة الذى أعان العرب فى فتحهم البلاد ، أسلم وَلده ويدعى بلكايش بعد الفتح وحسن إسلامه ، ونبه عدد من أفراد أسرته وحفدته فى علم الفقه وغيره من علوم المسلمين .

ولما قامت الإمارة الأموية فى سنة ١٣٨/ ٧٥٥ ، واستقرت الأحوال فى البلاد ، ازدادت أعداد المسلمين وكثر إنشاء المساجد ، وإذا كان المسلمون عقب الفتح قد شاطروا نصارى قرطبة كنيستهم الجامعة ، فإن عبد الرحمن الداخل ، باع منهم نصيبهم فيها ، وأنشأ الجامع الكبير الذى اكتملت عمارته فى عهد المنصور بن أبى عامر .

كذلك قام عدد من الأتقياء ببناء المساجد ، فبنى حنش بن عبد الله الصنعانى (ت ١٠٠ هـ) وهو من التابعين مسجد إلبيرة وبنى مسجداً آخر فى سرقسطة ، دعى بالمسجد الأبيض دفن فيه ، وقد تمت توسعة هذين المسجدين فى عهد الأمير محمد من أمراء بنى أمية .

3 ـ عناصر المجتمع الأندلسي :

أ ـ العرب

دخل العرب في هيئة طوالع ، قاد أولاها موسى بن نصير في سنة ٩٣/ ٧١٢، وشكلت القسم الثاني من جنود الفتح ، وبلغ عدد هذه الطالعة ثمانية عشر ألفاً ، ولما ولي الحر بن عبد الرحمن الثقفي في سنة ٩٧/ ٧١٦ ، صحب معه طالعةً ، بلغ عددها أربعمائة من وجوه أهل إفريقية.

على أن أهم طوالع الأندلس ، هي طالعة بلْج بن بِشر القُشيّري في سنة ١٢٣/ ٧٤١ ، فقد التجأ بعض العرب ، بعد أن هزمهم البربر في ثورتهم الكبرى إلى سبتة ، حيث أرسلوا إلى عبد الملك بن قطن الفهري والي الأندلس يستنجدونه ، فأوجس منهم خيفةً ، ولما اقتدى بربر الأندلس ببربر العدوة ، وانقلبوا على العرب ، سمح لهم بالعبور ، وشرط عليهم الرحيل بعد سنة ، وقد نجح العرب في التصدي للبربر ، وهزيمتهم بوادي سلّيط Guadacelete ، على أن كان يخشاه ابن قطن وقع ، فنازعه بلج وأصحابه ، وانتزعوا منه الإمارة وقتلوه .

كانت الطالعة التي قادها بلج تضم نحو عشرة آلاف ، بينهم ألفان من الموالي ، كما كانت تضم قيسيةً ويمنيةً ، وغلب الطابع القيسي على جندي دمشق وقنسرين .

وآخر الطوالع العربية بالأندلس ، هي الطالعة التي قادها أبو الخَطّار حسام ابن ضرار الكلبي ، الذي قدم في سنة ١٢٥/ ٧٤٣ ، ومعه فريق من الشاميين ، عدتهم ثلاثون رجلاً .

لم تنقطع هجرات العرب إلى الأندلس ، ومما تجدر ملاحظته أن الأسرة الأموية ـ فيما بعد ـ كانت تشجع هذه الهجرة ، بخاصة من ينتمون منهم إلى قريش .

انتشر العرب فى أنحاء البلاد جميعها ، وتكثفوا فى مناطق معينة ، وبخاصة المدن الواقعة على الوديان ، قرب الأراضى الخصبة مثل الوادى الكبير .

انقسم العرب ـ كعهدهم أينما حلّوا ـ إلى قيسية ويمانية ، وهم القبيلان العربيان الكبيران ، كما انقسموا إلى بلدية وشامية . والبلدية تضم العرب الذين أتوا مع موسى بن نصير ، أى العرب القدماء ، وكثرتهم يمنية ومدنية (فهرية) ، أما الشامية فهم العرب الذين أتو مع بلج بن بشر ، وكان القيسية أظهرهم ، وإن لم يكونوا أكثرهم ، ولما قدم أبو الخطار فى سنة ١٢٥ وزع الشاميين على الكور، وأطلق هؤلاء على المدن التى نزلوها أسماء مدنهم الأصلية .

أصبحت هذه الأجناد عصب الجيش الأندلسى ، منذ قيام الأمويين بالأندلس ، حتى قريب من سقوط دولتهم .

وإذا كانت الأقطار الإسلامية شهدت فى عصورها الأولى صراعات بين القيسية واليمانية ، فقد ساد هذا الوضع أيضاً فى الأندلس ، لكن هذه الصراعات جاورتها صراعات أخرى بين الشامية والبلدية ، فكان الشامى القيسى يقف أحياناً مع إخوانه القيسيين ضد سائر الشاميين ، ويقف أحياناً أخرى مع الشاميين اليمنيين ضد سائر القيسيين . وشهد عصر الولاة فتنة بين قبائل العرب ، استمرت سبع سنوات ١٢٣ ـ ١٣٠هـ، بدأت بعد مصرع عبد الملك بن قطن الفهرى شاميةً بلدية ، ثم انقلبت على يدى أبى الخطار الكلبى قيسيةً يمنية .

ب ـ البربر :

يعود الفضل الأول إليهم فى فتح الأندلس ، فقد خاضوا المعركة الأساسية مع القوط بوادى لكه فى سنة ٩٢/ ٧١١ ، ولا يدنى من هذه الحقيقة مجهود العرب بعد عام مع موسى بن نصير . وبلغ عدد البربر الذين

صحبوا طارق بن زياد نحو إثنى عشرة ألفاً ، كما وفدت أعداد أخرى ، بعد أن وصلت أخبار الفتوح إلى العدوة .

لما قامت ثورة البربر الكبرى فى بلاد المغرب ، وجدت هذه الثورة امتداداً لها فى بلاد الأندلس ، وحلت الهـزيمة بالبـربر على أيدى العـرب ، ثم عـرضت سنوات من القحط ، فعاد عدد كبير من البربر إلى بلادهم الأصلية ، ثم نشطت هجرتهم ، حين استعانت الأسرة الأموية بهم كمرتزقة ، ولم يرد بالمصادر الخبر بهجرة جماعية للبربر ، إلا فى عصر الخليفة الناصر ، ثم فى عصر الحاجب المنصور .

انقسم البربر فى الأندلس ـ كما كانت حالهم فى المغرب ـ إلى بُتْر وبَرانس ، وكما انقسم العرب إلى شامية وبلدية ، انقسم البربر على نحو مشابه .

وإذا كان من اليسير تحديد منازل العرب فى الأندلس ، فإن الأمر يختلف بالنسبة للبربر ، ويرى مؤنس (ت ١٩٩٦م) إنه فى المنطقة التى تبدأ من جبال البرتات ، وتنحدر إلى مدينة سالم Medinacelí ، نواجه كتلةً بربريةً ضخمة ، تصلٍ إلى أحواز طليطلة ، وتمتد هذه الكتلة غرباً ، فتشمل المنطقة الواقعة بين التاجه Tagus والدويره Duero حتى الساحل عند قلمرية ، وينتهى الاستقرار البربرى فى أطراف غاليا وجليقية .

ويذهب بعض الكتاب إلى إن العرب اختصوا أنفسهم ـ دون البربر ـ بأحسن الأرضين ، مما كان سبباً فى ثورة هؤلاء . على أن ذلك لا يمنع أن كثيراً منهم اختار السكنى فى المناطق الجبلية ، للتشابه الواقع بينها وبين بلادهم الأصلية .

كان دور البربر فى الثقافة الأندلسية وافراً ، ونستدل على ذلك بما ورد فى رسالة ابن حزم فى تفضيل الأندلس ، ويكفى أن نذكر يحى بن يحى (ت

٢٣٢ أو ٢٣٤ هـ) وَبقىُّ من مَخْلَد (ت ٢٧٦ هـ) وعباس بن فرناس (ت٢٧٤هـ) وابن درّاج القَسطلّى (ت ٤٢١هـ) .

كان للبربر دور آخر وافر فى نشر الإسلام لمخالطتهم أهل البلاد وتزاوجهم معهم ، وهيأت لهم كثرتهم العددية ، لأن يقوموا بالجهد الأكبر فى الفتوح وراء البرتات ، ولولا ما شجب بينهم وبين العرب من نزاعات ، لكان للإسلام فى هذه الاصقاع شأن آخر .

جـ - الموالى :

لم يشكلوا عنصراً أو طبقةً بالمعنى المفهوم ، والفئة الوحيدة المترابطة ، هى التى كانت على صلة بدوائر الحكم ، ونعنى بها الموالى الشامية بقرطبة .

كان الموالى من أصول شتى عربيةً وبربريةً وفارسيةً ورومية ، بل إن بعضهم كانوا من أهل البلاد أنفسهم ، على أن غالبية الموالى كانت أمويةً ، أى إنها توالى بنى أمية ، ومما يجدر ذكره إنه جرت العادة عند بعض الكتاب الأندلسيين ، أنهم يكتفون فى أحيان كثيرة بالنسبة الأموية ، بل يطلقون على موالى بنى أمية تعبير بنى أمية فحسب .

انقسم الموالى - كما كانت حال العرب - إلى شامية وبلدية ، وقد تنازع الفريقان الصدارة ، على أنها كانت فى معظم الأحيان من نصيب الشامية .

اشتهر من الموالى بعض البيوتات ، منها بنو أبى عبدة ، بنو مغيث ، بنو شُهَيْد ، بنو حُدَيْر ، بنو الزجّالى ، بنو رستم وغيرهم .

بعد قيام الأمويين ، قام الموالى بدور كبير فى إدارة الدولة ، بخاصة فى مجالات الحرب والسياسة ، وإن نافسهم العرب أحياناً ، وبعض أفراد الأسرة الأموية ذاتها ، وسوف يدخل فى جملتهم فى مرحلة تالية الصقالبة ، الذين صار

لهم حضور واضح فى عصر الخلافة الأموية وعصر الطوائف .

أما عن دور الموالى فى الحياة الثقافية ، فكان دوراً هاماً ، ونبه عدد كبير منهم فى علوم شتى وفنون وآداب ، وسوف يظهر بينهم أسماء كبيرة كالعُتْبى (ت . ٢٥٤هـ) وابن عبد ربه (ت٣٢٨هـ) وابن شهيد (ت٤٢٦هـ) وابن حزم (ت٤٥٦هـ) وابن حيان (ت٤٦٩هـ) .

د. المولدون :

كان من الطبيعى عند فتح العرب أحد الأمصار ، أن يسارع إلى الإسلام فريق من أهله ، يزداد عددهم بعد ذلك ، وكذا كانت الحال فى الأندلس . وقد أطلق على من أسلم من أهلها تعبير مولدين ، وعلى أحدثهم إسلاما تعبير مسالمة أو أسالمة .

وليس لدينا ما يدل على أن المولدين كانوا يختصون بأحياء معينة داخل المدن، على أنهم فى قرطبة ، تركزوا فى الضاحية الجنوبية شُقَنْدَة Segunda التى دعيت بالرَّبَض Arrabal .

ويذهب ليفى بروفنسال É. Lévi-Provençal (ت١٩٥٦م) إلى أن المولدين كانوا يعيشون على تربية الماشية فى الأرياف ، وعلى صيد الأسماك والأعمال البحرية فى المناطق الساحلية ، أما فى المدن فزاولوا حرفًا وأشغالاً يدوية ، ومارسوا العمل فى التجارة ، واشتهروا فى إشبيلية بثرائهم .

لم يكن للمولدين نشاط واضح فى الحياة العامة فى عصر الولاة ولم يشاركوا فى غزوات المسلمين وراء البرتات ، على أن هذا النشاط بدأت طلائعه مع بداية عصر الإمارة الأموية ، ثم تدافعت عجلته بعد ذلك . ولا يخفى أن كانت للمسلمين من عرب وبربر صلات مع المولدين فقد جاوروهم

وصاهروهم، وادعى عدد من هؤلاء أنسابًا عربية (يمانية فى المحل الأول) .

كان المسلمون الجدد يتعصبون أحيانًا لدينهم تعصبًا ساذجًا وجاهلاً فى الوقت نفسه ، وسوف يتضح ذلك فى علاقاتهم بالدولة فى مرحلة تالية .

هـ - النصارى المعاهدون :

ويقصد بهم النصارى الذين كانوا يعيشون داخل الدولة الأندلسية ، ويطلق عليهم أيضًا تعبير عجم وتعبير مستعرَبين ، وقد انتقل هذا التعبير إلى إسبانيا النصرانية فصار Mozárabes.

سمح المسلمون للنصارى بأن ينظموا أنفسهم كما يريدون ، وكان يقوم على شئونهم قوامس أو أقماط (جمع قومِس أو قُمْط وهو الكونت) وكانوا يختارون بالانتخاب بينهم ، فيما عدا القومس الأعلى ومستقره قرطبة ، فكانت الدولة تعينه فى منصبه .

كان قومس الأندلس مسئولاً عن مواطنيه ، وعلاقاتهم بالحكام العرب ، وكان أول القوامس أَرْطباس بن غيطشة من ملوك القوط .

إلى جانب القوامس كان هناك موظفون آخرون ، أبرزهم القاضى Iudex (أو Alcalde) ، يقضى بين النصارى وفق شرائعهم ، أما فى القضايا التى يتخاصم فيها مسلمون ونصارى ، فكان قاضى المسلمين هو الذى يقضى بينهم .

عندما ننتقل إلى واجبات النصارى المالية نجد أن العرب فرضوا عليهم جزيةً، تتراوح بين عشرة دراهم وأربعين درهمًا للواحد منهم كل عام ، وأعفى منها غير القادرين والنساء ، كما فرضوا عليهم خراجًا ، يبلغ الثلث أو الربع من غلة أرضهم .

كانت روح التسامح تسود علاقات المسلمين بالنصارى ، والمدونات النصرانية المعاصرة تؤكد على ذلك ، فقد احتفظ النصارى ـ كقاعدة ـ بنظمهم الكنسية وكنائسهم التى كانت قائمةً فى عهد القوط وسمح لهم بعقد مجامعهم الدينية والحج إلى بيت المقدس .

وفى أعقاب الفتح أجاز المسلمون لولد غيطشة ضياعهم الفسيحة التى دعيت « بصفايا الملوك » وقدر عددها بثلاثة آلاف ضيعة كما إن كثيراً من المسلمين تزوجوا نصرانيات ، ومن نسل إحداهن تحدر المؤرخ وعالم اللغة المعروف ابن القوطية (ت ٣٦٧ هـ) .

تأثر النصارى بالثقافة العربية السائدة ، وبمرور الوقت تم استعرابهم واستيعابهم فى الإطار العام لها ، وأصبح من المعتاد أن يكون للنصرانى إسمان عربى وإسبانى ، وفى الوقت نفسه اضمحلت اللغة اللاتينية ،ولم يلبث أن ترجم الكتاب المقدس إلى اللغة العربية .

و - اليهود :

كان الفتح الإسلامى فرصةً ليهود الأندلس ، كى يتخلصوا مما كانوا عليه من اضطهاد فى عهد القوط ، فتعاونوا مع المسلمين فى فتحهم للبلاد ، كما تعاونوا معهم فى فتوحهم وراء البرتات .

كان اليهود يؤثرون المقام فى أحياء خاصة بهم داخل المدن ، يزاولون أعمالهم التقليدية ، ويرأسهم فى الأندلس كلها رئيس يدعى الناجد ، وكانت لهم دور عبادة ، يطلق على الواحدة منها اسم شنوغة Sinoga ، ولها فى أحوال كثيرة أحباس وأوقاف للنفقة عليها .

ترك المسلمون لليهود حريتهم فى أن يسيروا أمورهم ، وفق أعرافهم

وقوانينهم، وكانوا يتقاضون فيما بينهم .

كانت الصلات بين المسلمين واليهود طيبةً ، تسودها المودة ، واتخذ هؤلاء اللباس العربى وتحدثوا بالعربية ، وتمادوا فى استخدام الأسماء العربية ، وسمح المسلمون لهم بملكية الأرض ، وامتهن عدد منهم صناعة الورق ، على أن أهم مجال عمل فيه اليهود هو التجارة ، وأهم تجارة اشتهروا بها هى تجارة الرقيق بخاصة الصقالبة .

وكانت لليهودمشاركة واضحة فى الحياة الثقافية فى عصر الخلافة وما تلاه من عصور ، وكثير من تراث الحضارة الإسلامية بالأندلس ، جرى نقله إلى اللغة اللاتينية على أيدى مترجمين يهود .

ز - العبيد :

كان المصدر الرئيسى للعبيد هم أسرى الحرب ، ولدينا معلومات وافرة ، عما كان يحوزه المسلمون فى غزواتهم ، منذ افتتاح الأندلس ، حتى أواخر عصر الخلافة .

كان العبيد تحت السيادة الإسلامية فى وضع أفضل بكثير مما كانوا عليه فى إسبانيا القوطية أو إسبانيا النصرانية . ومن الأمور التى أتى بها الإسلام إلى الأندلس، عدم الفصل بين أبناء الأسرة الواحدة ، فلم يعد من حق السيد أن يفصل بين الأمة وبين ابنها ، وكانت الأمة عندما تنجب من سيدها يتغير وضعها ، فتصر « أم ولد » ، ولا يجوز له أن يبيعها ، وإذا مات عنها صارت حرة ، كما إن أبناءه منها أحرار ، بخلاف ما كانت عليه الحال فى عهد القوط .

وغنى عن البيان أن الإسلام كان يشجع على عتق العبيد ، ويجعله أحد مصارف الذكاة ، وكان فى امكان العبد أن يشترى حريته بمبلغ من المال ، يؤديه

منجماً ، وهى طريقة المكاتبة ، أو يوصى السيد بعتقه حال وفاته وهى طريقة التدبير .

وكان العبد عندما يتم عتقه يصير مولى لمن أعتقه عضواً فى أسرته ،فيرث مولاه ويرثه مولاه ، غير أنه غالباً ما كان يصير ولاء المعتق إلى الأسرة الأموية التى تمثل جماعة المسلمين ، وهو الأمر الذى يفسر كثرة النسبة الأموية بين الموالى .

أقبل عدد كبير من العبيد إلى الإسلام ، حتى يتمتعوا بحرياتهم ، ويذهب البعض إلى أن غالبية المولدين ـ أى الإسبان المسلمون ـ أقنان حصلوا على حرياتهم بالإسلام ، أما العتقاء الذين ظلوا على ديانتهم ، فكانت لا تؤخذ منهم جزية .

الفصل السادس
عصر الإمارة الأموية

١ - عبد الرحمن الداخل :

بعد سقوط الدولة الأموية فى سنة ١٣٢ / ٧٥٠ . استطاع فتى صغير ، يدعى عبد الرحمن بن معاوية بن هشام أن ينجو بحياته إلى بلاد المغرب ، وهناك فكر فى العبور إلى الأندلس .

مرت الأندلس ، منذ أن افتتحها المسلمون بمرحلة قلقة مضطربة ، وكان لنأيها عن مركز الدولة الإسلامية فى بلاد الشام أثره فى أن اشتعلت بها حروب العصبيات بين العرب والبربر ، ثم بين العرب أنفسهم ، وأدت هذه الحروب إلى نتائج مدمرة فى فتوح العرب وراء البرتات ، كما أدت أيضاً إلى ظهور نواة المقاومة النصرانية فى الجبال الشمالية الوعرة ، ونشأت لها دولة نصرانية صغيرة ، امتدت مساحتها امتداداً واسعاً خلال السنوات الأخيرة من عصر الولاة .

أوفد عبد الرحمن مولاه بدراً إلى الأندلس ، فاتصل بالموالى الأموية ، وكان عددهم كبيراً ، كما اتصل باليمانية ، وكانوا قد أصيبوا بضربات قاسية من القيسية ، ويسعون إلى أخذ ثأرهم ، ولما أتم تمهيد الأمر لسيده عاد إلى بلاد المغرب .

فى إحدى أمسيات ربيع الآخر ١٣٨/سبتمبر ٧٥٥ ، وصل عبد الرحمن إلى ثغر المُنَكَّب Almuñcar ، وهرع إليه موالى الأموية ووجوه أهل اليمن ، فتغلب على إلبيرة ، وأتى خبره إلى يوسف بن عبد الرحمن الفهرى والى الأندلس فأسرع إلى لقائه ، ودارت المعركة يوم الأضحى ، عند موضع يعرف بالمسارة قرب قرطبة ، وانتهت بانتصار عبد الرحمن ، ولحق يوسف بماردة وأخذ

إلى طليطلة ، وسار عبد الرحمن إليها وضرب الحصار عليها إلى أن تداعى الطرفان إلى الصلح ، وعاد عبد الرحمن ومعه يوسف إلى قرطبة ، وبدأ عهد جديد في تاريخ الأندلس .

كان عبد الرحمن يشعر بأنه غريب عن هذه البلاد ، ليست له عصبية يعتمد عليها ، لذا انصرف إلى تشجيع أهل بيته الأمويين على الوفود إليه ، فأتاه عدد كبير منهم ، كما استعان بمواليهم ، وسوف يصبح هؤلاء الموالى عصب الحكومة الأموية وسنادها ، وصارت أسراتهم ـ فيما بعد ـ تتوارث مناصب القيادة والوزارة والحجابة .

في الوقت نفسه لم يأمن عبد الرحمن جانب العرب واليمانية منهم ، وكان هؤلاء يشعرون بأنهم أصحاب فضل عليه ، وحين انحرف عنهم ، قاموا بثورات ضده ، وتحالف بعضهم مع خصومه من العباسيين والفرنجة . لذلك استعان عبد الرحمن بالبربر ، ليوازن بهم الأجناد العرب ،كما استعان بالصقالبة ، الذين كان يؤتى بهم صغاراً من أنحاء أوربا ، وينشئون نشأة إسلامية ، وتصبح لهم دربة بأساليب القتال وخبرة ، وشكلوا ـ بعد ـ الحرس الخاص بالأمير .

خلال عهده الطويل ، نشبت عدة ثورات ، أولاها ثورة يوسف الفهري الذي هرب في سنة ١٤١ / ٧٥٩ إلى ماردة ، وحشد أنصاره ، وأقبل إلى إشبيلية، ثم دار قتال عنيف بينه وبين جيش الدولة ، عند حصن المُدَوَّر Almodavar ، وانتهت المعركة إلى هزيمته وقتله .

كذلك واجه عبد الرحمن ثورات من جهة اليمانية ، أخطرها ثورة العلاء ابن مغيث اليَحْصُبى ، وقد انحاز إلى بني العباس ، فعبر البحر إلى إفريقية ، ومكث هناك يسيراً ، ثم عاد في سنة ١٤٦ / ٧٦٣ ، ومعه سجل الخليفة المنصور ، ونزل بساحل باجة ، ورفع الرايات السود ، وأيدته اليمانية والفهرية ،

وفزع عبد الرحمن إليه ، والتقى به فى قرمونة ، حيث دار قتال شديد ، أسفر عنه انتصار الأمير ومصرع العلاء .

بعد سنوات من هـذا الانتصار دعا المنصور خصيمه الأندلس « بصقر قريش » .

واجه عبد الرحمن أيضاً ثورةً من قبل البربر ، تزعمها رجل من مكناسة ، اسمه شقنا بن عبد الواحد ، إدعى فى ولد فاطمة الزهراء ، واستولى على قورية Coria وشنت بريّة Santa María ، وغيرها من النواحى غربى الأندلس وأعانته طبيعة الأرض التى تكتنفها الجبال ، فكان إذا أمن انبسط ، وإذا خاف صعد ، وأعيا الدولة أمره نحو عشر سنوات ، إلى أن اغتاله بعض أصحابه فى سنة ١٦١ / ٧٧٧ ، وأتوا برأسه إلى عبد الرحمن .

على أن أخطر ما واجهه عبد الرحمن هو الغزوة التى قام بها شارلمان Charlemagne ملك الفرنجة (٧٦٨ ـ ٨١٤) إلى الأندلس فى سنة ١٦١ / ٧٧٨ ، ولو قدر لهذه الغزوة النجاح ، لصار للأندلس شأن آخر .

توافد إلى شارلمان عدد من الثوار العرب ، ولدى اتفاق الطرفين ، عبر بجيوشه إلى إسبانيا ، واستولى فى طريقه على بنبلونة فى بلاد البشكنس ، وتقدم إلى سرقسطة ، غير أن حملته تعثرت أمام أسوارها . وفى تلك الأثناء أتته الأخبار بأن السكسون شقوا عليه عصا الطاعة ، فرفع الحصار عن سرقسطة ، واتخذ أهبته للعودة ، ففتك السكسون بمؤخرة جيشه فى شعب رونسسفال Ronces-valles ، حيث قتل هرود لاند Hruodland (رولان) وعدد من كبار القادة الفرنجة ، وخلدت هذه المعركة « أغنية رولان » La Chanson de Roland الذائعة الصيت بين ملاحم العصور الوسطى .

فى الوقت نفسه كان هناك ثائر آخر هو عبد الرحمن بن حبيب الفهرى

المعروف بالصقلبى ، وقد جدد فعل العلاء بن مغيث ، فعبر البحر إلى إفريقية ، ثم عاد بجيش من البربر ، ونزل بساحل تدمير فى سنة ١٦٢ / ٧٧٨ ، ودعا لبنى العباس ، وسار إليه عبد الرحمن وحرّق سفنه ، وتعقبه فى جبال بلنسية Valencia ، إلى أن اغتاله بعض أصحابه ، وبعثوا برأسه إلى الأمير .

نتساءل هل يوجد خيط ، يربط بين ثوار يدعون للخليفة العباسى ، وبين ثوار يدعون ملك الفرنجة ، والهدف فى النهاية واحد .

بعبارة أخرى ، هل يوجد اتفاق مشترك بين خليفة بغداد وبين ملك الفرنجة شارك فيه هؤلاء الثوار .

المصلحة ترجح وجود هذا الاتفاق ، لكن ليس فى مصادرنا ما يؤكده ، والمصادر الفرنجية ـ وحدها ـ تشير إلى سفارات متبادلة بين آخن Aachen ـ حاضرة شارلمان ـ وبغداد ، وتشير أيضاً إلى هدايا ، ثم وضع بيت المقدس تحت حماية الملك الفرنجى .

صمت الرواية العربية تماماً ووقوف الرواية الفرنجية عند حد ، يجعلنا نشك فى وجود إتفاق لكننا فى الوقت نفسه لا ننفيه .

هدأت الأحوال فى السنوات الأخيرة من حكم عبد الرحمن ، بحيث إنه حين ولى ولده هشام فى سنة ٧٨٨/١٧٢ كانت أمور البلاد مستقرةً إلى حد كبير .

2 ـ خلفاء عبد الرحمن :

يعد هشام الذى دعى بالرضى من أفضل أمراء الأسرة الأموية وأكثرهم تقوى وديناً . ولما لم يكن أكبر أبناء أبيه ، فقد ثار ضده أخواه سليمان وعبد الله ولحقا بطليطلة ، إلا أن هشاماً استطاع القضاء على هذه الثورة ، وتم الاتفاق على أن يعبر الأخوان بأولادهما إلى عدوة المغرب .

دخل هشام كذلك فى صراعات مع الفرنجة الذين نشطوا فى أخذ معاقل المسلمين فى جبال البرتات وكذلك الجلالقة ، واستطاع قواد هشام ـ وبخاصة عبد الكريم بن عبد الواحد بن مغيث ـ أن يضعوا حداً لنشاط هؤلاء .

على أن أهم الأحداث التى ترتبط بعهد الأمير هشام ، هو دخول مذهب الإمام مالك رضى الله عنه (ت١٧٩هـ) إلى الأندلس ، وكان الأندلسيون قبل ذلك على مذهب الأوزاعى (ت١٥٧/٧٧٤) إمام أهل الشام . وإذا كان مذهب مالك سوف يضحى بعد سنوات هو مذهب جمهور أهل الأندلس ، فإن فقهاءه صار لهم نفوذ كبير على هشام ، وكان هو بدوره يوقرهم ويحترمهم ، ولم يكن يقرر أمراً من أمور الدولة ، إلا بعد أن يأخذ مشورتهم ورأيهم .

مات هشام فى سنة ١٨٠/٧٩٦ ، وخلفه ولده الحكم ، ولدى ولايته عاود عماه سليمان وعبد الله الثورة عليه ، وتواطئا مع الفرنجة ، وبعد حرب امتدت سنوات ، تمت هزيمة الأخوين ، وأعدم سليمان ، لكن الحكم عفا عن عبد الله وأصهر إليه ، وسوف يصبح بنوه ـ فيمابعد ـ من كبار رجال الدولة .

ويرتبط عهد الحكم بحدثين هامين ، هما استيلاء الفرنجة على برشلونة ، وتأسيس الثغر الإسبانى La Marca Hispánica وثورة الربض .

لم يغمض الفرنجة الطرف بعد النكسة ، التى أصيبوا بها فى شعب رونسسفال ، عن معاودة غزو الأندلس ، وتأمين حدودهم مع المسلمين فى جبال البرتات ، فانتهز شارلمان فرصة الثورة التى قام بها سليمان وعبد الله ولدا عبد الرحمن الداخل ، فسير جيشاً بقيادة ولده لويس ، فاستولى على جِرُندة ، وأوغل فى الثغر الأعلى ، وحاصر وشقة فى سنة ١٨١ /٧٩٧ ، ثم ارتد عنها ، عندما علم بمسير الأمير الحكم إليه .

عاود شارلمان المحاولة ، وعقد حلفاً مع أذفونش الثانى Alfonso II ملك اشتوريش Asturias وجليقية (٧٩١ ـ ٨٤٢) وأرسل ولده لويس مرة أخرى

إلى مدينة برشلونة ، فحاصرها عدة شهور ، ولم يستطع الحكم أن يمدها بعونه ، فسقطت فى سنة ٨٠١/١٨٥ ، وجعلها الفرنجة قاعدةً ، لما عرف بالثغر الإسبانى أو القوطى ، وهو نواة إمارة قطالونيا فى العصور التالية ... وبذا انحدرت حدود الأندلس مسافةً بعيدة جنوبى جبال البرتات .

واجه الحكم – إلى جانب ذلك – ثورات من جهة المولدين ، وكانت توجد منهم عصبيات قوية فى مناطق الثغور ، وجدت الدولة من الأجدى مسالمتها ، والاعتراف بنفوذها فى هذه الأصقاع البعيدة ، خشية أن تتحدد مع النصارى الذين كانوا يتربصون بالمسلمين فى نواحى الشمال . لكنها كانت تتدخل أحياناً، عندما يعلن أحد هؤلاء المنتزين استقلاله له ببعض المدن والقلاع ، أو يتحالف مع أعدائها ، وكثيراً ما كانت تضرب بين هؤلاء الثوار ، أو تعين بعضهم ضد بعض .

على أن أخطر ما واجه الدولة من جهة المولدين ، هى الثورة التى اندلعت داخل العاصمة نفسها .

كان المسلمون الجدد فى اعتناقهم الإسلام ، يتعصبون له أحياناً تعصباً ساذجاً وجاهلاً ، ويأخذون على الدولة التهاون فى إقامته ، ويسببون لها متاعب ، وبقدر ما يتضاءل نصيب المؤمن من الثقافة ، بقدر ما يكون سهل الانقياد . وقد استثمر الفقهاء فى المولدين هذه الناحية ، من أجل أن ينتصفوا من الأمير الحكم الذى حرمهم نفوذهم الذى كان لهم فى عهد أبيه ، وزعموا انصرافه عن دينه إلى دنياه ... وبذا صار المولدون وقود هذا الصراع بين الحكم والفقهاء .

وجدت دعاوة الفقهاء ثمراتها عند العامة ، ففى سنة ٨١٨/٢٠٢ جرى احتكاك بين العامة وبين أحد مماليك الأمير ، ترتب عليه أن ثار أهل الربض (أى الضاحية الجنوبية من قرطبة) ثم تابعته سائر الأرباض ، وانحاز الحكم وجنوده إلى

قصره فحاصره العامة ، وكادوا يفتكون به ، لكنه وطن نفسه على الموت أو الظفر بهم ، وأمر ابن عمه عبيد الله البلنسى وحاجبه عبد الكريم بن مغيث ، فثلما فى السور ثلمةً ، واخترقا مع قطيع من الجند جموع الثوار ، وأضرما النار فى بيوتهم ، فدب الذعر فى صفوفهم ، وانقلبوا إلى دورهم ، وأحرق الجنود بهم من كل ناحية ، وقتلوا منهم مقتلةً عظيمةً ، وأسروا عدداً كبيراً .

بعد سحق الثوار أمر الحكم فصلب ثلاثمائةً من وجوههم ، واستمر النهب فى الربض الجنوبى والتحريق ثلاثة أيام ، ثم أشار البعض على الأمير بالعفو عنهم ، فقبل على أن يخرجوا من قرطبة ، فخرجوا بنسائهم وأولادهم وأموالهم ، وأمر الحكم بهدم الربض ، فصار مزرعةً ، ولم يعمر أبداً فى مدة بنى أمية .

تفرق أهل الربض فى أقطار الأندلس خصوصاً طليطلة ، كما تفرقوا أيضاً خارج الأندلس خصوصاً المغرب ، فلحقوا بفاس وكان المولى إدريس بن إدريس (٧٩١/١٧٥ ـ ٨٢٨/٢١٣) بسبيل تأسيسها ، فسكنوا عدوة الأندلسيين .

على أن أهم طوائف الأندلسيين المهاجرين ، كانت الطائفة التى ارتحلت إلى الإسكندرية ، وكانت مصر ـ إذ ذاك ـ فريسةً للحرب الأهلية بين الأجناد العرب، فانتهز الأندلسيون الفرصة ، واستولوا على الثغر ، وأسسوا ما يشبه جمهوريةً هناك . واستمرت حالهم هكذا عشر سنوات إلى أن أرغموا على مغادرتها ، فغادروها إلى إقريطش Crete ، فملكوها وبقوا بها حتى سنة ٩٦١/٣٥٠ ، فعادت مرة أخرى إلى الروم .

لم يمتد العمر بالحكم (الربضى) طويلاً بعد الهيج ، فقد مات فى سنة ٨٢٢/٢٠٦ ، ليخلفه ولده عبد الرحمن الذى عرف ـ فما بعد ـ بالأوسط .

يعد عهد عبد الرحمن الأوسط (٨٢٢/٢٠٦ ـ ٨٥٢/٢٣٨) أزهى عهود الإمارة الأموية ، ودعى « بأيام العروس » ومع أن الفتن لم تنقطع فى ذلك

العهد ، إلا أن عبد الرحمن استطاع بحسن سياسته أن يخمدها ، الواحدة تلو الأخرى . كما نجح قواده فى صوائفهم التى توجهت ضد الفرنجة ، فمنعوهم من اجتياز حدود الثغر القوطى ، وهزموهم عند بنبلونة فى سنة ٢٠٩ / ٨٢٤ ، وتوجهت حملات تأديبية إلى الجلالقة ، قادها عبد الكريم بن عبد الواحد بن مغيث .

على أن أهم الأحداث السياسية فى عهد عبد الرحمن الأوسط هو الغزوة التى قام بها الفايكنج لغربى الأندلس .

إجتاح الفايكنج (النورمان أى الشماليون) أقطار أوربا خلال القرنين التاسع والعاشر الميلاديين ، وكانت الأندلس من جملة هذه الأقطار .

أطلق المسلمون على هؤلاء الغزاة اسم المجوس وأحياناً الأردمانيين ، وظهروا لأول مرة فى الأندلس فى سنة ٨٤٣/٢٢٩ ، حين أتوا فى ثمانين مركباً ، ورسوا فى مياه أشبونة Lisboa ، ثم انتقلوا منها إلى قادس Cádiz فشذونة ، واخترقوا الوادى الكبير إلى إشبيلية فاستولوا عليها ، وأمعنوا فى أهلها سفكاً ونهباً .

عندما ترامت هذه الأنباء إلى الأمير ، أرسل جيشاً بقيادة نصر الخصى ، إلتقى بهؤلاء لدى طلياطة Tejada قرب إشبيلية ، وهزمهم وأرغمهم على الارتداد بسفنهم إلى أشبونة ، ثم لحقوا ببلادهم ، وقد أغدق الأمير على قائده نصر ، لنجاحه فى تحقيق أهداف الدولة .

كانت هذه الغزوة دافعاً لعبد الرحمن ، من أجل أن يوجه عنايته لبناء أسطول قوى ،فأنشأ دوراً لصناعة السفن فى عدة مرافئ أندلسية ، ولم تمض سنوات ، حتى صار للأندلس أسطولان قويان ، أسطول أطلسى مركزه أشبونة ، وأسطول متوسطى مركزه ألمَرِيّة Almería .

أصبحت للأندلس مكانة دولية مرموقة فى عهد عبد الرحمن الأوسط ، ونشأت علاقات دبلوماسية مع أقطار أخرى خارجها ، فأرسل ثيوفيل Theophi-lus ملك الروم (٨٢٩ ـ ٨٤٢) سفارة إلى الأمير فى سنة ٨٤٠/٢٢٥ ، رد عليها بسفارة للشاعر الغزال ، كذلك أوفد الشاعر نفسه فى سفارة أخرى إلى ملك المجوس ببلاد الدنمارك فى سنة ٨٤٦/٢٣٢ ، حيث لقى حفاوةً من الملك والملكة ، وتردد صدى ذلك فى أشعاره .

فى عهد عبد الرحمن أيضاً ، استقرت قواعد الدولة الأندلسية ، فكان لكل نشاط من أنشطة هذه الدولة خُطَّة (تقابل الوزارة الآن) ويرأس الجميع الحاجب (يقابل رئيس الوزراء الآن) . وجرت العادة على أن يختص الموالى بمناصب الوزارة ، وإن شاركهم العرب أحياناً ، وكان لعنصر الوراثة هذا أثره فى المحافظة على تقاليد عريقة فى الحكم ، وفى تحقيق الاستقرار .

إلى جانب الوزراء كان هناك القضاة ، وكبيرهم يدعى « بقاضى الجماعة » ، ومستقره قرطبة ، وهو الذى يعين قضاة المدن الأخرى ، وكانت له مكانة كبيرة عند الأمير . كما نشأت بين الفقهاء خطة المَشُوَرَة ، وهى هيئة مرجعية ، يستند إليها الأمير ، إذا أهمه أمر ما من أمور الدولة ، وصار فى حاجة إلى رأى الشرع بخصوصه .

قام عبد الرحمن بحركة عمرانية كبيرة ، فجدد جامع قرطبة ، وكان جده الداخل قد شرع فى بنائه ، مكان كنيسة قوطية قديمة ، لكنه مات قبل إتمامه ، فكان ذلك من نصيب ولده هشام . فلما ولى الأوسط زاد فى الجامع بهوين جديدين ، ورفع سقفه بأن بنى فوق الأعمدة أعمدةً أخرى وأقواساً ، وزرع فى الصحن المكشوف أشجار النارنج ، فدعى بصحن النارنج ، وقد خضع الجامع لزيادات أخرى فى عصور تالية .

برزت فى عهد عبد الرحمن الأوسط شخصيات كبيرة فى مجالات متعددة، نذكر منها زرياب المغنى والموسيقى (ت٢٣٨/٨٥٢) والغزال الشاعر (ت٢٥٠/٨٦٤) وعباس بن فرناس العالم والأديب (ت٢٧٤/٨٨٧) .

3 ـ شهداء قرطبة :

فى أواخر عهد عبد الرحمن الأوسط ، وأوائل عهد ولده محمد ، جرت فى مدينة قرطبة حركة عرفت عند الكتاب الفرنج « بحركة الشهداء » ، وقد أفرد لها سيمونيت Simonet قسماً كبيراً من كتابه « تاريخ المستعربين » ، أما المصادر العربية المتاحة ، فقد خلت منها على وجه التقريب ،وعلى ذلك سنتحرى (الحقائق) عن (شهداء قرطبة) من المصادر النصرانية وحدها .

تقول الرواية النصرانية إن المسلمين عاملوا النصارى بقدر من التسامح فى البداية ، لكنهم بعد أن شعروا بقوتهم ، غيروا هذه السياسة ، وصار الاستبداد الإسلامى شديد الوطأة على ضمائر النصارى وأموالهم وكرامتهم ، وكان يتصاعد مع انتصار يحرزه نصارى الشمال ؛ أو ثورة يشعلها نصارى طليطلة :

لم يكن النصارى ـ وحدهم ـ الذين يتعرضون للمعاناة ،فهناك أيضاً المولدون ، وكانوا يعيشون أوضاعاً سيئة ، فالعرب ينظرون إليهم بعين الشك ، ولا يسندون إليهم وظائف كبيرة ، وكثيراً ما يدعونهم بالعبيد ، رغماً عن انتماء بعضهم إلى أصول عريقة .

لما اشتد عسف المسلمين بنصارى قرطبة ، عمدوا إلى نضالهم خارجها ، بخاصة فى المدن البعيدة ، أما فى العاصمة ، فإنهم لم يجدوا وسيلةً سوى (الإستشهاد) ، وكان رائدهم فى هذا الصدد القساوسة أنفسهم .

شاعت عند رجال الدين أفكار زائفة عن الإسلام ، كما ذاعت بينهم أفكار

أخرى عن أسلاف لهم ، هلكوا على أيدى الوثنيين ، وصاروا يرجون أن يقوموا بعمل مجيد مثلهم .

فى أوائل القرن التاسع الميلادى ، ظهر أول المحرضين على (الاستشهاد) ، ودعى فى الكتابات الكنسية باسبيرا - إن - ديو Spera - en - Deo أى «الآمل فى الله» ، وأعانه فى تحريضه قسيس هو إيو لوخيو Eulogio وعلمانى هو ألبرو Alvaro .

فى الفترة بين سنتى ٨٥٠ - ٨٦١ صار عدد من النصارى ، يتحرشون بالمسلمين فى الأماكن العامة وفى المساجد ، ويتعرضون بالسوء إلى دينهم ونبيهم صلى الله عليه وسلم ، ويسعون إلى فتنة بعضهم ، خصوصاً من ينتمى منهم إلى المولدين .

أثارت هذه الأحداث استياء غالبية النصارى الذين قالوا : « إن السلطان يسمح لنا بمزاولة شعائر ديننا ولا يضطهدنا . فلماذا إذن هذا المسعى التعصبى ؟ . إن هؤلاء الذين تدعونهم (شهداءً) ليسوا كذلك ، إنما هم إنتحاريون يحفزهم الزهو ، وهو أصل الخطايا كلها ، وإذا هم طالعوا الإنجيل يجدون فيه « أحبوا أعداءكم باركوا لاعنيكم أحسنوا إلى مبغضيكم » .

لما انتشرت هذه الأفكار بين النصارى ، وكادت تحدث أثرها ، إنبرى إيولوخيو للرد عليها فى كتاب دعاه « ذكريات مقدسة » Memoriale Sanc-torum ، فدافع عن الشهداء ، وتعرض للمضايقات التى صادفها النصارى والقساوسة منهم ، واقتبس من الكتاب المقدس وآباء الكنيسة ، ما يؤكد أن « الاستشهاد » عمل من أعمال التقوى ، يستحق التقدير والثناء .

تمادى هؤلاء النصارى فى غيهم ، مما دفع الدولة إلى تحذيرهم وتعزيرهم وأخيراً إلى حدهم ، لنقضهم عهدهم ، ثم أمرت بعقد مجمع كنسى ، رأسه

ريكافريدو Recafredo مطران إشبلية ، ومثلها فى المجمع قومس بن أنتنيان عامل الخراج . وفى هذا المجمع بسط قومس الموقف ، وحدد النتائج التى يمكن أن تحدث للذين يسيئون إلى الإسلام ، وأنهم يستحقون الحرمان لا التقديس ، لأنهم يعرضون إخوانهم النصارى لخطر الاضطهاد ، ودعا الأساقفة إلى إصدار قرار يشجب سلوك هؤلاء (الشهداء) ، واتخذ المجمع حلاً وسطاً يرضى الطرفين، فاعترف بمن قتلوا شهداءً ، لكنه فى الوقت نفسه قرر إدانة من يقدم على (الاستشهاد) مستقبلاً ، ودعا إلى حبس المحرضين من القساوسة .

بعد أيام قليلة من انفضاض المجمع توفى الأمير عبد الرحمن الأوسط ، وولى ولده محمد ، وتتابع موكب (الشهداء) ويزعم إيولوخيو أنه أمر باقصاء النصارى من وظائف الدولة ، بل أمر بهتك أعراض نسائهم وبناتهم ، لكن وزراءه نصحوه بالعدول عن ذلك .

استمرت الحال كما هى عليها عدة سنوات فى عهد الأمير محمد ، إلى أن أعدم إيولوخيو ثم ألبرو ، وهدأت فتنة (الشهداء) .

إذا أنعمنا النظر فى الرواية النصرانية عن حادثة الشهداء يتضح لدينا :

١ ـ المرجعية فى هذه الرواية هى إلى إيولوخيو وألبرو ، وهما ـ معاً ـ طرف فى قضية له مصلحة ، والحذر فى التعامل مع أحد أطراف القضية واجب لا محيص عنه .

٢ ـ الوقائع المنوه إليها ، إما إنها مرسلة غير محددة ، تخضع لوجهات نظر ، أو إنها محددة ، وفى هذه الحال ، يكون موقف المسلمين تجاهها ، رد فعل على موقف هؤلاء النصارى تجاههم .

٣ ـ فقد جاهر هؤلاء النصارى بالإساءة إلى الإسلام ونبيه الكريم ، وفتنوا بعض

المسلمين عن دينهم .

٤ ـ وقادهم فى ذلك عدد من رجال دينهم ، اتخذوا من الأديرة مراكز للحض على (الاستشهاد) .

٥ ـ وتوخت الدولة المرونة فى تعاملها مع هؤلاء (الشهداء) وتلمس قضاتها الأعذار فى تطبيقهم الحدود .

٦ ـ وبذلت الدولة ـ من جانبها ـ جهدها لحسم الفتنة ، فعقدت لذلك مجمعاً، اتخذ قراره دون تدخل منها ، واتسم هذا القرار بالاعتدال .

٧ ـ وأوضحنا فى فصل سابق أن النصارى كانوا يعيشون حياةً طيبةً فى إطار الجماعة الإسلامية بالأندلس .

أما عن الدافع إلى إشعال الفتنة فنستطيع أن نرجعه إلى ضيق بعض القساوسة من اتساع نطاق الإسلام ، وإقبال كثير من أبناء جلدتهم إليه ، مما حفزهم إلى (الاستشهاد) والتحريض عليه ، من أجل إثارة الحماسة للنصرانية بين أبنائها .

ولم يكن الإقبال على الإسلام وحده سبباً فى تذمر هؤلاء القساوسة ، إنما ساءهم كذلك ، تسرب بعض الأفكار التى تتصل ببشرية المسيح عليه السلام إلى أصول عقيدتهم .

ويتصل بحركة (الاستشهاد) موقف فريق من المولدين الذين أسرُّوا النصرانية، أو أعلنوها فيما بعد . على أن غالبية المولدين أسلموا عن عقيدة خالصة وإيمان عميق ، وقد عاصر ابن حزم بعضهم ، وقال عنهم « إننا قد شاهدنا من النصارى واليهود طوائف لا يحصى عددها ، أسلموا وحسن إسلامهم » .

مجمل القول إن فتنة (الشهداء) كانت حادثاً عابراً فى تاريخ الأندلس، ومن ثم أغفلتها المصادر العربية ـ ربما ـ وسارت الأمور سيرها الطبيعى بعد انتهائها ،

واستمرت الدولة فى سياستها التى تنطوى على التسامح مع رعاياها النصارى وسمحت لهم بأن يحتفلوا بأعياد شهدائهم ، وبينهم عدد من (شهداء قرطبة) .

4 ـ الفتنة الكبرى وعمر بن حفصون* :

لم يكن قد مضى عشرون عامًا على إخماد فتنة (الشهداء) بقرطبة ، حتى ضجت بلاد الأندلس جميعها بثورة ، دعيت بالفتنة الكبرى ، استغرقت نحو ستين سنةً من جهد الدولة ، وشاركت فيها عناصر المجتمع جميعها ، واتسع مداها ، وأضحى سلطان الدولة لا يتعدى فى أحيان كثيرة أسوار الحضرة ، وأتيحت الفرصة لممالك الشمال النصرانية لأن تتوسع على حساب المسلمين .

شهدت بلاد الأندلس خلال القرن الثالث الهجرى ، بخاصة فى عهد الأمير محمد (٢٣٨/٨٥٢ ـ ٢٧٣/٨٨٦) سنوات متتاليةً ، سادها القحط واضطراب عناصر الطبيعة ، مما ترتب عليه هلاك كثير من الناس أو هجرتهم من البلاد .

كانت سياسة الدولة تجاه هذه الأزمات لا تنم عن الحرص على معالجتها وتخفيف وطأتها ، وكانت لهذه السياسة تأثير بالغ على المولدين والنصارى المعاهدين ، لأنهم كانوا كثرة عناصر المجتمع المنتجين ، ولم تقف الدولة عند هذا الحد ، فقد واصلت جباية العشور وغيرها من أموال ، واستخدمت وسائل عنيفةً فى هذا المجال .

من بين هذه الأسباب موقف الفريق الناقم من النصارى المعاهدين الذين أشعلوا فتنة (الشهداء) بقرطبة ، فقد كانوا يتحينون الفرصة ، لإثارة الصعاب

* لم يطلق على هذه الفتنة فى مصادرنا تعبير محدد ، واقتبسنا هذا التعبير من محمد عبد الله عنان فى كتابه « دولة الإسلام فى الأندلس » .

ضد الدولة ، والاشتراك فى الحركات المناهضة لها .

كذلك لم يتوان ملوك النصارى فى إعانة الثوار الخارجين على الدولة ، خصوصاً فى مناطق الثغور ، بل ارتبطوا مع بعضهم بصلات المصاهرة ، وأفادوا من هذا كله ، فاتسعت حدود دولهم على حساب الدولة الإسلامية بالأندلس .

تلك هى الأسباب الحقيقية التى أدت إلى الفتنة الكبرى ، ولا نغفل دور البيئة ، فالبيئة الأندلسية ، بما فيها من بنية أرض تناسب الحروب الصغيرة ، وما طبع عليه الناس نتيجةً لذلك من صلابة وصبر وعناد ، كانت من الأسباب المشجعة على قيام الفتنة واستطالتها سنوات طويلة .

نركز هنا فى حديثنا على كبير الثوار بالأندلس ... عمر بن حفصون .

ينتمى عمر بن حفصون إلى أسرة من أصل قوطى أسلم أحد أجداده ، فدانت ذريته بالإسلام ، لكنهم كانوا يسرون النصرانية .

تذكر الرواية العربية أن عمر نشأ سيئ الخلق ، ثم عبر البحر إلى المغرب ، فأقام بتاهرت فترة ، وعاد إلى الأندلس فى سنة ٢٦٧/٨٨٠ - ٨٨١ .

كانت كورة رُيه Rejio تضطرم إذ ذاك بالثورة ضد الدولة ، فقد تعسف عاملها فى مطالبة أهلها ببقايا الخراج ، فانتهز عمر الفرصة واستمالهم إليه ، وارتحل ببعضهم إلى جبل بُبَشْتَر Bobastro ، واستقر بحصن رومانى قديم ، يقع على مقربة من السهل الكبير الذى يمتد حتى مدينة قرطبة .

لما فشل عمال الدولة فى مواجهة ابن حفصون ، توجه إليه الوزير هاشم بن عبد العزيز فى سنة ٢٧٠/٨٨٣ ، ونجح فى إنزاله من حصنه وقدم به إلى قرطبه، وعفا عنه الأمير محمد ، لما رأى من شجاعته وألحقه بجيشه ، وأرسله مع ولده المنذر فى بعض حروبه ، وبعد عودة عمر إلى الحضرة ، عومل معاملة سيئةً من صاحب المدينة ، فغادرها سراً إلى ببشتر وعاود العصيان .

فى سنة ٨٨٦/٢٧٣ مات الأمير محمد ، وولى ولده المنذر ، وفى عهده الذى دام سنتين بسط عمر بن حفصون سيطرته على كورة رية كلها ، وأثار فى الأهلين من نصارى مولدين روح العصبية ضد العرب ، فخرج إليه المنذر فى سنة ٨٨٧/٢٧٤ وحاصره ، إلا أنه مرض إبان الحصار ومات ، وخلفه أخوه عبد الله الذى انتقل إلى قرطبة مصطحباً جثمان المنذر .

يرتبط عهد الأمير عبد الله بازدياد خطر الفتنة ، فقد ضم ابن حفصون إلى جانبه عامة الثوار المولدين فى كوررية وإلبيرة وجيان ، واتصل بنصارى قرطبة ، كما اتصل بالخلافة العباسية عن طريق الأغالبة صنائعها فى إفريقية ، لكن اضطراب أمور هؤلاء ، شغلهم عن عون ابن حفصون .

فى السنوات الثلاث الأولى لولاية الأمير عبد الله ، دارت بينه وبين عمر بن حفصون عدة مناوشات تبادل الإثنان خلالها مدينة إستجة الهامة التى تعد مفتاح العاصمة ، إلى أن وقعت المعركة الأساسية عند حصن بلاى فى ٢ من صفر ١٦/٢٧٨ من يونيو ٨٩٠ ، وكان أحمد بن أبى عبدة يقود جيش الدولة الذى بلغ عدده ثمانية عشر ألفاً ، بينما كان مع ابن حفصون ثلاثون ألفاً ، وأسفرت المعركة عن هزيمة الثائر ، وتراجعه إلى حصن بلاى ، لكنه وجد معظم أصحابه قد انفضوا عنه ، ففارق الحصن وانسحب جنوباً ، وطارده الأمير عبد الله إلى معقله فى ببشتر ، ثم عاد إلى قرطبة .

فى سنة ٨٩٩/٢٨٦ طرأ تطور خطير على الصراع بين الحكومة الإسلامية وعمر بن حفصون ، إذ أنه أظهر النصرانية ،ولم يلبث أن اتصل بملك ليون فى الشمال ، ولم تسفر هذه الإتصالات عن نتيجة واضحة ، والأهم أنه اتصل بالفاطميين فى المغرب الأقصى ، وصارت سفنهم تبحر من العدوة إليه محملةً بالزاد والعتاد ، الأمر الذى دفع الناصر لدى ولايته إلى الترصد لها ، وأحرق عدداً

منها ، كما شحن مراكبه بالأسلحة والعدد والنفط ، وجعلها تتجول قرب الساحل ، لمراقبة ما يأتى من البر الآخر .

قاد عبد الرحمن فى أعقاب ولايته ٩١٢/٣٠٠ عدة حملات ضد عمر ابن حفصون ، واستخلص بعض حصونه فى كورتى إلبيرة ورية ، كما التقى به قرب طُرُّش Torrox ، وأنزل به الهزيمة .

نتيجةً للضربات العديدة التى وجهتها الدولة لعمر بن حفصون ، فإنه جنح إلى السلم فى سنة ٩١٦/٣٠٣ إلى أن مات فى سنة ٩١٨/٣٠٥ .

خلف ابن حفصون ولده جعفر فسليمان ثم حفص وفى عهد هذا الأخير ضيق الناصر حصاره عليه فى ببشتر إلى أن استسلم فى ٢٣ من ذى القعدة ٣١٥ / ١٧ من يناير ٩٢٨ ، وقدم على الناصر فى قرطبة ، فصفح عنه وصيره فى حاشيته ، ثم أرسل كتاباً إلى أقطار الأندلس بالفتح ، أمر بقراءته فى الجوامع .

الفصل السابع
عصر الخلافة الأموية

١ - الناصر والمستنصر :

ولى عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله ، بعد وفاة جده الأمير عبد الله فى سنة ٩١٢/٣٠٠ ، وبولايته بدأ عصر جديد ، بلغت الأندلس خلاله ذروة مجدها ، وقد استمر هذا العصر ، حتى نهاية القرن الرابع الهجرى .

لدى ولاية عبد الرحمن ، كانت البلاد ما تزال تعيش الفتنة الكبرى التى عمتها جميعها وكان على عبد الرحمن أن يضع حداً لها . وكانت سياسته تجاه زعمائها تتسم بأقصى درجات العنف ، حتى يهلك الثائر أو يقر بطاعته ، فيبقيه الناصر حيث هو ، على أن يأخذ رهائنه ، وقد يكونون بعض ولده ، وأحياناً كان يؤمنه ، ويستنزله من حصونه ، فيأتى إلى قرطبة ويكرمه ، وقد يصير فى قواده وكبار رجاله .

هكذا نجح الناصر فى أن يقضى على الثورة فى أرجاء الأندلس ، ودخلت جيوشه ببشتر فى سنة ٣١٥هـ وبَطَلْيوْس Badajoz فى سنة ٣١٨هـ وطليطلة فى سنة ٣٢٠هـ .

رغماً عن شغل الناصر فى سنوات حكمه الأولى بالفتنة الكبرى ، إلا إنه لم يغمض الطرف عن الأخطار التى كانت تتهدد بلاده من الفاطميين فى المغرب جنوباً ، والممالك النصرانية فى إسبانيا شمالاً .

تطلع الفاطميون إلى أن يدخلوا المغرب الأقصى فى حوزتهم ، وكانوا يشعرون أنهم بسعيهم هذا لا بد وأن يدخلوا فى صراع مع الأمويين بالأندلس ، لأن الاستيلاء على المغرب الأقصى ، يعد تهديداً للوجود الأموى نفسه ، لذلك

فكروا فى أن ينقلوا المعركة إلى شبه الجزيرة ، ولجئوا إلى تأييد الثوار الخارجين على بنى أمية ، بخاصة عمر بن حفصون ، فلما اخفقوا صاروا يرسلون بعض رجالهم إلى الأندلس ، من أجل الدعوة إلى مذهبهم ، ومن أجل التجسس على دولة خصومهم . ورد الأمويون على الفاطميين بأن أرسلوا هم بدورهم إلى بلاد المغرب جواسيس، أعانهم فى مهامهم وجود جماعات أندلسية ، على طول الساحل المغربى ، تقيم منذ سنوات طويلة ، وكانت على معرفة بأحوال البلاد .

تصاعد الموقف ، عندما أعلن عبد الرحمن نفسه خليفةً فى سنة ٩٢٩/٣١٦ ، وتسمى بالناصر لدين الله ، وكان معنى إعلانه هذا ، أنه ينكر على الفاطميين إدعاءهم هذه الخلافة نفسها ، إذ لا يستقيم وجود أكثر من خلافة واحدة فى وقت واحد فى الفقه الإسلامى المعاصر .

أضحى لا مفر من الصدام المسلح ، ومهد الناصر لذلك ، بأن عنى بأسطوله، وابتنى دار صناعة فى الجزيرة الخضراء ، وابتنى كذلك استحكامات دفاعية لدى شواطئه .

انصرف الناصر بعد ذلك إلى اصطناع القبائل البربرية المناوئة للفاطميين ، بخاصة زناتة ، كما انصرف إلى اصطناع الأدارسة ، الذين كان الفاطميون قد أزالوا دولتهم فى فاس ، وأعان الثوار الخارجين على هؤلاء ، ومنهم أبو يزيد الإباضى ، وظلت مساعدات الناصر ترد إلى هذا الثائر ، حتى قريب من نهاية ثورته فى سنة ٣٣٦ / ٩٤٧ . وبذا صار يخطب للناصر على المنابر من تاهرت إلى طنجة .

فى سنة ٣٤٤ / ٩٥٥ رد الخليفة الفاطمى المعز لدين الله (٩٥٢/٣٤١ ـ ٩٧٥/٣٦٥) بأنه أرسل أسطوله من صقلية إلى ألمرية ، وهى القاعدة الأساسية للأسطول الأندلسى ، فدخلت السفن الميناء فجأةً ، وأحرقت ما فيه من سفن .

فى المقابل أمر الناصر قائده غالب بن عبد الرحمن بالإبحار إلى المغرب فى العام التالى . فعاثت سفنه بالسواحل المغربية ، وخربت عدةً من مرافئها .

بعد هذه الاشتباكات البحرية ، أرسل المعز قائده جوهر فى نهاية سنة ٩٥٨/٣٤٧ فى حملة برية إلى المغرب الأقصى ، إلا أنها لم تنجح فى إزالة الأمويين من قواعدهم الساحلية ، ثم إن الزناتيين عاودوا مناوأة الفاطميين ، واستردوا ما سبق أن فقدوه من مواقع .

لم يغفل الناصر كذلك الخطر الذى كان يتهدد دولته ، من ناحية الممالك النصرانية فى إسبانيا .

كانت الأقطار النصرانية فى إسبانيا فى عصر الناصر هى : ليون ، قشتالة نبّرة Navarra برشلونة ، وكونتيات صغيرة لدى سفوح البرتات ، أهمها أرَغونة Aragón .

فى أول صدام بين المسليمن والنصارى ، استشهد القائد أحمد بن محمد ابن أبى عبدة ومعه عدد كبير من المسلمين ، عند التقائه بقوات أُرْدُن الثانى Ordoño II ملك ليون (٩١٠ ـ ٩٢٥) قرب بلدة غُرْماج San Estebán de Gormaz فى ربيع الأول ٣٠٥ / ديسمبر ٩١٧ ، وعلقت رأسه على أسوار المدينة .

كان ابن أبى عبدة أكبر قواد الأندلس فى عصره ، وقام بالدور الأوفى فى مناهضة الثوار الخارجين على الدولة ، لذلك فإن عبد الرحمن سارع فى العام التالى ، وأرسل الحاجب بدر بن أحمد ، ليلتقى بأردن عند متونيه Metonia ، ثم استعاد المسلمون حصن غرماج .

فى سنة ٣٠٨ / ٩٢٠ قاد الناصر بنفسه حملةً كبيرةً إلى مملكتى ليون

ونبرة ، وهزم الملكين مجتمعين فى خونكيرا Junquera ، ووقع فى يديه عدد كبير من الأسرى ، بينهم بعض الأساقفة ، ثم عاد فى سنة ٣١٢/ ٩٢٤ ، واقتحم بنبلونة عاصمة مملكة نبرة ، واضطر ملكها إلى مهادنته .

على أن رُذْمير الثانى Ramiro II ملك ليون (٩٣٠ ـ ٩٥١) عاود ما درج عليه سلفه أردن من عدوان ، فاستولى على حصن مجريط Madrid وهدد طليطلة ، فتجرد إليه الناصر فى سنة ٣٢٧ / ٩٣٩ فى جيش كبير ، والتقى بجيشه وجيش نبرة ، عند أسوار مدينة شنّت منكش Simancas ، لكن المسلمين أصيبوا بهزيمة كبيرة فى هذه المعركة ، لأن الناصر قوّد نجدةَ الصقلبى، مما أغضب الأجناد العرب ، وقعد بعضهم عن القتال ، وتراجع المسلمون عن أسوار المدينة ، ليتساقط عدد كبير منهم فى خندق ، كان النصارى قد حفروه ، ومن هنا فالمعركة تعرف أيضاً بمعركة الخندق Alhandega .

كان وقع الهزيمة شديداً على المسلمين ، وكاد الناصر يفقد حياته بسببها، واستعاد ملك ليون بعض الحصون التى كان المسلمون قد استولوا عليها قبل ذلك . لكن الهزيمة رغماً عن فداحتها ، لم تؤثر كثيراً فى المسلمين ، فعاودوا غزواتهم ، وجعل الناصر غالبًا قائداً للثغر ، وجعل قاعدته مدينة سالم ، واستعاد عالب ماكان النصارى قد استولوا عليه ، وقام بعدة حملات ، وصل ببعضها إلى لك فى قاصية جليقية ، بل إن القائد أحمد بن يعلى جاوز ذلك إلى ساحل المحيط ، واضطر رذمير إلى مصالحة المسلمين ، وتابعه خليفته أردن الثالث Ordoño III (٩٥١ ـ ٩٥٦ م).

استطاع الناصر أن يؤمن جبهته الشمالية ، وسارعت القوى الكبيرة هناك إلى مصالحة ، وصار هؤلاء يلجئون إليه ، كى يفض النزاعات التى كانت تنشأ عندهم . من ذلك أن شانْجُه Sancho ولد رذمير الثانى (٩٥٦ ـ ٩٦٦)

طلب من الناصر ، أن يمده بجيش يعينه ضد أخيه أردن ، وطلب أيضاً أن يرسل إليه طبيباً ، ليعالجه من سمنته المفرطة ، فبعث الناصر بطبيبه اليهودى حسداى بن شبروط ، الذى شفا شانجه من السمنة ، واتفق معه على أن يسلم الناصر عشرةً من حصونه الهامة ، فى مقابل المساعدة العسكرية ، على أن يتم توقيع الإتفاق فى قرطبة ، وبالفعل أتى شانجة ومعه جدته طوطة Toda فى سنة ٣٤٧ / ٩٥٨، واستقبلهما الناصر فى قصره بالزهراء ، وسير بعد ذلك جيشاً إلى ليون ، أعاد شانجه إلى عرشه .

استطاع الناصر كذلك أن يفرض القانون والنظام فى دولته ، وتوخى الحزم فى تعامله مع وزرائه وقواده وولاته ، وكان يأخذ على معاصره أوتو الكبير Otto I ملك ألمانيا (٩٣٦ ـ ٩٧٣م) تهاونه مع هؤلاء ، وقد أبدى هذه الملاحظات لسفير هذ الملك ، حين قدم إليه فى قرطبة .

اهتم الناصر كذلك بالحركة العمرانية ، فابتنى بسفح جبل العروس شمال غربى قرطبة مدينةً ملكية ، دعاها الزهراء ، نسبةً إلى إحدى نسائه ، ماتت عن مال كثير ، وأوصت سيدها أن ينفقه فى افتكاك الأسرى المسلمين ، فلم يجد الناصر أسرى يفتديهم بهذا المال . وقد بدأ إنشاء هذه المدينة فى سنة ٣٢٥/ ٩٣٦ ، وعهد بالإشراف عليها لولده الحكم ، وقد بنيت على درجات ، بكل درجة قسم من أقسامها ، وأعلى الدرجات قصر الخليفة الذى اجتلبت مواد بنائه من نواح شتى بالأندلس وخارجها ، وما تزال بقايا هذه المدينة قائمةً ، ويدعوها الإسبان Medina Zahra .

فى الوقت نفسه لم يغفل الناصر أمر المسجد الجامع بقرطبة ، فأجرى الزيادة الثالثة له فى سنة ٣٤٠ / ٩٥١ ، بحيث تضاعفت مساحته ، ووصل إلى ضفة النهر ، ويعد المحراب الذى أقامه آيةً من آيات الفن الأندلسى الجميل ، كما

إن المئذنة ترتفع ثمانين قدماً .

كذلك امتد العمران إلى مرافق أخرى ، فأنشأ الناصر داراً جديدةً للسكة بقرطبة وتم تجديد قنطرتها ، وكذلك قنطرتى سرقسطة وماردة .

فى أواخر عهد الناصر بدأت تفد إليه سفارات من انحاء أوربا ، منها سفارة من هيو Hugh أول ملوك فرنسا من أسرة كابيه Capet ، ويدعوه المسلمون هوقو، وسفارات من بعض أمراء فرنسا وإيطاليا ومن بابا روما .

على أن أهم هذه السفارات سفارة أوتو ملك ألمانيا وامبراطور الدولة الرومانية المقدسة .

كان بعض المجاهدين المسلمين ، قد تطرقوا بغزواتهم البحرية إلى إقليم پروڤانس فى جنوبى فرنسا ، حيث استقروا منذ سنة ٨٩٠م ، وابتنوا مجموعة من الحصون ، أهمها فَرَخْشَنَيط Fraxinetum واتخذوها قاعدةً لهجمات على جبال الألب وممراتها ، وسببوا إزعاجاً شديداً للأهلين والسلطات الحاكمة جميعاً.

لما كان هؤلاء المجاهدون يعودون فى أصلهم إلى الأندلس ، فإن أوتو وجد من واجبه أن يخاطب الناصر باعتباره مسئولاً عنهم ، وأرسل إليه بسفارة فى سنة ٣٤٢ / ٩٥٣ ، لكن هذه السفارة التى استقبلها الخليفة فى البهو الكبير بمدينة الزهراء ، لم تسفر عن نتائج مرضية ، ولم يعد بد من معاودة نضال هؤلاء المسلمين إلى أن انتهى أمرهم فى سنة ٩٧٥م .

مات الناصر فى ٢ من رمضان ٣٥٠/ ١٥ من أكتوبر ٩٦١ ، وولى مكانه ولده الحكم ، الذى تلقب بالمستنصر .

عاش المستنصر فترة طويلةً فى حياة أبيه ولياً لعهده ، ومع إنه شاركه فى إدارة شئون دولته فى السنوات الأخيرة من حياته ، إلا إنه شغف بالعلم وأهله .

أنشأ الحكم بقرطبة مكتبةً كبيرة ، حوت كتباً كثيرةً فى فنون شتى ، وأقام إلى جوارها معملاً لتجليد الكتب ، كما أقام معامل لصناعة الورق ، خصوصاً بمدينة شاطبة Xátiva ، وبلغ الورق الشاطبى شهرةً كبيرةً فى العالم بأسره .

شجع الحكم حركة الترجمة ، فترجم العديد من الكتب اليونانية واللاتينية، كما شجع العلماء على أن يأتوا إليه ، ومن جملتهم أبو على القالى (ت ٣٥٦/ ٩٦٧) صاحب كتاب الأمالى ، وهو موسوعة فى الأدب أشبه بموسوعات الجاحظ (ت ٢٥٥ هـ) .

ومن العلماء المشهورين فى عهد المستنصر ابن القوطية اللغوى والمؤرخ (ت ٣٦٧/ ٩٧٧) والخشنى المؤرخ (ت ٣٦١/ ٩٧١) والزبيدى اللغوى (ت ٣٧٩/ ٩٨٩) وربيع بن زيد الأسقف النصرانى الذى عرف أيضاً باسمه الإسبانى Recemundo.

كان الحكم ـ إلى ذلك ـ عالماً ، وله مشاركة فى علم الأنساب ، وله مشاركة أيضاً فى علم الحديث ، وأجيزت رواياته ، وكان دقيقاً فى قراءاته ، فكان يعلق على بعض الكتب التى يطلعها ، ويدون تعليقاته بحواشيها ، ويعتبر العلماء تعليقات الحكم أصولاً معتمدة .

نهج المستنصر نهج أبيه فى الاهتمام بالحركة العمرانية ، فقام بزيادة كبيرة لجامع قرطبة ، وأجرى الماء العذب إليه من عين بجبل قرطبة ، واستكمل بناء الزهراء التى استمرت فى عهده مدينةً ملكية .

لم يغفل المستنصر ـ مع ذلك ـ متابعة سيرة أبيه فى مناوأة الفاطميين وموالاة زناتة ، على أن الأدارسة حاولوا استعادة ملكهم المفقود ، فقاموا بثورة تزعمها الحسن بن قنون، وقطعوا الدعوة للأمويين، واحتلوا طنجة وتطوان وأصيلا .

أرسل المستنصر فى سنة ٣٦١/ ٩٧٢ قواته ، فاستولى على طنجة ، وهرب ابن قنون إلى حصنه المعروف بحجر النسر ، حيث حوصر إلى أن استسلم للقائد غالب فعاد به إلى الأندلس فى سنة ٣٦٣/ ٩٧٤ ، وجعل المستنصر على المغرب جعفر بن على بن حمدون المعروف بابن الأندلسى .

على أن المستنصر واجه متاعب من المجوس (الفايكنج) الذين عادوا مرة أخرى إلى الساحة الأندلسية .

كان ملك فرنسا أقطع هؤلاء أحد أقاليمه الغربية توقياً لشرهم ، ودعى هذا الإقليم بنورماندیا ، نسبة إلى هؤلاء النورمانديين (الشماليين) ، وبعد فترة من مقامهم هناك عادوا - وقد صارو نصارى - إلى ممارسة نشاطهم فى مياه الأندلس الغربية .

على أن المسلمين اتخذوا أهبتهم لاستقبال هؤلاء القراصنة ، لذلك فعندما اغاروا على قصر أبى دانس Alcácer do Sal فى سنة ٣٥٥/ ٩٦٦، وقتلوا عدداً من المسلمين وأسروا عدداً آخر ، فإن الأسطول الأندلسى ، تمكن من اللحاق بهم ، عند مصب وادى شِلْب Silves ، وهزمهم واسترد من كان معهم من الأسرى ، وإذا كان النورمان قد عاودوا الإغارة فى سنتى ٣٦٠/ ٩٧١، ٣٦١/ ٩٧٢ ، فإنهم لم يستطيعوا النزول إلى السواحل الأندلسية بفضل يقظة المسلمين .

أما عن الممالك الإسبانية ، فإن شانجه ملك ليون الذى أعانه الناصر فى استرداد عرشه ، رفض لدى ولايته أن يبر بعهده ، ويسلم الحصون المتفق عليها، وعقد حلفاً مع ملك نبرة وقومس قشتالة وقومس برشلونة .

رد الحكم فى سنة ٣٥٢/ ٩٦٣ بأن قاد بنفسه حملة اقتحمت قشتالة واجتاحتها ، ثم انتقلت منها إلى نبرة ، فهرع شانجه إلى ملك نبرة غرسية García

(٩٢٦ ـ ٩٧٠ م) واتحد معه فى قتال المسلمين ، لكن الحكم أصاب الحليفين بالهزيمة ، وبعث بقائده غالب وغيره من القواد إلى أن وصلوا إلى سفوح البرتات ، واستمرت هذه الحرب سنتين ، عاد بعدها ملوك إسبانيا لطلب الصلح ، وأتت رسلهم إلى قرطبة ، واستقبلهم الخليفة فى مقره بالزهراء مثلما كان يفعل أبوه .

ومن أجل أن يكرس المستنصر الأمن لدى حدوده الشمالية ، جعل للثغور جيشاً خاصاً بها مركزه مدينة سالم ، وبعض أقسامه فى المدن الأخرى الهامة كمجريط ووادى الحجارة Guadalajara وغرماج ، وحرص على إمداده بالمؤن والأسلحة ، فى حين جعل بالحضرة جيشاً آخر ، مركزه فى مدينة الزهراء ، يقوده الخليفة بنفسه ، أو ينيب عنه من يرى من رجاله .

ومثلما كانت الحال مع أبيه ، جاءت إلى المستنصر سفارات من ملوك أوربا، وبينهم أوتو الثانى ملك ألمانيا (٩٧٣ ـ ٩٤٤) ويوحنا الشمّيشِق Tzimiskes (٩٦٩ ـ ٩٧٦م) ملك الروم .

فى سنة ٣٦٥ / ٩٧٦ شعر الحكم المستنصر باقتراب أجله ، فدعا كبار رجال دولته وأخذ بيعتهم لولده هشام ، وكان ما يزال صبياً ، ومات بعد شهور قليلة فى العام التالى .

2 ـ الدولة العامرية :

لدى وفاه المستنصر ، انقسم رجال دولته إلى قسمين ، فمال العسكريون بزعامة فائق وجؤذر من الصقالبة إلى تنحية هشام لصغر سنه ، وتولية عمه المغيرة ، ومال الوزراء بزعامة الحاجب جعفر ومحمد بن أبى عامر إلى تنفيذ وصية المستنصر . وتحققت الغلبة للفريق الأخير ، وقتل المغيرة على يدى ابن أبى عامر،

وولى هشام وتلقب بالمؤيد بالله .

خضع الخليفة الصغير لسيطرة أمه ، وكانت جارية بشكنسية ، حظيت عند الخليفة المستنصر وأسلمت ، فتزوجها وتحول اسمها من أورورا Aurora إلى صُبْح ، وأعانها فى وصايتها على ولدها محمد بن أبى عامر .

ينتمى محمد بن عبد الله بن عامر بن أبى عامر إلى أسرة عربية يمانية ، وفدت إلى البلاد إبان الفتح ، ودرس فى جامع قرطبة ، ثم انخرط فى سلك القضاء ، وبلغ خبره السيدة صبح ، وكانت فى حاجة إلى شاب كفء يدير أملاكها الخاصة فاستخدمته ، وسعت لدى زوجها المستنصر ، فأتاح له الفرصة للصعود فى مناصب الدولة ثم سعت لدى ولدها المؤيد ، فجعله معاوناً للمصحفى جعفر فى تدبير خطة الحجابة .

انصرف ابن أبى عامر إلى أن ينفرد بالسلطة ، فتخلص من الصقالبة المناوئين له ، وأتى بصقالبة غيرهم ، عرفوا بالفتيان (أو المماليك) العامرية ، وعقد صلات طيبةً مع القائد غالب صاحب الثغر وتزوج ابنته ، فقوى أمره واستطاع أن يستصدر أمراً من الخليفة بعزل المصحفى ، وزج به فى السجن ، فظل به إلى أن مات .

بعد ذلك انقلب ابن أبى عامر على صهره غالب ، واستعان عليه بأجناد مغاربة ، يقودهم جعفر بن حمدون ، واضطر القائد الكبير - وقد صار شيخاً كبيراً - لأن يتصل بملوك إسبانيا النصرانية ، وفى سنة ٣٧١/ ٩٨١ ، وقعت المعركة الفاصلة بين الرجلين ، وانتهت إلى هزيمة غالب وقتله ، ثم انقلب ابن أبى عامر بعد ذلك على حليفه ابن حمدون واحتال عليه وقتله .

انفرد محمد بن أبى عامر بالسلطة ، وصار حاجباً للخليفة ، واتخذ لقد المنصور ، ودعى له على المنابر ، ونقش اسمه على السكة ، وفى سنة ٣٨٦/

٩٩٦ أضاف إلى ألقابه لقب الملك الكريم ، وبذا ظهرت فى رحم عصر الخلافة دولة جديدة ، دعيت بالدولة العامرية .

كان المنصور يدرك أن أهل الأندلس ينظرون إليه على أنه مغتصب للسلطة من أصحابها الشرعيين بنى أمية ، كما كان يدرك أنه وصل إلى هذه السلطة بوسائل غير كريمة ، لذا كان حريصاً على أن يؤمن نفسه ، فابتنى فى سنة ٣٦٨/ ٩٧٨ مقابل الزهراء مدينةً جديدةً دعاها الزاهرة ، صارت قاعدةً له ، يدير منها شئون دولته ، بينما الخليفة محجور عليه فى الزهراء .

انصرف المنصور بعد ذلك إلى البطش بالأقوياء من أبناء البيت الأموى أو ابعادهم ثم أجرى إنقلابا فى نظام الأجناد ، فبعد أن كان هذا النظام يقوم على أساس القبيلة العربية ، جعل الجند الواحد يضم أفراداً ينتمون إلى عدة قبائل ، وبعد أن كانوا يعتمدون فى معاشهم على إقطاعاتهم ، جعلهم يعتمدون على رواتب يؤديها لهم مشاهرةً .

إلى جانب ذلك بدأ المنصور فى استقدام البربر من العدوة المغربية ، وأضحى كلفاً بهم وأجزل عطاءهم ، كما استقدم الصقالبة ، وكانوا أكثر ولاءً ، لأنهم لم تكن لهم عصبية ، ولم يعرفوا ولاءً إلا لسيدهم .

عكف المنصور على استمرار حال الاستقرار التى سادت فى عصر الناصر والمستنصر ، وقد حقق نجاحات كبيرةً فى هذا الصدد ، وأثبت أنه رجل دولة قدير ، واهتم اهتماماً واسعاً بالقضاء وأظهر صرامةً فى تطبيق أحكامه ، ولو كانت ضد بعض ولده ورجال دولته . وسار على نهج أسلافه من بنى أمية ، فقام بعدة إنشاءات ، بينها مدينة الزاهرة ، كما عنى بالطرق التى تربط قرطبة بسائر أنحاء الدولة ، وأنشاء قناطر سهلت الوعر منها ، وقد يسرت هذه الطرق عبور حملاته العسكرية داخل الأندلس وخارجها .

لم يغفل المنصور أمر المغرب ، فاستطاع أن يدخل فى طاعته البلاد من سجلماسة جنوباً إلى تلمسان وتاهرت شمالاً وشرقاً ، واصطنع بعض أمراء البيت الزيرى الحاكم فى إفريقية ، فوفد إليه زاوى بن زيرى وأولاده فى سنة ٣٩١/ ١٠٠١ ، ورحب المنصور بهم .

على أن المنصور واجه حركةً من قبل الأمير الإدريسى الحسن بن قنون الذى غادر الأندلس ، ولحق بالفاطميين فى مصر ، حيث حفزوه إلى أن يعود إلى المغرب ، ويستعيد ملك آبائه . وقد استطاع ابن قنون أن يستميل فى سنة ٣٧٣/ ٩٨٣ بنى يفرن وغيرهم من قبائل زناتة ، فواجهته جيوش المنصور وقبيلة مغراوة الزناتية ، واضطر لأن يعلن استسلامه بعد سنتين ، وطلب الأمان من المنصور ، لكنه أبى أن يعطيه إياه وأمر بقتله .

كان لتأييد زيرى بن عطية المغراوى للمنصور ضد ابن قنون أثره فى أن ولاه المغرب ، لكنه زينت له نفسه الإنفراد بالأمر هناك ، فأرسل المنصور إليه مملوكه واضحاً ثم ولده عبد الملك ، ودارت معارك قرب طنجة ، أفضت عن هزيمة زيرى ، وإصابته بجراحات وهربه إلى الصحراء ، حيث مات بعد قليل ، وولى واضح فى سنة ٩٩٩/٣٨٩ حكم المغرب .

على أن أكبر إنجازات المنصور هى حربه ضد ممالك الشمال النصرانية ، وقد اتخذت هذه الحرب هيئة صوائف وشوات ، قادها المنصور بنفسه ، وزاد عددها على الخمسين لم يهزم فى إحداها ، وكان من عادته أن يجمع ما علق بوجهه من غبار هذه المعارك فكان الخدم يأخذونه عنه بالمناديل ، حتى اجتمعت لديه صرة ضخمة ، عهد بتصييرها فى حنوطه عند موته ، وفى الوقت نفسه كان يحمل معه كفنه من غزل بناته .

لا نستطيع هنا أن نعرض لهذه الغزوات كافة ، على أن أهمها غزوته الثامنة

والأربعون فى سنة ٣٨٧/ ٩٩٧ إلى مدينة شنّت ياقُب Santiago de Compostela ، وتلى هذه المدينة فى نفوس الإسبان مدينة القدس ، ويلى ياقُب (يعقوب) فى نفوسهم المسيح عليه السلام ، وكان هدف المنصور أن يضرب الإسبان فى صميم زعامتهم القومية والدينية .

كانت الحملة بريةً بحرية ، بلغت بالمسلمين مدينة شنت ياقب ، فوجدوا أهلها قد هجروها ، فأمر المنصور بتدميرها وكنيستها الجامعة ، لكنه حافظ على مقام القديس يعقوب ، ووكل به من يحفظه ، ثم غادر المدينة ، وسار حتى ساحل المحيط، ثم اتخذ طريق العودة وقد حمل معه الأسرى والغنائم ، ومن بينها أبواب الكنيسة ونواقيسها ، وقد استخدمت الأبواب فى تسقيف الجزء الذى زاده فى جامع قرطبة ، واستخدمت النواقيس ثريات له .

حققت هذه الغزوات شعبيةً كبيرةً للمنصور فى أنحاء الأندلس وغير الأندلس، وأسهمت فى الرخاء العام الذى ساد البلاد بسبب ما أتى به من غنائم وافرة وسبى ، كما أسفرت عن امتداد حدود الأندلس شمالاً ، على حساب النصارى ، بحيث صارت هذه الحدود قريبةً مما كانت عليه فى عصر الولاة .

أحرز المنصور مكانةً كبيرةً بين حكام عصره ، وأتته سفارات من ملوك أوربا، ومنهم باسيل الثانى (٩٢٦ ـ ١٠٢٥ م) إمبراطور الدولة الشرقية (دولة الروم) وأوتو الثالث (٩٩٤ـ ١٠٠٢ م) إمبراطور الدولة الرومانية الغربية (ألمانيا) .

أما حكام شبه الجزيرة ، فإنهم صاروا أفصالاً تابعين لحضرة قرطبة ، وسعوا جميعهم إلى مرضاة سيدهم المنصور ، فأصهر شانجه غرسية Sancho Gárces II ملك نبرة (٩٧٠ ـ ٩٩٤م) إليه وزوجه ابنته التى اسلمت وتسمت عبدة ، وأنجبت للمنصور ولده عبد الرحمن ، الذي اشتهر فيما بعد بشنجول Sanchuelo .

مات المنصور فى عوده من الغزو فى سنة ٣٩٢/ ١٠٠٢ ، ودفن بصحن قصره

فى مدينة سالم ، ونقش على قبره هذان البيتان :

آثاره كنبيك عن أخبـاره حتى كأنك بالعيون تـراه
تالله لا يأتى الزمان بمثله أبداً ولا يحمى الثغور سواه

أما المصادر النصرانية ، فقد وردت بها هذه العبارة « فى سنة ١٠٠٢ مات المنصور وألحد فى جهنم » .

لدى وفاة المنصور خلفه فى الحجابة ولده عبد الملك الذى اتخذ لنفسه لقب المظفر ، ولما كان أبوه قد خلف له دولةً مستقرةً ، فإنه أقبل على ملذاته ، لكنه لم يغفل واجباته ، فأظهر العدل وأظهر الميل إلى العلماء ، وعندما تحرك بعض أبناء البيت الأموى ضده لم يتردد فى نفيهم إلى المغرب .

أما فى سياسته الخارجية ، فإن زعماء زناتـة ، وعلى رأسهم المعز بن زيرى ابن عطية المغراوى دانوا له بالطاعة ، فولاه المغرب ، بدلاً من قائده واضح ، على أن يؤدى مقـادير معينةً من الأموال والخيل ، وتابـع سياسـة أبيه فى الترحيب بالبربر ، وخصوصاً زاوى بن زيرى الصنهاجى وولده ، وجعل مقامهم فى نواحى غرناطة .

واصل المظفر سياسته أبيه الجهـادية ، فقـام بعدة غزوات إلى الممـالك النصرانية ، وصل بعضها إلى سفوح البرتات ، وحمل حكام هذه الممالك على أن يجددوا الولاء له ويحكموه عندما كانت تنشأ بينهم نزاعات .

أتت المظفر كذلك سفارات من ملوك عصره ، منهم باسيل ملك الروم الذى أصحب هديته إليه عدداً من الأسرى المسلمين الذين وقعوا فى يديه بالمشرق .

على أن المظفر مات ، وهو بعد شاباً فى عوده من غزوته السابعة والأخيرة

فى سنة ٣٩٩/ ١٠٠٨ ، ولم يكن قد أكمل سبع سنوات من حكم القصير ، وخلفه أخوه عبد الرحمن شنجول الذى تلقب بالناصر .

تذهب بعض الروايات إلى أن عبد الرحمن هذا كانت له يد فى موت أخيه عبد الملك ، ولم تكن حاله حال أبيه ولا حال أخيه ، إذ كان شاباً طائشاً مغروراً، هيأ له غروره ، أن يرغم الخليفة المحجور عليه ، بأن يجعله ولى عهده ، مما أدى إلى أن تحاك المؤامرات ضده ، وشاركت الذلفاء أم عبد الملك فى هذه المؤامرات ، فاتصلت بنفر من شباب بنى أمية ، وعلى رأسهم محمد بن هشام بن عبد الجبار ابن عبد الرحمن الناصر .

انتظر هؤلاء حتى حانت الفرصة المناسبة ، وهى خروج عبد الرحمن شنجول إلى الغزو ، وما كاد جيشه يغادر الحضرة ، حتى هاجم ابن عبد الجبار القصر ، وقتل نائبه عبد الله بن أبى عامر ، وأرغم هشاماً المؤيد على أن يعتزل الخلافة ، وبويع ـ من ثم ـ باسم المهدى ، ولم يلبث أن هدم قصور الزاهرة وأحرقها .

لم يوفق شنجول فى غزوته ، واتخذ طريق عودته إلى عاصمته ، ولدى حلوله بطليطلة ، وصلته أنباء الإنقلاب ضده ، ونصحه مولاه واضح صاحب الثغر بأن يبقى فى مكانه ، لكنه أصر على العودة ، وعندما اقترب من قرطبة ، تخلى عنه زعماء البربر خوفاً على أولادهم وذويهم المقيمين بالمدينة ، وأضحى عبد الرحمن فى قلة من أصحابه ، وسرعان ماظفر به أعداؤه ، عند دير بضواحى العاصمة ، وقتل فى ٣ من رجب ٣٩٩/ ٣ من مارس ١٠٠٩، ولم يكن قد بقى فى منصبه ثلاثة شهور ... وبموته انتهت الدولة العامرية .

3 ـ سقوط الخلافة الأموية :

كانت خلافة المهدى تعنى أن السلطة فى البلاد صارت سلطةً واحدةً ، ولم يعد الحاجب ـ كما كانت الحال قبلاً ـ هو صاحب السلطة الفعلية ، لكن هذا الشكل الظاهرى للوحدة ، أخفى وراء دولةً ، بدأت رحلة أفولها ، واستغرقت هذه الرحلة نيفاً وعشرين سنةً .

كان نجاح المغامرة التى أقدم عليها المهدى حافزاً ، لأن يسعى غيره من أبناء البيت الأموى إلى مثلها ، بل إن الدور الذى سبق أن قام به العامريون فيما مضى سعى غيرهم من الصقالبة والبربر لأن يقوموا به .

بدأ المهدى عهده بأن أساء إلى البربر وزعيميهم زاوى بن زيرى ، كما أساء إلى الصقالبة العامريين ، وأرغمهم على مغادرة قرطبة إلى شرقى الأندلس ولم يقف معه سوى واضح صاحب الثغر الذى بعث إليه كتاباً بالطاعة .

عندما تجمعت عناصر السخط ضد المهدى ، استثمرها سليمان بن الحكم ابن سليمان بن عبد الرحمن الناصر ، فتزعم البربر ومضى بهم إلى الثغور ، وبويع باسم المستعين ، ثم زحف إلى قرطبة ، وبالقرب منها ، دارت معركة أسفرت عن انتصاره ودخول البربر المدينة فى سنة ٤٠٠/ ١٠٠٩، حيث عاثوا فيها فساداً ، وقتلوا كثيراً من أهلها ، وأضحى زاوى بن زيرى أثيراً عند المستعين.

استمرت الحرب سجالاً بين المهدى والمستعين ، واتحد الأول مع قومس برشلونة واتحد الآخر مع قومس قشتالة ، وتبادلا النصر والهزيمة ، وفقد البربر قرطبة ، ثم عاودوا حصارها واشتدوا فيه ، وحاول واضح حل المشكلة بأن يقتل المهدى ، ويبعث برأسه إلى المستعين ، وأعاد الخلافة إلى هشام المؤيد ، ثم حاول أهل المدينة حل المشكلة بأن يقتلوا واضحاً نفسه ، لكن ذلك لم يزد البربر إلا اصراراً على دخول المدينة .

في ٢٦ من شوال ٤٠٣/ ٩ من مايو ١٠١٣ اقتحم البربر قرطبة ، ونشروا الدمار بها ، وقتلوا في أهلها ، وقد عاصر ابن حزم هذه المرحلة ، ووصف واقعة الاقتحام وصفاً مؤثراً ورد في كتابه « طوق الحمامة » .

لم يكتف المستعين بما جرى ، فقتل هشاماً المؤيد ، بعد دخوله المدينة بشهور ، وبذا انتهت حياة هذا الخليفة التاعس الذي لم يمارس يوماً واحداً مهام منصبه .

ترتب على دخول البربر قرطبة ، وسيطرتهم على الخليفة المستعين ، أن اختصهم بالمناصب الكبيرة كالحجابة والوزارة ، وقسم بينهم كور الأندلس ، خصوصاً االواقعة منها بالجنوب ، فبدأت تنشأ دول طوائف شبيهة بدول طوائف أنشأها الصقالبة شرقي البلاد .

كان بنو حُمود وهم من الأدارسة ـ يعدون في جملة البربر ، واختصهم المستعين بسبتة وطنجة وأصيلة والجزيرة الخضراء ، لكنهم لم يقتنعوا بذلك ، بل طمحوا في منصب الخلافة ذاته خصوصاً وإنهم علويون هاشميون ، واستطاع علي بن حمود في سنة ٤٠٧/ ١٠١٦ أن يدخل قرطبة ، وقتل المستعين ، وولي الخلافة باسم الناصر .

توالى على الحكم خلال تسع سنوات ثلاثة من بني حمود ، هم الناصر والقاسم والمعتلي ، وثلاثة من بني أمية ، هم المرتضى والمستظهر والمستكفي . وتداخلت ولايات هؤلاء الخلفاء ، ولم تستقر الأوضاع بعاصمة الدولة ، واستمرت النزاعات التي شارك فيها البربر والصقالبة وأهل قرطبة أنفسهم ، بل إن الحموديين تنازعوا بعضهم ضد بعض .

انتهت هذه المرحلة في سنة ٤١٧/ ١٠٢٦ ، حين انتهز أهل قرطبة فرصة مغادرة المعتلي بن حمود المدينة إلى مالقة ، وفتكوا بالحامية البربرية ، وأجمعوا

على رد الأمر إلى بنى أمية ، وكان عميدهم فى ذلك الوزير أبو الحزم جهور بن محمد بن جهور ، وبايعوا هشام بن محمد بن عبد الله بن عبد الرحمن الناصر خليفةً ، وتلقب بالمعتد بالله .

كان المعتد ـ حين بيعته ـ مقيما بحصن البونت Alpuente ، لكنه تلكأ فى دخول عاصمته ثلاث سنوات ، ثم دخلها فى سنة ٤٢٠/ ١٠٢٩ ، فلم يحسن سياسته بها ، كما لم يحسن اختيار وزرائه ، وتحركت كوامن الثورة فى نفوس أهل قرطبة القُلّب ، فعاودوا الاجتماع فى سنة ٤٢٢/ ١٠٣١ ، ورأسهم أبو الحزم جهور ، واتفقوا على خلع المعتد ، وابعاده وأهله إلى خارج قرطبة ، وابطال رسوم الخلافة جملةً .

بعد قليل نشأت فى قرطبة حكومة أشبه بالجمهورية ، دعيت بحكومة الجماعة ، ولى رئاستها أبو الحزم جهور (٤٢٢ / ١٠٣١ ـ ٤٣٥ / ١٠٤٣)، وكان شيخًا جليلاً ، ورث التقاليد العريقة التى كانت لأسرته ـ وهى من الموالى ـ فى عصور الأندلس الزاهرة ، وبدأ دولةً استمرت حتى دخلت فى ملك بنى عباد أصحاب إشبيلية .

على أن دولة بنى جهور هذه لم تنتظم كل بلاد الأندلس كافةً ، واقتصرت على قرطبة وما جاورها ، وأضحت دولةً من دول الطوائف التى سادت الحياة السياسية فى الأندلس حتى مقدم المرابطين .

الفصل الثامن

عصـر الطوائـف

١ ـ قيام دولة الطوائف :

دول الطوائف تعبير عن تعدد الولاءات السياسية فى شبه الجزيرة ، مقابل ولاء سياسى واحد فى المرحلة السابقة ، هو الولاء للأسرة الأموية .

مجموع هذه الدول نحوٌ من عشرين دولةً ، تفرقت إليها البلاد فى مطالع القرن الخامس / الحادى عشر ، وانتهت الحال بهذه الدول (أو الممالك) إلى سقوطها فى أخريات هذا القرن الواحدة تلو الأخرى فى أيدى المرابطين حكام المغرب ، أو فى أيدى الإسبان ، ونستثنى هنا مملكة سرقسطة التى امتد بها العمر إلى أوائل القرن التالى .

يبدأ عصر الطوائف بنهاية الدولة العامرية فى سنة ٣٩٩/ ١٠٠٩ ... ونتساءل لماذا وخلال سنوات قليلة انتثر عقد الدولة الأندلسية؟ .

فى تقديرنا إن ظاهرة الطوائف هذه كانت تعبيراً عن الخصوصية الأندلسية فى أوجها ، والمنطلق لهذه الخصوصية هو البيئة ــ وهو ما نوهنا إليه فى مفتتح كتابنا ــ وقد اسفرت هذه الخصوصية عن تعددية سياسية ، وهو ما نشاهده من ميول حادة إلى الاستقلال فى عهد الأموية ، والاستقلال ذاته فى عهود ما بعد الأموية ، مما أسفر فى النهاية عن نتائج فادحة على مسار الإسلام فى الإندلس .

على أنه رغماً عن هذه التعددية ، فإن الشعب الأندلسى ، وإن تعددت أعراقه ، إلا إنه كان ــ على نحو عام ــ ينتمى إلى أرومة إسبانية ، ولم يكن العرب ولا البربر ، ولا غيرهم من المسلمين الطارئين سوى أقليات ، تتفاوت فى العدد ، وتتفاوت على نحو أوضح فى مواقعها من السلم الاجتماعى . وبعد فتن داخلية

متعددة ، بدأت فى أعقاب الفتح واستمرت متقطعةً نيفًا ومائتى سنة ، وشارك فيها النصارى الذمة ، كانت العصبية قد هدأت إلى حد بعيد ، ومضى الشعب الأندلسى خطوات واسعة نحو الإندماج ، بحيث جاز أن نتحدث عن شعب أندلسى واحد ، يدين معظمه بالإسلام .

كان هذا الشعب ـ لأسباب كثيرة ـ يشعر بالزهو إزاء أنداده المسلمين بالمشرق ، بل يشعر بالزهو كذلك إزاء أنداده المسلمين بالمغرب ، وتعبر عن ذلك رسالة مشهورة للفقيه الكبير والأصولى أبى محمد بن حزم .

هذا الشعور العارم بالأندلسية كان يؤدى فى أحوال عدة إلى نفور واقع بين الأندلسى وبين المغربى الوافد إليه عبر البحر ، والذى كان وفوده يرتبط على نحو أساسى بمحنة يمر بها رفيقه الأندلسى فى مواجهة نصارى الشمال .

كذلك فإن هذا الشعور كان يؤدى إلى إقامة علاقات تحتية بين مسلمى الأندلس وبين نصارى الشمال ، وهى علاقات فى مجملها طيبة يسودها التسامح، بل إن المسلم المدَجَّن الذى تحول ولاؤه السياسى إلى النصارى ، لم يكن يشعر عادةً بتغيير كبير فى حاله ، خصوصاً وإن جيرانه ومن يتعاملون معه من هؤلاء النصارى ، كانوا على دراية بالعربية أو يتحدثون بها وقد يجيدونها .

الأكثر من هذا ، فقد حارب بعض النصارى مع المسلمين كمرتزقة ، ومن المسلمين من كانوا يفعلون ذلك فيحاربون مع النصارى ، ولدينا مثال واضح فى ملحمة السِّيد .

لم تكن لهذه الخصوصية آثار فادحة إبان الفترة الأموية ، على أن هذه الآثار تبدَّت فيما بعد ، وأعانت الطوائف على تكريسها أو بالأحرى تكريس الجوانب السلبية منها .

ذكرنا إنه حدث انسجام للشعب الأندلسى فى عصر الخلافة ، لكن هذا العصر كان يحمل فى طياته جرثومة فنائه ، فقد كان النظام الحربى ، يرتبط بأبناء الشعب ، وخصوصاً من تحدر منهم من أصل شامى ، وجاور هؤلاء الأجناد أجناد طارئون على الأندلس ، يتحدرون من أهل صقلبى ، أو من بربرة العدوة ، وكانت الاستعانة بهؤلاء الغرباء تتم على نحو ثانوى فى الفترة السابقة ، لعصر الخلافة ، لكنها وضحت فى هذا العصر ، وامتد الأمر إلى الاستعانة بأجناد نصارى من الأندلس أو من ممالك الشمال ، سيّما فى عهد المنصور بن أبى عامر .

نتج عن استقدام الغرباء وترفيعهم على أهل الأندلس فوران اجتماعى ، عبرت عنه الحركة الشعوبية التى تأخرت فى الأندلس عنها بالمشرق ، ومن مظاهرها رسالة ابن غَرْسيَّة المشهورة فى تفضيل العجم .

نتج أيضاً عن استقدام هؤلاء نفور أجناد الأندلس الأصليين منهم ، هذا النفور الذى يتضح أثره فى وقعة الخندق (٩٣٩/٣٢٧) وقد هزم فيها الخليفة الناصر هزيمةً كبيرةً ، ومع ذلك فلم يتوقف عن سياسته فى استقدام الصقالبة ، وبلغ عددهم فى مدينة الزهراء وحدها لدى وفاته ٣٧٥٠ عدا النساء .

لم يقف الأندلسيون ـ والعرب منهم ـ صامتين إزاء هذا الانقلاب ، فقد وقعت منهم عدة مؤامرات للتخلص من الصقالبة ، كانت إحداها مؤامرةً كبيرةً ، قمعها المظفر ولد المنصور ، كما كانت للأندلسيين مجابهات عديدة مع البربر ، أسفرت عن تخريب هؤلاء لقرطبة ، عند اقتحامهم لها فى سنة ١٠١٣/٤٠٣ . ويصور الكاتب المعاصر ابن حزم هذا التخريب فى عبارة مشجية ، وردت بكتابه « طوق الحمامة » .

ويرتبط النظام الحربى بنظام الأرض ، فقد كان هذا النظام يقوم على أساس

إقطاع كور معينة للأجناد العرب يقيمون فيها ، ويقدمون فى المقابل عدداً معيناً منهم ، يتناسب مع حجم الكورة وخطرها ، لكن المنصور فى إجهازه على العصبية العربية ، أجهز على هذا النظام ، وجعل ارتزاق الأجناد ـ وقد أصحبوا فى معظمهم من الغرباء ـ مشاهرةً . وكان هدفه من ذلك أن يشعر هؤلاء بالانتماء إليه ، على أن هذا الشعور تحول بعده إلى إنتماء إلى شخص الحاكم ، وليس إلى الدولة ، وعندما وقعت نزاعات على السلطة ، توزع ولاء هؤلاء الأجناد بين المتنازعين ، ولأنهم لم تكن لديهم إقطاعات ، فقد انصرف همهم إلى نهب العامة ، وشكلوا فى النهاية طبقةً عسكريةً منفصلةً عن الشعب الأندلسى ، وكثير منهم لم يكن يحسن العربية .

على أن ثم خطيئةً أساسيةً إرتكبها المنصور ، ففى غزواته المتوالية إلى دار الحرب ـ وقد بلغت نحو خمسين غزوةً ـ كان يكتفى بالنصر ، وليس بالنصر النهائى ، وهذه حلول وسطية ، أسفرت عن نتائج سلبية ، لأنها استفزت المشاعر الوطنية والدينية عند الجانب الآخر ، ولم ينس النصارى ما فعله معهم فى غزوته الكبرى الثامنة والأربعين فى سنة ٩٩٧/٣٨٧ ، فقد أتى ببعض أسراهم ، يحملون على ظهورهم نواقيس الكنائس وصلبانها وأبوابها من قاصية بلادهم إلى حضرة قرطبة .

خطيئة أخرى ارتكبها المنصور ، هى إن المساحات الواسعة التى استردها من النصارى أو استولى عليها ، وإن صارت جزءاً من دار الإسلام ، إلا إنها فى واقع الحال كانت مناطق عازلة أومناطق منزوعة السلاح ، لم يهتم بتعميرها وتوطينها المسلمين وإذا كان ولده المظفر إبان غزوته لبرشلونة فى سنة ١٠٠٣/٣٩٣ قد شرع فى إصلاح بعض حصونها ، وأغرى المسلمين بسكناها ، مقابل أن يثبتهم فى الديوان ، ويعطى الواحد منهم المنزل والمحراث ، إلا أن ما فعله المظفر كان استثناءً لسياسة عامة قررها أبوه .

فى المقابل درج النصارى لدى استيلائهم على أراض إسلامية على تعميرها، وتوطين بعض العامة والنصارى المهاجرين من الأندلس بها ، ومنحوهم امتيازات صدرت بشأنها براءات ، تملك هؤلاء بموجبها أراضيهم ، وشرعوا ينشئون عدداً من القلاع ، احتشدت بفرسانهم ، ومن هنا أتى مسمى قشتالة ، وهى بلاد القلاع ، كما شرعوا ينشئون أديرةً ، احتشدت برهبان متعصبين ، أسهموا على نحو وافر فى إشعال الروح الصليبية .

2 ـ الطوائف ودورها في ضياع الأندلس :

أسفر قيام الطوائف عن تكريس الطائفية السياسية ، فقد توزعت الأندلس ثلاث مجموعات من الممالك عربية وصقلبيةً وبربرية ، وجنح ملوكها إلى اتخاذ ألقاب ، لم يتخذها قبلهم غير الخلفاء ، ولدينا مثال واضح فى بيتين لشاعر مغربى معاصر هو ابن رشيق القيروانى (ت ١٠٧١/٤٦٣) :

مما يزهدنى فى أرض أندلس   ألقاب معتضد فيها ومعتمد

ألقاب مملكة فى غير موضعها   كالهر يحكى انتفاخاً صولة الأسد

سعى الملوك لأن يكون للواحد منهم بطانة من الشعراء ، يتغنون بفضائله وفضائله مملكته . ولدينا نموذج الشاعر ابن عمار (ت ١٠٨٥/٤٧٧) مع الشاعر الملك المعتمد بن عباد (١٠٦٩/٤٦١ ـ ١٠٩١/٤٨٤) بإشبيلية . وغنى عن البيان إنه إلى عصر الطوائف ، ينتمى القسم الأكبر من تراث الشعر الأندلسى .

إلى جانب ذلك عنى الملوك بالعمائر والإنشاءات التى تخلد ذكراهم ، على أن هذه العمائر والإنشاءات كان ينصرف معظمها إلى غاية ترفية ، وليس ثم ضرورة أساسية لها .

ما دامت الطوائف قد استكملت استقلالها ، فإن كل واحدة منها ، كانت تسعى إلى الحفاظ على هذا الإستقلال من ناحية ، وإلى مد حدود سلطانها على حساب غيرها من ناحية أخرى ، وكان ذلك يتطلب نفقات باهضةً ، فسعى ملوكها إلى إرهاق رعاياهم بالفرائض والأموال . ويشير ابن حزم فى إحدى رسائله إلى إنهم ابتدعوا جزيةً على رءوس المسلمين ، يسمونها قطيعةً وتؤدى مشاهرةً ، وضريبةً أخرى على أموالهم من الغنم والبقر والدواب والنحل ، ورسومًا تدعى القبالات ، تؤدى على ما يباع فى الأسواق ، ويشير أيضًا إلى تسليطهم اليهود فى جباية هذه الأموال ... الأكثر من ذلك إن الملك منهم فى حربه ضد غيره من ملوك الطوائف ، كان يبيح رعية خصم - وهم مسلمون - لجنوده نصارىً ومسلمين .

لم يوقف الملوك عند هذا الحد ، فإنهم فى اصطراعهم مع بعضهم البعض ، سعوا إلى طلب العون من الملوك النصارى ، وكان هؤلاء يؤيدونهم بجنودهم ، فيتمكنون من حرم المسلمين وأبنائهم ورجالهم - على قول ابن حزم - يحملونهم أسارى إلى بلادهم .

لا بد بطبيعة الحال من مقابل ، وكان المقابل فى البداية مالاً ، يؤدى إلى الملك النصرانى ، لم يلبث أن تحول إلى جزية ، يقع عبؤها على الرعايا الأندلسيين ، ثم تحول إلى تنازل عن أراض إلى جانب الجزية .

سياسة التنازلات هذه كانت تؤدى إلى مزيد من الدعم للجهة النصرانية وإلى مزيد آخر من العدوان . وعندما يتوقف ملك من ملوك الطوائف عنها ، فإن عقابه يكون شديدًا ، فقد امتنع المعتمد عن أداء الجزية فى سنة ١٠٨٣/٤٧٥ ، وكان جزاؤه أن اقتحم أذفونش Alfonso VI ملك ليون (١٠٦٥ - ١١٠٩) مملكته ، واخترقها حتى وصل إلى بحر الزقاق ، وخاض بفرسه فى أمواجه .

إلى جانب ذلك فإن ملوك الإسبان وأمراءهم كانوا يستغلون تواجدهم فى مدينة إسلامية ضيوفًا عليها من أجل التجسس ، وكذا كانت حال أذفونش ، حين أقام بطليطلة ضيفًا على ملكها إبان نزعه من ملكه .

الخلاصة إن الأوضاع السياسية العامة فى بلاد الأندلس فى عهد الطوائف كانت غايةً فى التردى .

فى عام واحد هو عام ١٠٦٣/٤٥٦ ـ ١٠٦٤ سقط معقلان هامان فى أيدى النصارى ، هما قلمرية فى شمالى البرتغال الحالية وبَرْبَشْتَر Barbastro فى مملكة سرقسطة . وأثار ذلك شجون ابن حيان (ت١٠٧٦/٤٦٩) مؤرخ الأندلس الكبير ، وهو يعيش آخر أيامه .

فى سنة ١٠٨٥/٤٧٨ وقعت الواقعة ، فقد سقطت طليطلة .

تخاذل ملوك الأندلس ـ باستثناء ملك بطليوس ـ عن نجدتها ، ولم ينصتوا إلى صريخ القاضى أبى الوليد الباجى (ت١٠٨١/٤٧٤) عندما دعاهم إلى الجهاد ذبًا عنها ، وانصرف الواحد منهم إلى أمور مملكته وحدها ، بل إن المعتمد ـ وقد ملأه الرعب من أذفونش ـ لم يوظف هذا الرعب فى مساندة المدينة التاعسة ، ولم يتحرك لمواجهة ملك ليون ، إلا بعد أن تهدد هذا مملكته نفسها ، كما فرض حصاره على سرقسطة .

أحدث سقوط طليطلة هزةً ، عمت أقطار الأندلس .

يقول الشاعر ابن العسال (ت١٠٩٤/٤٨٧) .

حثوا رواحلكم يا أهل أندلس فما المقام بها إلا من الغلط
الثوب ينسل من أطرافها وأرى ثوب الجزيرة منسولاً من الوسط
ونحن بين عدولا يفارقنا كيف الحياة مع الحيات فى سفط [1].

---

(١) مثلما كانت طليطلة واسطة الوطن الأندلسى ، كانت فلسطين واسطة الوطن العربى ... فتأمل .

لم يجد ملوك الأندلس ، إلا أن يطلبوا معونة إخوانهم عبر البحر ، وكانت قد بزغت عندهم قوة صحراوية كبيرة ، هى المرابطون وأميرهم يوسف بن تاشفين (١٠٧٢/٤٦٥ ـ ١١٠٦/٥٠٠) .

فى العام التالى جرت معركة الزلاقة ، وانتصر المسلمون المتحدون ـ أندلسيين ومرابطين ـ على خصيمهم الليونى ، الذى لم يتبق من جيشه البالغ خمسين ألفاً أو نحوها سوى مئات .

لكن ... هل تعلم المسلمون من أخطائهم ، وأفادوا من تجاربهم ؟؟

بعد المعركة مباشرةً ، إنقلب يوسف بن تاشفين إلى بلاده ، وكان بإمكانه ـ إذا أراد ـ أن يسترد طليطلة على الأقل ، لكنه لم يفعل ، ففوت على المسلمين فرصةً عزيزة ، وهيأ لأذفونش الفرصة ، كى يلتقط أنفاسه ، ويبعث فى طلب عون إخوانه النصارى فى شبه الجزيرة وخارجها ... وكان هؤلاء يتهيئون لأولى الحملات الصليبية .

فى الوقت نفسه لم يلبث أن دبت النزاعات بين الأندلسيين ، بعضهم ضد بعض ، وبينهم وبين المرابطين ، بل سعى عدد منهم للاتصال بالنصارى ، ولم يراعوا أن هؤلاء لا عهد لهم ، فلدى استيلائهم على طليطلة ، اقتحموا مسجدها الجامع بعد شهرين ، وحولوه إلى كنيسة جامعة ، بخلاف ما اتفق عليه فى عهد التسليم .

المقارنة مريرة بين موقف المسلمين بعد الزلاقة ، وبين موقف النصارى بعد طليطلة ، فقد استثمر هؤلاء استيلاءهم على هذه المدينة أعظم استثمار ، إذ جعلوها عاصمة لهم ، وكون العاصمة على التخوم مع الأعداء ، يشكل حافزاً لمواصلة النضال .

ظهر أثر ذلك فى تعثر الحملة الإسلامية للاستيلاء على حصن لييط Alé-do فى سنة ١٠٨٨/٤٨١ ، مما دفع يوسف بن تاشفين فى جوازه الثالث ثم فى

جوازه الرابع إلى إزالة ملوك الأندلس فيما عدا ملك سرقسطة .

على أنه مما لا شك فيه أن التفاوت الحضارى بين الأندلسيين والمرابطين – وقد نوهنا إليه من قبل – وإحساس الأندلسيين العارم بخصوصيتهم وتفوقهم ، كان له دوره فى بروز قدر من عدم الثقة المتبادلة بين الجانبين . على أن المرابطين من ناحيتهم تعاملوا مع أهل الأندلس بخشونة ، يوضحها فى جرى للمعتمد ونفيه إلى أغمات ، وحبسه بها إلى أن مات فى الأصفاد ، وما جرى لزوجه وأبنائه وبناته من سبى وتشريد وقتل ، بل إن المرابطين فى اقتحامهم لإشبيلية وغيرها من مدائن الأندلس ، إنصرفوا إلى قتل المواطنين العاديين وسلبهم ونهبهم، وهو ما ينهى عنه الشرع ، مما دفع ابن الأفطس عمر المتوكل ملك بطليوس (١٠٦٧/٤٦٠ ـ ١٠٩٤/٤٨٧) لأن يتنازل لأذفونش عن ثلاث مدن هامة ، مقابل أن يعينه ضد المرابطين ، كما إن أحد أبنائه لجأ إلى الليونيين وأقام عندهم وتنصر .

نتساءل الآن ، وقد انتهت ممالك الطوائف ... ما الذى أسفرت عنه هذه النهاية ؟

النتيجة الأساسية أن الأندلس ـ ورغماً عن موجات مد إسلامية تالية ـ لم يعد إلى ما كان عليه إبان الفترة الأموية ـ ، وصار تابعاً للمغرب ، وتابعاً للمتغيرات السياسية بالمغرب ، وما حفلت به من تناقضات ، وظلت هذه حاله ، حتى قريب من سقوط غرناطة .

3 ـ بعض السمات الحضارية لعصر الطوائف :

مع إننا لا نوافق دائماً على مقولة إن العطاء الحضارى يتلازم طردياً مع الفرقة السياسية ، إلا إننا نلاحظ إن هذا العطاء يرتبط على نحو أساس بعصر الطوائف ، فالنهضة التى عمت مرافق البلاد فى عصر الخلافة كانت قريبة العهد ، واشتد

زخمها مع بزوغ الطوائف ، فقد سعى ملوكها إلى أن يبحثوا عن مبرر لوجودهم، فاستقدموا الشعراء والأدباء والعلماء من كل صوب ، وهيئوا لهم حياةً ناعمة ، تحميهم من غوائل الزمن ، بل إن من هؤلاء الملوك من كانت لهم مشاركة فعالة فى علوم شتى وآداب .

إذا نحن خصصنا وركزنا على الشعر باعتباره فن العربية الأول ، نلاحظ إن معظم ما تناهى إلينا من شعر أندلسى ، يعود إلى هذا العصر دون غيره من عصور، فقد حظى من الملوك بأوفر عناية . كما نشأت ظروف شجعت عليه ، منها شاع من حريات اجتماعية ، وبخاصة فى علاقة الرجل بالمرأة ، ثم توزع الشخصية الأندلسية بين التطرف فى اللهو وطلب متاع الدنيا ، وبين التطرف فى الزهد والانصراف عن هذا المتاع .

وعليه فقد تناهت إلينا أسماء كبيرة بينها ابن زيدون (ت ١٠٧١/٤٦٣) ابن عمار (ت٤٧٧هـ) ابن اللبانة (ت ٤٨٨هـ) .

أما فى غير ذلك من فنون ، فقد تناهت إلينا أسماء أخرى كبيرة بينها ابن حزم (ت١٠٦٤/٤٥٦) المفكر ، ابن حيان (ت ١٠٧٦/٤٦٩) المؤرخ ، ابن عبد البر (ت١٠٧٠/٤٦٣)/ المحدث ، أبو الوليد الباجى (ت١٠٨١/٤٧٤) الفقيه ، ابن سيده (ت١٠٦٦/٤٥٨) عالم اللغة ، أبو عبيد البكرى (ت١٠٩٤/٤٨٧) الجغرافى ، الزرقالى (ت١٠٨٠/٤٧٢) عالم الفلك وابن وافد (ت ١٠٧٤/٤٦٦) عالم النبات .

الفصل التاسع

عصــر المرابطين والموحدين

١ ـ عصر المرابطين :

كان يوسف بن تاشفين (١٠٧٢/٤٦٥ ـ ٥٠٠ / ١١٠٦) قد سيطر على المغرب الأقصى والصحراء ، وامتد بهذه السيطرة إلى شطر المغرب الأوسط ، وكان لديه شعور قوى بانتمائه إلى أمة إسلامية واحدة ، مهما تناءت أقطارها ، ومن ثم فالجهاد فرض وواجب لدفع الأخطار التى تتهدد هذه الأمة فى أحد أقطارها .

لم يجد أهل الأندلس ـ وقد عجزوا عن التصدى للمد النصرانى الكاسح ـ إلا أن يتوجهوا إلى أمير المسلمين ، يطلبون النصرة والمعونة . ووفدت إلى حاضرته مرّاكش جماعات منهم ، وأتاه كتاب المعتمد بن عباد ملك إشبيلية ، كما أتته كتب غيره من ملوك الأندلس .

فى ربيع الأول / يونيو ١٠٨٦ عبر يوسف بن تاشفين وجنوده المرابطون إلى الأندلس ، وانضمت إليه جيوش الطوائف ، وانتهت الجيوش الإسلامية المتحدة فى سيرها إلى سهل يقع شمال بطليوس ، قرب حدود البرتغال الحالية ، ويعرف هذا السهل عند المسلمين بالزَلاّقة ، ويعرف عنه النصارى بـ Sagrajas .

كان أذفونش السادس ملك ليون يحاصر فى هذه الأثناء مدينة سرقسطة ، فرفع الحصار عنها ، وبعث إلى سائر النصارى يستمدهم فهرعوا إلى نجدته ، وانثالت إليه متطوعة من أنحاء إسبانيا وأوربا ، وأكتمل له نحو خمسين ألفاً ، فى حين كان جيشه المسلمين يناهز الأربعين ألفاً .

بدأ النصارى هجومهم فى يوم الجمعة ١٢ من رجب ٢٣/٤٧٩ من أكتوبر ١٠٨٦ ، واشتبكت مقدمتهم بقيادة ألبرهانيث Alvar Fanez

بمقدمة جيش المسلمين بقيادة المعتمد ، واختل نظام المسلمين ، وارتد معظمهم تجاه بطليوس ، ولم يثبت سوى المعتمد وفرسان إشبيلية ، ثم هاجم أذفونش القوات المرابطية ، وردها عن مواقعها ، لكن يوسف بن تاشفين دفع فى ذلك الحين بقواته الإحتياطية ، ليضرب قلب الجيش النصرانى ، ثم هاجم مؤخرته ، وأوقع الفوضى فى سائره ، واستفحل القتل فى النصارى . وكانت الخاتمة عند مغيب شمس هذا اليوم ، هو هجوم حرس يوسف من السودان ، واستطاع أحدهم أن يطعن أذفونش طعنةً نافذة ، مما اضطره ـ ومن تبقى معه ـ إلى أن يتراجعوا والمسلمون فى إثرهم ، ولم ينفذ البقية الباقية منهم إلا هبوط الليل .

أسفرت المعركة عن هلاك الجيش النصرانى الذى لم يبق منه سوى مئات، لاذوا بحياتهم مع مليكهم فى هربه الطويل إلى طليطلة . وليس معنى هذا إن خسائر المسلمين كانت هينةً ، فقد بلغت عدة آلاف ، بينهم عدد من فرسان المرابطين وأبطالهم المعدودين والأندلسيين .

كان النصر فى الزلاقة عظيماً ، وكان من واجب يوسف بن تاشفين أن يسعى لأن يجنى ثمرات هذا النصر ، وأولها أن يسترد طليطلة ، ولا نعرف السبب فى انصرافه عن ذلك ، وربما كان موت ولده وولى عهده الأمير أبى بكر ـ وكان قد استخلفه على مراكش ـ وربما كان ماراعه من عودة الخلافات بين ملوك الطوائف .

عاد أمير المسلمين إلى المغرب ، ولم يلبث أن عاد الاضطراب إلى الأندلس، وعاود النصارى إلى عدوانهم ، فقد كان لهم حصن يقع داخل الأراضى الإسلامية هو حصن لييط Alédo ، ومن هذا الحصن كان يخرج النصارى ـ وعدتهم ثلاثة عشر ألفا بينهم ألف فارس ـ فيعيثون فساداً حولهم ، بينما كان السِّيد القنبيطور El Cíd El Campeador وهورودريجو دياث دى بيبار Don

Redrigo Díaz de Vivar يعيث فى مملكة بلنسية Valencia .

لما كانت الأراضى المجاورة لحصن لييط تابعةً للمعتمد ، فإنه عبر البحر بنفسه إلى يوسف ، وعاود طلب نجدته ، ووعده يوسف بها .

فى ربيع الأول ٤٨١/يوليو ١٠٨٨ عبر يوسف بن تاشفين للمرة الثانية ، وسار بقواته إلى لييط وانتظر أن توافيه جيوش الأندلس ، لكن استجابة ملوكها له كانت محدودة ، فبادر بحصار الحصن ، لكنه لم يسقط فى يديه ، واضطر إلى رفع الحصار ، ويعود أدراجه إلى المغرب .

ومع أن النصارى فى حصن لييط سارعوا بعد انصراف المرابطين إلى إخلائه، لأنهم تبينوا صعوبة الدفاع عنه ، إلا أن يوسف كان قد امتلأ قلبه بالسخط على أهل الأندلس ، ووقع فى يقينه أن من أجل أن يدفع ممالك النصارى ، عليه أولاً أن يقضى على ممالك الطوائف ، ووافقه جمهور من استفتاهم من الفقهاء ، بينهم الإمام الغزالى (ت ٥٠٥ / ١١١١) .

استطاع يوسف بن تاشفين فى عبوره للمرة الثالثة فى عام ٤٨٣/١٠٩٠ ، والمرة الرابعة فى عام ٤٨٤/١٠٩١ أن يزيل معظم هذه الممالك ، وكانت عمليةً محزنةً ، حيث اصطرع المسلمون بعضهم ضد بعض ، وانتهى المعتمد نهايةً فاجعةً فى أغمات .

صارت لأمير المسلمين دولة واسعة ، تمتد من نهر التاجه بالأندلس إلى تخوم السودان ، ونجح قبل موته فى سنة ٥٠٠/١١٠٦ فى أن يسترد قواعد أندلسية كبيرة ، بينها بلنسية ، التى كان السيد القنبيطور قد استولى عليها .

لم يهمل المرابطون فى عهد على بن يوسف بن تاشفين أمر الجهاد ، وخاضوا معارك عديدةً هامةً بينها معركة أُقْليش Uclés فى سنة ٥٠١/١١٠٨ .

اعتقد أذفونش أن موت غريمه يوسف يعنى أن يعاود الظهور بالساحة الأندلسية ، فبعث بحملة عاثت فى إقليم إشبيلية ، مما حفز على بن يوسف ، لأن يرد بأنه أمر أخاه تميمًا والى غرناطة ، فتوجه إلى حصن أقليش ، وهو حصن صار للنصارى بعد سقوط طليطلة ، وضرب الحصار عليه .

أراد أذفونش أن ينجد الحصن ، فأرسل حملةً من سبعة آلاف بقيادة ألبرهانيث أكبر قواده ، ومعه سبعة قوامس ، ومعه أيضًاولده شانجُه Sancho ، وكان صبيًا صغيرًا فى الحادية عشرة من عمره ، وذلك من أجل أن يبعث الحماسة فى جنوده .

لما كان حجم الجيش الليونى كبيرًا ، فإن تميمًا حدثته نفسه بالانسحاب ، لكنه تحت ضغط قواده قرر الصمود ، ودارت رحى معركة كبيرة ، تشبه الزلاقة فى ضراوتها ، وقتل الأمير شانجه ، وقتل معه القوامس السبعة ، لذلك دعيت هذه المعركة التى انتصر فيها المسلمون بمعركة القوامس السبعة La Batalla de los siete condes ، ونتيجةً لها فقد مات أذفونش فى العام التالى غمًا لفقد ولده الوحيد .

فى الوقت نفسه توجهت حملة مرابطية أخرى إلى الغرب ، قادها على بن يوسف نفسه ، حيث كانت مملكة البرتغال فى طور النشأة ، واتخذ الرِّنق (أو الرِّنْك) Enrique de Borgoña . (١١٠٩ ـ ١١٢٦) قلمرية عاصمةً له، فاسترد المسلمون يابُره Evora وأشبونة وشنترين ، ووصلوا فى زحفهم إلى قريب من قلمرية ، ولم يستطع الرنك ـ وكان زوجًا لابنة أذفونش السادس ـ أن يدفع هذه القوات .

لم يغفل المرابطون أمر سرقسطة ، وهى مملكة الطوائف الوحيدة التى كانت خارجةً عنهم ، وكان صاحبها عماد الدولة بن هود قد ارتمى فى أحضان

النصارى ، وأفتى الفقهاء بخلعه ، ونجح المرابطون فى دخول المدينة فى سنة ١١١٠/٥٠٣ ، كما نجحوا فى استرداد الجزائر الشرقية Islas Baliares فى سنة ١١١٥/٥٠٩ .

على أن المسلمين أصيبوا فى سنة ١١١٨/٥١٢ بنكبة كبيرة فى سرقسطة تشبه نكبتهم فى سنة ١٠٨٥/٤٧٨ بفقد طليطلة . فقد انتهز ابن رذْمير ، وهو أذفونش المحارب Alfonso El Batallador ملك أَرَغونة فرصة شغل المرابطين بالبرتغال وحملاتهم إليها ، فاستولى بمعونة صليبية على سرقسطة .

ما كاد أذفونش يدخل سرقسطة ، حتى جعلها عاصمةً له ، وجعلها أيضاً قاعدة لمتابعة غزواته ، فاستولى على تطيلة وطرسونة Tarazona وبورخا Bor-ja وغيرها ، ونشأت بينه وبين المرابطين ، يقودهم الأمير إبراهيم بن يوسف معركة كبيرة فى سنة ١١٢٠/٥١٤ هى معركة قُتُنْدَة Cutanda ، هزم فيها المسلمون ، وقتل عدد كبير منهم ، وفى أعقاب المعركة استولى أذفونش على دروقة Daroca وقلعة أيوب Calatayud وتدافعت حدود مملكته إلى جنوب نهر إبرُه .

كان لما أحرزه أذفونش من انتصارات فى شرقى الأندلس صدىً كبير ، حفزه فى سنة ١١٢٥/٥١٩ لأن يخترق الأندلس من أقصاها إلى أقصاها ، حتى وصل إلى ساحل البحر ، مما يلى غرناطة ، وأيده النصارى المعاهدون فى غزوته هذه بعدة آلاف من مقاتليهم ، وأخفق المرابطون فى التصدى له .

نتج عن نقض المعاهدين لعقد الذمة أن هرب عدد منهم صحبة ملك النصارى فى عوده شمالاً ، وأفتى ابن رشد (الجد . ت ١١٢٦/٥٢٠) بتغريب الباقين ، فرحل معظمهم إلى المغرب ، واسلم بعض هؤلاء ، وعاد بعضهم الآخر إلى الأندلس بعد قيام الموحدين .

ترتب على هذه الغزوة أن طمح أذفونش للاستيلاء على مدينة إفراغة Fra-ga ، وحاصرها حصاراً شديداً ، ورفض عروض أهلها فى أن يدخلها صلحاً .

عندما تنبه المسلمون إلى حقيقة رغبة أذفونش ، فإن على بن يوسف أرسل إلى المدينة جيشاً بقيادة أبى زكريا يحيى بن غانيّة ، ودارت تحت أسوارها معركة كبيرة ، انتهت إلى هزيمة شديدة للنصارى ، تشبه هزيمة أقليش ، وذلك فى سنة ١١٣٤/٥٢٨ ، وكان لهذه الهزيمة أثرها فى موت الملك النصرانى خلال المعركة أو بعدها .

بيد إن المرابطين لم يستثمروا انتصارهم الكبير هذا فى أن يزحفوا إلى سرقسطه ويستردوها ، وهم هنا يكررون الغلطة نفسها التى ارتكبوها قبل خمسين عاماً ، بعد انتصارهم الكبير فى الزلاقة .

كانت معركة إفراغة هى خاتمة المعارك الكبيرة التى خاضها المرابطون فى الأندلس ، لأنهم تفرغوا بعدها لمناهضة الثورات التى قام بها الأندلسيون ضدهم ، وكذا مناهضة الموحدين الذين قاموا ضدهم بالمغرب .

لم ينس الأندلسيون ما فعله المرابطون معهم ، بعد سحق الطوائف ، وما جرى من إذلالهم ، كما صدمهم ما اتسمت به السياسة المرابطية من تزمت ضدهم وتعسف ، حفزهم لأن يقوموا فى سنة ١١٢١/٥١٤ بثورة كبيرة فى قرطبة ، أعلنوها « ذباً عن الحرم والدماء والأموال » ، واقتحموا قصر الإمارة وأحرقوا دور المرابطين ، وأرغموهم على الانسحاب من المدينة .

ومع أن على بن يوسف استطاع لدى عبوره فى العام التالى أن يرد قرطبة إلى الطاعة إلا أن غضب الأندلسيين لم يتوقف حتى فى عهد ولاية ولده تاشفين عليهم ، وقد تعامل معهم على نحو طيب .

عندما ترامت إلى الأندلس أخبار الصراع بين المرابطين والموحدين ، وقعت مجموعة من الثورات فى أنحاء البلاد ، وتزامنت هذه الثورات ، وقام على بعضها قضاة ورجال دين أشهرهم أحمد بن قَسِّى ، وهو زعيم طائفة من المتصوفة دعوا بالمريدين ، تركزت ثورتهم فى جنوبى البرتغال الحالية .

ومثلما حدث فى زمن الطوائف فقد استنصر بعض زعماء هذه الثورات بملوك النصارى ، بخاصة أذفونش السابع Alfonso Raimúndez (١١٢٦ - ١١٥٧) وقد سعى أذفونش هذا - وقد عرف بالقيصر ، وعرف عند المسلمين بالسُلَيْطين - لأن يستعيد أمجاد جده لأمه أذفونش السادس ، واستطاع فى النهاية أن يدخل قرطبة مسانداً لثوارها ، ولم يغادرها إلا عندما علم باستعداد الموحدين لاقتحام الأندلس .

2 - عصر الموحدين :

استطاع عبد المؤمن بن على (١١٣٢/٥٢٧ - ١١٦٣/٥٥٨) بعد سنوات من خلافته ، أن يؤسس للموحدين دولةً كبيرة ، ضمت أقطار المغرب الثلاثة ، كما دفع عدوان النورمان عن إفريقية ، وضرب على أيدى العرب من بنى هلال .

على أن عبد المؤمن لم يغفل النظر عن بلاد الأندلس ، وكان قد كثر بها الثوار ، ودخل بعضهم فى طاعة الموحدين ، وتردد بعضهم الآخر فى دخولها ، أو استمر فى ثورته ، ومن هؤلاء بنو غانيَّة ، وينتمون إلى المرابطين ، وقد انسحبوا إلى دانية Denia ، ومنها إلى الجزائر الشرقية ، ومنهم أيضاً محمد بن سعد بن مردنيش وصهره ابن هَمُشْك فى مرسية ، وأضحى الصراع بين الموحدين وهؤلاء سجالاً .

في هذه الأثناء كانت حركة الاسترداد قد اشتد ساعدها ، واستطاع أذفونش السابع أن يستولى على قورية Coria فى الثغر الأدنى ، كما إن سائر القواعد الهامة فى الثغر الأعلى سقطت الواحدة تلو الأخرى فى يدى مملكة أرغونة ، فى مقدم هذه القواعد طُرطوشة Tortosa ولاردة Lérida وإفراغة ومكناسه Me-quinenza ، والأهم هو استيلاء الحملة البحرية التى شاركت فيها قوات من ليون ونبرة وأرغونة فضلاً عن بيشة Piza وجنوة على ثغر ألمرية الهام فى سنة ١١٤٧/٥٤٢ .

كان هم الموحدين الأكبر هو استرداد ألمرية ، فتوجهت إليها حملة بقيادة عثمان بن عبد المؤمن وشددت الحصار عليها ، وكان يدافع عنها أذفونش السابع وحليفه المسلم ابن مردنيش ، ولما لمس هذا الأخير استبسال الموحدين فى استعادة المدينة ، خجل من نفسه ، وتخلى عن حليفه النصرانى الذى لم يجد بداً من أن يتخلى بدوره عن المدينة ، ويدخلها المسلمون فى سنة ١١٥٧/٥٥٢ ، وقد مات فى السنة نفسها بفجيعته فى فقدها .

إبان شغل الموحدين بشرقى الأندلس ، شرع أذفونش الأول Afonso Henriques ملك البرتغال (١١٢٨ ـ ١١٨٥م) ـ ويعرف عند المسلمين بابن الرِّنْق فى غزو القواعد الإسلامية فى غربى الأندلس فاستولى على شنترين واستعان بعدد من الصليبيين ـ كانوا فى طريقهم إلى الشام ـ فى حصار مدينة أشبونة ، وبعد أن اقتحمها فى سنة ١١٤٧/٥٤٢ ، أعمل السيف فى أهلها ، واسترق من كان على قيد الحياة منهم ، ثم تقدم إلى القواعد المجاورة فاستولى على قصر أبى دانس ، وأخذ يتهدد بطليوس .

عندما تمادى ملك البرتغال فى عدوانه ، تهيأ عبد المؤمن للغزو ، فخرج من مراكش فى جيش كبير يقدره البعض بمائة ألف ، وكان فى تخطيطه أن يتوجه

به إلى الجبهات النصرانية جميعها ، وليس إلى جبهة البرتغال وحدها ، لكن أجله وافاه قبل أن يعبر مضيق جبل طارق فى سنة ١١٦٣/٥٥٨ .

خلف أبو يعقوب يوسف أباه فى حكم هذه الدولة الواسعة فاتجه إلى أن يفيد من التناقض الذى ظهر بين ليون والبرتغال ، فتحالف مع الأولى ، وأفاد من هذا الحلف فى دفع هجوم البرتغاليين على مدينة بطليوس فى سنة ١١٦٩/٥٦٤ .

إنصرف هم الموحدين بعد ذلك إلى خصيمهم ابن مردنيش الذى تحداهم سنوات طويلةً فى شرقى الأندلس ، واستمالوا إليهم صهره ابن همشك ، وما زالوا يضغطون عليه إلى أن ضعف أمره ثم مات فى سنة ١١٧٢/٥٦٧ ، ودخل الموحدون مرسية ، وأعلن بنو مردنيش ولاءهم لهم .

بعد أن هدأ أمر الثوار فى الأندلس ، عاد الصراع مرة أخرى بين الموحدين من ناحية وليون والبرتغال من ناحية أخرى ، ولم يسفر هذا الصراع عن نتيجة حاسمة ، مما جعل الخليفة يتهيأ فى سنة ١١٨٤/٥٨٠ لحملة كبيرة ، وجهتها مدينة شنترين ، لأنها كانت القاعدة التى ينطلق منها البرتغاليون ، لغزو الأراضى الإسلامية .

فى سنة ١١٨٤/٥٨٠ سار أبو يعقوب ومعه جيش يربو عدده على المائة ألف ، ضم إلى جانب الموحدين عرباً هلاليةً ، ومتطوعةً أندلسيين ومغاربة ، وكان أذفونش ملك البرتغال قد استعد لهذه الهجمة الموحدية ، ودارت معارك عنيفة بين الفريقين ، هلك خلالها آلاف من المسلمين والنصارى ، وكادت المدينة تسقط فى يدى أبى يعقوب ، وشرع النصارى يهربون إلى القصبة .

بيد أن الخليفة أمر بعد أيام قليلة من الحصار بالكف عن القتال ، والانسحاب إلى إشبيلية ، ولا نعلم على وجه اليقين السبب الذى حدا به إلى

ذلك ، والأهم أن المسلمين لم يحسنوا تنظيم صفوفهم ، مما جعلهم هدفًا لهجمات مضادة من البرتغاليين ، ومع أنهم قاتلوا ببسالة ، وفتكوا بأعداد كبيرة من خصومهم ، إلا أن خليفتهم أصيب بجراحات خطيرة ، فحمله رفاقه على محفة ، وأسلم الروح قبل أن يصل جيشه إلى إشبيلية .

لدى وفاة أبى يعقوب يوسف ، خلفه ولده أبو يوسف يعقوب الذى تلقب بالمنصور ، ويعد عصره هو العصر الذهبى للدولة الموحدية . وقد بدأ بالتصدى لبنى غانية الذين رفعوا لواء المرابطين ، وسيطروا على الجزائر الشرقية ، وضايقوا الموحدين فى شرقى الأندلس ، ثم قاموا بغزوتهم فى عقر دارهم بإفريقية ، لكن أبا يوسف تمكن من هزيمتهم فى سنة ١١٨٧/٥٨٣ .

انتهز شانجه الأول Sancho I ملك البرتغال (١١٨٥ ـ ١٢١١) هذه الفرصة واستعان بحشود صليبية ، كانت فى طريقها إلى المشرق ، ليستولى على شلْب Silves فى سنة ١١٨٩/٥٨٥ ، ولما كانت هذه المدينة عظيمة الأهمية بالنسبة للمسلمين ، فإن المنصور أعلن الجهاد ، وأتته متطوعة وأجناد وبذا استطاع أن يستردها بعد عامين من سقوطها فى أيدى النصارى .

كانت الحملة إلى شلب مقدمةً لحملة المنصور الكبيرة فى عام ١١٩٥/٥٩١ ، حين عبر إلى الأندلس ، صحبة جيش كبير يناهز المائة ألف من الموحدين والعرب سوى الأندلسيين وتوجه إلى إشبيلية ، ومنها إلى قرطبة ، ثم خرج من هذه المدينة صوب قلعة رباح Calatravá .

عندما ترامت أنباء العبور إلى ملك قشتالة أذفونش الثامن (١١٥٨ ـ ١٢١٤) غادر طليطلة إلى قلعة رباح ، وعسكر فى الأَرَك Alarcos ، وهو حصن من أعمال القلعة .

بدأت المعركة فى يوم الأربعاء ٩ من شعبان ١٨/٥٩١ من يونيو ١١٩٥

بهجوم من القشتاليين على قوات القلب التى يقودها الشيخ أبو يحيى ، معتقدين أن الخليفة هناك ، وكان الصدام شديداً ، لدرجة أن قتل أبو يحيى نفسه . عندئذ تقدمت قبائل العرب والمتطوعة ، وأحاطت بالنصارى من كل جانب ، ومازالوا بهم ، حتى اضطر القشتاليون إلى التقهقر ناحية حصن الأرك ، لكن المسلمين حالوا بينهم وبين ذلك ، واستمر القتل فيهم ثم أحاط المسلمون بحصن الأرك ، يظنون أن الملك اعتصم به ، لكنه كان قد غادره فى بعض أصحابه إلى طليطلة ، ودخل المسلمون الحصن عنوةً ، وافتدى جنوده أنفسهم ، بأن تم إطلاق خمسة آلاف أسير مسلم .

كانت معركة الأرك من المعارك الكبيرة التى نصر الله فيها المسلمين بالأندلس بحيث تعد أختاً للزلاقة ، وكانت نتيجتها المباشرة أن توقف الزحف النصرانى إلى حين . لكن المنصور لم يحسن الإفادة من نتائجها ، فيستعيد طليطلة، وقد كانت الفرصة مهيأةً له ، واكتفى بغزوات محدودة لبلاد النصارى ، ثم اكتفى معهم بعد ذلك بهدنة ، ووافاه أجله فى سنة ١١٩٩/٥٩٥ ، وكان ما يزال شابا لم يبلغ الأربعين بعد .

ولى بعد المنصور ولده عبد الله الذى لقب بالناصر ، وحكم مدةً مماثلةً لمدة حكم أبيه ، ومات مثله شاباً . على أن الناصر لم تتوافر له قدرات المنصور ، ولا مهاراته العسكرية ، ومع أنه تمكن من القضاء نهائيًا على بنى غانية فى الجزائر الشرقية ، وسدد لهم ضربات موجعةً فى إفريقية ، إلا أن أذفونش الثامن ملك قشتالة المهزوم فى الأرك ، لم يلبث أن استرد قواه ، وعاود الإغارة على أطراف الأندلس ، وكانت الهدنة مع المسلمين قد انتهت مدتها .

كان أذفونش قد اعتزم أن يأخذ بثأر هزيمته فى الأرك ، وأيدته البابوية ، كما أيدته الممالك الإسبانية ، وأتاه صليبيون من أنحاء أوربا كافة ، فاجتمع له

جيش كامل العدة يناهز المائة ألف .

خرج أذفونش من طليطلة ، واستولى فى طريقه على قلعة رباح ، وارتد قائدها الأندلسى ابن قادس ، ليلتحق بسيده الناصر ، حيث كان مصيره القتل ، وكان لقتله أثره السيء فى الأندلسيين الذين كانوا يشكلون ميمنة المسلمين ، وكانوا أعرف من سائر المسلمين بغير المسلمين .

تحرك الناصر بجيشه الكبير الذى ربما يصل عدده إلى المائتى ألف من إشبيلية فى اتجاه جيان ، وعسكر فى سهل مجاور لها تكتنفه تلال صخرية (عقاب) ويعرف هذا السهل بالعقاب ، وقربه قرية تدعى تولوسا ، لذا دعيت المعركة عند الإسبان Las Navas de Tolosa .

صباح الاثنين ١٥ من صفر٦٠٩/١٦ من يوليو ١٢١٢ بدأت معركة العقاب بهجوم شنه النصارى على مقدمة جيش المسلمين ، وقد ثبت لهم هؤلاء، ثم ارتدوا بعد أن فشا القتل فيهم وفى الوقت نفسه فإن ميمنة المسلمين وميسرتهم ردتا جناحى الجيش النصرانى ، وبدأ النصارى فى الفرار ، ولاح أن النصر فى جانب المسلمين .

عندما شاهد ذفونش جنوده يفرون ، إندفع بنفسه ومعه قواته الاحتياطية ليقاتل قتال اليائس ، فانتظمت صفوف النصارى ، وركزوا فى هجومهم على القلب ، واندفعوا ناحية الحرس الخليفى ، وحمى وطيس القتال . ورغماً من صمود الخليفة وشجاعته ورغماً عن تفانى حرسه الأسود فى الدفاع عنه ، إلا أنه لم يجد مندوحةً من الفرار إلى جيان ، بينما فلول جيشه تفر إلى كل ناحية ، وأخذ النصارى يمعنون القتل فيهم ، إذ كان شعارهم أن لا أسرى ، وقبل أن تغيب شمس هذا اليوم ، كانت المعركة قد حسمت نهائياً لصالح النصارى .

كانت الهزيمة شديدة الوقع على المسلمين ، فعشرات الآلاف هلكوا فى

العقاب ، كما كانت شديدة الوقع على الناصر ، ووافاه أجله بعدها بشهور ، وبعده اقتسم الموحدون على أنفسهم ، وكثر عدد المطالبين بالخلافة منهم ، وتحاربوا بعضهم ضد بعض ، واستغرقت هذه العملية سنوات طويلة ، أفضت إلى سقوط الدولة الموحدية فى سنة ١٢٦٩/٦٦٨ .

أما عن الأندلس ، فإن النصارى لم يتوانوا فى استثمار الفرصة التى واتتهم بهزيمة المسلمين المروعة فى العقاب ، ثم شغل الموحدين بنزاعاتهم الداخلية ، وأخذت العواصم والمدن الأندلسية ، تتساقط الواحدة تلو الأخرى فى أيدى النصارى . وكانت قمة المأساة دخول فرذلند الثالث Fernando III ملك قشتالة (١٢١٧ ـ ١٢٥٢) الملقب ـ بعد ـ بالقديس قرطبة فى ٢٢ من شوال ٢٩/٦٣٣ من يونيو ١٢٣٦ .

كانت المأساة رهيبةً ، لأن النصارى دخلوا غالب هذه المدن بالأمان ، وغالبًا ما نقضوه ، أو إنهم رفضوا أمانها بعد أن ألحت فيه ، وترتب على ذلك هلاك عشرات الآلاف من المسلمين وتهديم دورهم ومساجدهم وتحويلها كنائس وسبيهم ، وملأ النصارى بلادهم وما وراء بلادهم بنسائهم وأولادهم «فكانت هذه أشد على المسلمين من الهزيمة» كما يقول مؤرخ معاصر .

تنتهى إلى هذه المرحلة المحزنة من تاريخ الأندلس رائعة الرُّنْدى (ت٦٨٤هـ) وأولها

لكل شيء إذا ما تم نقصانُ   فلا يغر بطيب العيش إنسانُ

الفصل العاشر

مملكة غرناطة والموريسكيون*

١ ـ مملكة غرناطة :

كانت مهمة التصدى للزحف النصرانى ـ وقد تخلى الموحدون عن الأندلس ـ من شأن أهل الأندلس أنفسهم ، وبرز على الساحة زعيمان عربيان ، هما محمد بن يوسف بن هود الجُذامى الملقب بالمتوكل ، ومحمد بن يوسف بن نصر الأنصارى الملقب بالشيخ . ولم يمهل القدر أولهما سوى سنوات قليلة ، ثم انتهت حياته بأن اغتاله بعض أصحابه فى سنة ١٢٣٦/٦٣٣ ، أما الآخر ، ويعرف أيضاً بابن الأحمر ، ويرتفع نسبه إلى سعد بن عُبادة رضى الله عنه ، فإنه جعل معقله مدينة غرناطة التى دخلها فى سنة ١٢٣٨/٦٣٥ وحصنها ، وأتته أجناد من أنحاء الأندلس ، وامتدت سيطرته إلى مدن مجاورة . وبعد سقوط قرطبة دخل فى ولاء ملك قشتالة ، وصار فى جملة أتباعه ، يؤدى جزيةً سنويةً ، قدرها مائة وخمسون ألف قطعةً ذهبية ، ويشهد اجتماع الكورتيس Cortes (البرلمان) ويسلم بعض المدن والمواقع على حدود دولته ومنها جيان ... وعلى ذلك أعان ابن الأحمر سيده القشتالى فى الاستيلاء على إشبيلية وغيرها من قواعد الغرب فى سنة ١٢٤٨/٦٤٦ .

وإذا كان ابن الأحمر قد عدل أحياناً عن مصانعة النصارى ، وتحالف مع بنى مرين خلفاء الموحدين فى المغرب الأقصى ، فإنه عاود مرة أخرى مصانعتهم،

---

* معتمدنا الأساسى فى كتابة هذا الفصل على المؤرخ الكبير الراحل محمد عبد الله عنان فى كتابه الهام «نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنَصِّرين» ، وهو العصر الرابع من موسوعته الكبيرة «دولة الإسلام فى الأندلس» .

وتنازل عن مزيد من الأراضى فى غربى الأندلس .

إنصرف ابن الأحمر فى سنوات عمره الأخيرة إلى تنظيم مملكته الصغيرة ، وكانت قد اكتظت بسكانها الذين هاجر بعضهم إليها من القواعد الأندلسية الذاهبة ، ومات فى سنة ١٢٧٢/٦٧١ .

كانت مملكة غرناطة تقع إلى أقصى الجنوب من شبه الجزيرة ، وراء نهر الوادى الكبير وتخترقها جبال الثلج Sierra Nevada الشاهقة ، وهضاب البُشَرَّات Alpujarras الوعرة ، كما تخترقها عدة أنهار ، أهمها نهر شنّيل Jeníl ، وهو فرع الوادى الكبير . وتهيأت لها موارد طبيعية مناسبة ، أعانت على ازدهارها ، فتوافد إليها مهاجرون مسلمون من مدن أندلسية أخرى ، وعاشت فيها أقلية نصرانية من المستعربين ، إلى جانب عدد من اليهود .

أما العاصمة ـ غرناطة ـ ، فهى مدينة أزلية ، تقع فى واد عميق ، يمتد من جبال الثلج ، ويحدها من الجنوب نهر شنيل ، ويخترقها فرعه المسمى حَدَرُّه El-Darro ، وتشرف المدينة من جنوبها الغربى على المرج أو الفحص الشهير La Vega الذى يمتد غرباً حتى مدينة لوْشَة Loja.

فى شرقى المدينة تقع الحمراء Alhambra ، وهى دار الملك ، وأبرز ما تبقى من معالم غرناطة الإسلامية ، وإلى شماليها يقع حى البيازين (أو البياسين) Albaicín ، وعلى مقربة من الحمراء ، يقع قصر جنة العريف El Genera-life ، وكان مصيفاً أو متنزهاً لسلاطين عرناطة .

كانت مملكة غرناطة هى رابعة القوى السياسية فى شبه الجزيرة الإسبانية ، بعد ممالك قشتالة وأرغونة والبرتغال ، وشغلت مساحةً تقدر بعشر مساحة البلاد . ورغماً عن إنها كانت أضعف هذه الممالك ، إلا إنها عاشت عمراً مديداً (١٢٣٨/٦٣٥ ـ ١٤٩٢/٨٩٧) والسبب يكمن فى النزاعات بين الممالك

النصرانية الثلاث ، وفى النزاعات داخل المملكة الأساسية قشتالة ، وكانت غرناطة تتدخل أحياناً فى هذه النزاعات وتناصر فريقاً ضد فريق آخر .

تحددت سياسة مملكة غرناطة ـ فى عصرها الأول ـ فى التحالف مع بنى مرين سلاطين المغرب الأقصى واحتكرت أسرتهم مشيخة الغزاة ، زهاء قرن من الزمان ، لكنها كانت تنزع أحياناً إلى التخلى عنهم ، ومصانعة مملكة قشتالة ، عندما تستبد بها المخاوف منهم .

خلال المائة العام الأولى من تاريخ مملكة غرناطة تبادلت ومملكة قشتالة النصر والهزيمة وفى سنة (١٢٧٥/٦٧٤) استطاع المسلمون المتحدون ـ غرناطيين ومرينيين ـ يقودهم أبو يوسف يعقوب سلطان المغرب أن يحرزوا نصراً كبيراً على أعدائهم ، فى وقعة قرب مدينة إستجة ، وأعادت هذه المعركة ذكريات معركتى الزلاقة والأرك .

جدير بالذكر أن أبا يوسف يعقوب (١٢٦٩/٦٦٨ ـ ١٢٨٥/٦٨٥) عبر إلى الأندلس ثلاث مرات بعد ذلك ، وأحرز انتصارات مشابهة ، بل إن أذفونش العاشر ملك قشتالة المعروف بالعالم El sabío (١٢٥٢ ـ ١٢٨٤) طلب عونه ضدبعض ولده ، واستقرت فى مملكة غرناطة قوة من بنى مرين ، تلقب قائدها بشيخ الغزاة ، ونهضت هذه القوة بدور كبير فى حفظ هذه المملكة والدفع عنها .

على أن القشتاليين عاودوا الكرة بعد سنوات واستولوا على جزيرة طريف فى سنة ١٢٩٢/٦٩١ ثم جبل طارق فى سنة ١٣٠٩/٧٠٩ ، وتطلعوا للاستيلاء على غرناطة نفسها ، إلا أن المسلمين تمكنوا من هزيمتهم على مقربة من عاصمتهم فى سنة ١٣١٨/٧١٨ وقتلوا دون بطره Don Pedro الوصى على أذفونش الحادى عشر (١٣١٢ ـ ١٣٥٠) ، وتبع ذلك غزوات إسلامية ،

أسفرت عن استرداد الغرناطيين لجبل طارق فى سنة ١٣٣٣/٧٣٣ ، وكان لعون بنى مرين وسلطانهم أبى الحسن (١٣٣١/٧٣١ ـ ١٣٥١/٧٥٢) أكبر الأثر فى تحقيق هذا النصر .

كان وقع الهزيمة كبيراً على القشتاليين ، فعاود ملكهم العيث فى أراضى مملكة غرناطة ووافته أمداد من البرتغال وأرغونة ، وهرع أبو الحجاج يوسف سلطان غرناطة (١٣٣٣/٧٣٣ ـ ١٣٥٤/٧٥٥) يطلب عون أبى الحسن سلطان المغرب ، فعبر بنفسه إلى الأندلس فى سنة (١٣٤٠/٧٤١) صحبة جيش كبير . لكن المسلمين أصيبوا بهزيمة كبيرة عند نهر ـ سالادو El río Salado ، فى الوقعة المعروفة بوقعة طريف، هى أكبر هزائمهم منذ العقاب.

ترتب على هذه الهزيمة أن سقطت الجزيرة الخضراء فى أيدى القشتاليين فى سنة ١٣٤٤/٧٤٤ ، مما أهم أذفونش فى سنة ١٣٤٩/٧٥٠ للاستيلاء على جبل طارق ، فيقطع طريق المواصلات بين العدوتين ، وحاصره عاماً كاملاً، بحيث كاد يسقط فى يديه ، لولا أن فشا الوباء الكبير (الموت الأسود) فى معسكره ، وهلك الملك نفسه ، واضطر القشتاليون إلى رفع الحصار .

وصلت مملكة غرناطة إلى ذروة مجدها فى النصف الأخير من القرن الثامن/ الرابع عشر ، وسادت حال من الاستقرار على حدودها ، بل إن غرناطة أفادت من الحرب الأهلية داخل قشتالة ، فوقف المسلمون مع بطره (بدرو القاسى) ملكها (١٣٥٠ ـ ١٣٦٩) ضد أخيه إنريكى ، وشارك ابن خلدون (ت١٤٠٦/٨٠٨) فى الاتصالات مبعوثاً من سلطان غرناطة وانتهز محمد الغنى بالله (١٣٥٤/٧٥٥ ـ ١٣٩١/٧٩٣) هذه الفرصة ، وزحف بجيشه فى سنة ١٣٦٧/٧٦٨ ، فعاث فى أحواز إشبيلية ، وهى عاصمة قشتالة ، واسترد فى العام التالى الجزيرة الخضراء واحتفظ بها عشر سنوات ، ثم أعادها إلى النصارى

بعد ما هدم ما بها من دفاعات .

امتدت فترة الهدوء هذه على نحو أو آخر ،حتى أواسط القرن التاسع / الخامس عشر ، ثم سقط جبل طارق للمرة الثانية والأخيرة فى سنة ١٤٦٢/٨٦٧ .

خلال عصر مملكة غرناطة استمر عطاء الأندلسيين الحضارى يتدفق ، كما كانت الحال قبل ذلك ، على أن هذا العطاء ـ فى معظمه ـ تحدد فى فن العمارة لولع الأندلسيين بابتناء القصور والمساجد والمدارس والقلاع ، وأبرزها جميعاً قصور الحمراء ، كما تحدد فى الأدب بخاصة الشعر ، ولا نشاهد آثاراً واضحةً فى العلوم العقلية والطب .

بلغت الحركة الفكرية ذروتها فى النصف الثانى من القرن الثامن الهجرى ، وصعد نجم لسان الدين محمد بن عبد الله بن الخطيب السَلَمانى (ت١٣٧٤/٧٧٦) الذى كان وزيراً وكاتباً لثلاثة من سلاطين غرناطة ، كما كان صديقاً للمفكر الكبير عبد الرحمن بن خلدون وتقلبت حاله بين سعود ونحوس ، إلى أن حبس ثم قتل بتهمة الزندقة ، وأحرقت جثته ، ودفن قرب فاس فى بلاد المغرب .

ويعد ابن الخطيب واحداً من الشخصيات الكبيرة فى الفكر الأندلسى وكان كاتباً وشاعراً ومؤرخاً وطبيباً وفيلسوفاً ، واشتهر من كتبه « الإحاطة فى أخبار غرناطة » و « ريحانة الكتاب ونُجْعة المنتاب » و « أعمال الأعلام » .

فى النصف الأخير من القرن التاسع / الخامس عشر ، ضعفت الحركة الفكرية فى مملكة غرناطة خصوصاً بعد ما بدا فى الأفق نذير سقوطها ، فهجرها العديد من أبنائها المتميزين ، وغادروها إلى بلاد المغرب ومصر والشام ، ولم يعودوا إليها بعد مغادرتهم لها .

خلال هذه المرحلة ضعف أمر مملكة غرناطة ، بسبب النزاع على العرش داخلها ، ثم افتقادها الظهير المغربى بضعف دولة بنى مرين ، ثم ذهابها فى سنة ١٤٦٤/٨٦٩ ، ولم يكن خلفاؤها من بنى وطّاس من القوة بحيث يستطيعون عون مملكة غرناطة . على أن الأهم من هذا كله ما جرى من تطورات فى إسبانيا النصرانية ، ففى سنة ١٤٧٤/٨٧٩ مات انريكى الرابع ملك قشتالة ، وخلفته أخته إيسابيل Isabel (١٤٧٤ ـ ١٥٠٤) وكانت متزوجة من الأمير فرناندو الأرغونى ، وفى سنة ١٤٧٩ ارتقى فرناندو عرش أرغونة ، ثم اتحدت المملكتان الإسبانيتان ، ليبدأ عصر جديد فى تاريخ إسبانيا .

فى هذا الإبان كانت الحرب الأهلية ، قد دبت فى مملكة غرناطة بين سلطانها أبى الحسن على الملقب بالغالب بالله (١٤٦٢/٨٦٧ ـ ١٤٨٥/٨٩٠) وبين أخيه أبى عبد الله الملقب بالزَغَل ـ أى الباسل ـ ثم بين هذا الأخير وبين ابن اخيه أبى عبد الله محمد ، وانقسمت المملكة فصارت غرناطة وأعمالها لأبى عبد الله ، وصارت وادى آش Guadix وأعمالها للزغل .

أفاد القشتاليون من هذه الفرصة ، فاستولوا على لوشة ، ثم زحفوا إلى مالقة، ولم يستطع الزغل أن ينجدها ، فسقطت فى أيدى النصارى فى سنة ١٤٨٧/٨٩٢ واتبعوها بالمُنَكَّب وبَسْطَة Baza ، ولم يتبق سوى وادى آش ، فلم يجد الزغل بداً من الإستسلام والرحيل إلى المغرب ، وبرحيله دخل النصارى وادى آش ، ودخلوا بعدها ألمرية .

ظهر فى مملكة غرناطة فى عهدها الأخير تيار قوى ، ينحو نحو طلب العون من السلطنة المملوكية بالقاهرة ، والسلطنة العثمانية باسلامبول ، وتكرر هذا الطلب عدة مرات ، ولم تجاوز الاستجابة حد القول إلى الفعل .

بعد أن تخلص الملكان الكاثوليكيان من خصمهما الزغل ، لم يتبق لديهما

سوى مدينة غرناطة وأحوازها . وكان يدافع عنها عشرون ألفاً من المقاتلة ، يواجهون ما بين خمسين ألفاً إلى ثمانين من أعدائهم مزودين بالمدافع وآلات الحصار .

شرع فرناندو بدوره فى تخريب حقول البشرات وفحص غرناطة ،لمنع الأقوات عن المدينة ، وبنى إزاءها مدينة ، دعتها إيسابيل شنْتَفى Santa Fé أى « الإيمان المقدس » ، ومنعت سفن النصارى الأمداد الواردة من المغرب .

بدأ حصار غرناطة فى ١٢ من جمادى الثانية ٢٣/٨٩٦ من ابريل ١٤٩١، وطال عدة شهور ، ولم يعد لدى المسلمين جلد على مجاهدته ، وعرض النصارى معاهدةً ، تضم ستا وخمسين مادةً ، وصل إلينا نصها العربى ، كما وصل إلينا نصها القشتالى . والروح العامة للمعاهدة طيبة ، فهى تنص على بقاء المسلمين على حالهم التى كانوا عليها ،وسمح لهم بحرياتهم الدينية كاملةً، وألاّ يؤدوا من الأموال ، إلا ما كانوا يؤدونه إلى ملوكهم ، وأن يسيروا وفق شرائعهم ، وسمح لمن أراد بالعبور إلى المغرب بأولاده وأمواله ، وذيلت المعاهدة بأن الملكين الكاثوليكيين يؤكدان هذا العهد ، ويضمنانه بدينهما وشرفهما الملكى .

لما عرض هذا الإتفاق على أهل غرناطة ، استقبلوه بوجوم ، على أن المعارضة التى كان يتزعمها موسى بن أبى الغسّان ـ وقد استشهد فيما بعد ـ كانت محدودةً . وفى ٢ من ربيع الأول ٢/٨٩٧ من يناير ١٤٩٢ دخل الملكان الكاثوليكيان المدينة ، ونصب صليب فضى كبير على برج الحراسة Torre de la vela وهو أعلى الأبراج بقصر الحمراء ، ورفعت إلى جواره راية القديس يعقوب وراية قشتالة ، وانطلق الرهبان يرددون «الحمد لله» Te Deum Laudamus .

غادر أبو عبد الله وأمه الحرة عائشة مدينته إلى البشرات ، ولدى أحد آكامها

نظر إلى غرناطة وأجهش بالبكاء ، فقالت له أمه : « أجل فلتبك كالنساء ملكاً ، لم تستطع أن تدافع عنه كالرجال » ، وقد دعيت هذه الأكمة فيما بعد بزفرة المسلم الأخيرة El Último Suspiro del Moro .

استقر أبو عبد الله ـ الذى دعاه الإسبان بـ Boabdil والملك الصغير El Rey chico استقر بقرية أَنْدَرَش Andarax ، وكان فرناندو قد أقطعها له ، ولم يتهيأ له المقام بها سوى عام وبضع العام ، ثم عبر البحر إلى المغرب ، فقصد مليلة ثم فاس ، حيث عاش إلى أن مات فى سنة ٩٤٠/ ١٥٣٤ . وقد تدهورت الحال بولده بعده ، وصاروا فى زمن المقرى (ت ١٠٤١/ ١٦٣٢) أى بعد مائة عام أو نحوها ، يعيشون على أموال الصدقات .

2 ـ الموريسكيون :

معلوماتنا عن حال المسلمين فى المصادر العربية ، بعد سقوط غرناطة قليلة، والسبب هو خمود الحركة الفكرية فى العصر الغرناطى الأخير ، فضلاً عن دثور الكتب التى تعود إلى هذا العصر ، وماتلاه ، نتيجة للسياسة الإسبانية ـ خاصة الكنسية ـ تجاه المسلمين .

فى أعقاب تسليم غرناطة ، ظهر تيار بين المسلمين ، يتوجس من غد غير مأمون ، فشرع بعضهم فى بيع أراضيه وعقاراته ، والرحيل إلى المغرب ، وقد ارتحل برحيل أبى عبد الله ألف وثلاثمائة مسلم ، إستقر معظمهم فى تطوان .

كانت السياسة الإسبانية مترددةً تجاه المسلمين فكانت الدولة ترى فيهم ، وكانوا يشكلون نحو عشرين فى المائة من سكانها أكثر هؤلاء السكان نشاطاً وأوفرهم حضارةً ، فى حين أن الكنيسة كانت تراهم كفاراً ، يجب تنصيرهم ، وإلا فالقتل أو الاسترقاق أو النفى .

إنصاعت الدولة لتحريض الكنيسة بعد سبع سنوات فقط ، ففى سنة ٩٠٤/ ١٤٩٩ ، استدعى الملك فرناندو الكردينال خمينيث دى ثيسنيروس Francisco Jiménez de Cisneros مطران طليطلة (ت ١٥١٧م) إلى غرناطة ، فجمع فقهاء المدينة وأعيانها وأغدق عليهم ، واستطاع بالحسنى أن ينصر بعضهم ، ثم صعد إجراءات التنصير ، فأمر بتحويل المساجد إلى كنائس ، وجمع كتب المسلمين ـ وكانت تعد بالألوف ـ فأضرم فيها النار ، ولم يستثن سوى ثلاثمائة كتاب فى الطب والعلوم ، أرسلها إلى الجامعة الناشئة فى قلعة عبد السلام Alcalá de Henares .

أسفرت هذه السياسة عن ظهور من يعرفون بالموريسكيين Moriscos ، وهى صيغة تصغير ـ أو تحقير ـ من موروس Moros أى مسلمون ، وصارت تعنى من الناحية العملية النصارى الجدد Cristianos Nuevos ، أو المسلمين المنصّرين Moros Cristianados سواء كانوا من مواطنى مملكة غرناطة القديمة ، أو المدجنين Mudéjares [1] فى سائر أنحاء إسبانيا .

عندما أدرك المسلمون خطورة هذه السياسة ، أرسلوا إلى السلطان الغورى (٩٠٦/ ١٥٠١ ـ ٩٢٢/ ١٥١٦) بالقاهرة يصفون حالهم ويطلبون عونه ، لكن فرناندو أرسل بدوره إلى السلطان نفسه يدعى عكس ما يدعيه هؤلاء ، وعلى أية حال فإن السلطان المملوكى لم يكن ليستطيع لهم شيئًا ، وكذا كانت حال السلطان العثمانى بيا زيد (٨٨٦/ ١٤٨١ ـ ٩١٨/ ١٥١٢) .

ترتب على ذلك أن ثار المسلمون بربض البياسين ، وامتدت الثورة إلى جبال البشرات ، ومع أن الإسبان قمعوا هذه الثورة بكل عنف إلا إنها كان لها أثرها فى اعتدال السياسة الإسبانية على نحو مؤقت ، لكنه فرض على المسلمين أن يقيموا

---

(١) هم المسلمون الذين آثروا البقاء فى ديارهم ، بعد سقوطها فى أيدى الإسبان فى المراحل السابقة لسقوط مملكة غرناطة ... يأتى الحديث عنهم بعد .

فى أحياء خاصة بهم فى المدن دعيت Morerías ، ويتخذوا علامات معينة ولا يحملوا سلاحًا .

تصاعدت سياسة التنصير مرةً أخرى ، وظلت كذلك حتى وفاة فرناندو وفى سنة ١٥١٦ ، والأهم أن نشط ديوان التحقيق بين الموريسكيين .

وديوان التحقيق La Inquisición [١] ويعرف بمحاكم التفتيش ، يعود فى نشأته إلى أوائل القرن الثالث عشر الميلادى ، وكان الهدف منه الرقابة على العقيدة النصرانية ، والتحقق من سلامتها بين أتباعها وعهد به إلى الرهبان . على أن مهامه تصاعدت فى أواخر القرن الخامس عشر ، ليشمل من كانوا يهودًا فى أصولهم ، ثم شمل المسلمين (المنصرين) ابتداءً من سنة ١٤٩٩ .

إتبعت فى هذا الديوان وسائل معينة مع الذين كانوا موضع شك فى إيمانهم، يصعب علينا وصفها ، وكان المتهم غالبًا ما يدان ، وكانت الأحكام تتراوح بين السجن المؤبد مصحوبًا بالتعذيب والمصادرة أو الإعدام حرقًا . وكان المحكوم عليهم بالعقوبة الأخيرة يساقون فى مواكب تعرف برسوم الإيمان Auto de Fé . وكانت جموع الشعب تتسلى بمشاهدة هذه المواكب التى كان فرناندو الكاثوليكى من عشاقها .

بعد وفاة فرناندو خلفه حفيده كارلوس الخامس Carlos V (شارلكان) (١٥١٩ ـ ١٥٥٦) وكان خضع عدة سنوات لوصاية الكاردينال ثيسنيروس ، فأصدر فى سنة ٩٣٠/ ١٥٢٤ مرسومًا يحتم تنصير المسلمين أو النفى أو الاسترقاق ، كما أمر بإعدام المتنصر الذى يعاوددين آبائه ، وأن يحول ما تبقى من مساجد إلى كنائس .

عاود الموريسكيون الثورة فى بلنسية ومدن غيرها ، وعاود الإسبان قمعها

---

١) ظل ديوان التحقيق قائمًا فى إسبانيا حتى سنة ١٨٣٤ ، وكان الفنان الكبير جويا Goya من ضحاياه الأواخر ، وسلم من النهاية المأساوية المعتادة .

بكل عنف ، وجنح كارلوس إلى الاعتدال ، فسمح لموريسكيي غرناطة بالاحتفاظ بلغتهم العربية وثيابهم الوطنية ، كما سمح لمن شاء بأن يظل مسلماً، على أن يحمل شارةً زرقاءً ، لكنه منعهم من التسمي بأسماء عربية وإقامة رسوم المسلمين، وزاد عليهم الضرائب .

فى عهد فيليب الثانى Felipe II (١٥٥٦ ـ ١٥٩٨) وصلت سياسة التنصير إلى ذروتها ففى ١٩ من جمادى الثانية ٩٧٤/ الأول من يناير ١٥٦٧ ـ وهو ذكرى تسليم غرناطة الذى أضحى عيداً فى إسبانيا ـ أصدر الملك مرسوماً يحظر على الموريسكيين حمل أى نوع من أنواع السلاح ، كما يحظر عليهم التحدث بالعربية أو ارتداء الملابس العربية أو التسمى بأسماء عربية ، وحظر الحجاب على نسائهم ، وأمر بهدم الحمامات العامة والخاصة ، ومراقبة الموريسكيين أيام الجمع والأعياد الإسلامية ، وجعل عقوبة من يخالف هذا المرسوم تصل إلى الإعدام .

ودون جدوى سعى الموريسكيون إلى إلغاء هذا المرسوم ، ولما اخفقوا قاموا بثورتهم الكبيرة بجبال البشرات فى رجب من سنة ٩٦٧/ ديسمبر من سنة ١٥٦٨ ، وتزعمهم فرج بن فرج ، وينتمى إلى أسرة بنى سراج الغرناطية المشهورة ، وفتكوا بالحاميات الإسبانية ، ثم اجتمعوا على فتى يدعى فرناندو دى ڤالور ، يتصل نسبه ببنى أمية ، وتوجوه ملكاً عليهم باسم « محمد بن أمية صاحب الأندلس وغرناطة » ، وصار فرج بن فرج وزيره ، كما صار عمه ابن جوهر قائد جيشه ، وامتدت الثورة إلى سائر مملكة غرناطة القديمة ، وجاوزتها إلى أنحاء أخرى من بلاد الأندلس .

عندما واجهت الدولة هذه الثورة بأقصى درجات العنف ، بعث الثوار فى طلب العون من أمير الجزائر وسلطان مراكش ، وأتاهم عدد من المجاهدين المغاربة

والأتراك . على أن محمد بن أمية قتله بعض أصحابه ، وولى ابن عمه دييجو لوبيث الذى تسمى بمولاى عبد الله محمد ، وصار له جيش ، عدته عشرة آلاف ، أغار به عدة مرات على فحص غرناطة .

عهد فيليب الثانى إلى أخيه دون خوان Don Juan de Austria بالقيادة فى ولاية غرناطة ، ودارت معارك بين الطرفين استغرقت عامين ، أمر فيليب خلالها بنفى الموريسكيين من هذه الولاية إلى داخل البلاد ، حتى يأمن جانبهم، وأغرى الثوار بالأمان إلى أن انفرد دون خوان بمولاى عبد الله ، لتنتهى الثورة فى شوال ٩٧٨/ مارس ١٥٧١ .

ترتب على إخفاق الموريسكيين فى ثورتهم إلى اقتناعهم بعدم الجدوى من المقاومة ، وأظهروا جميعهم نصرانيتهم ، لكن غالبهم استمروا يسرون إسلامهم ، وهو ما تدلنا عليه سجلات ديوان التحقيق . على أن بعض الموريسكيين الذين كانوا محل اتهام ، كانوا يلجئون أحياناً إلى الوساطة والرشوة ، من أجل أن يثبتوا إنهم نصارى مخلصون .

لما كان الموريسكيون قد فقدوا ـ تقريباً ـ لغتهم العربية ، وصاروا فى معظمهم يتحدثون بالقشتالية ، أو بالقشتالية المختلطة بالعربية ، فإنهن كتبوا هذه اللغة بحروف عربية، ومن ثم عرفت بالألخميادو Aljamiado ، وهو تحريف إسبانى للأعجمية .

وصلت إلينا بعض هذه الكتابات ، وهى توضح أن الموريسكيين ، حافظوا فى معظمهم على دينهم الإسلامى الحنيف ، فموضوعات الألخميادو موضوعات دينية من نصوص قرآنية وتفسير وحديث وفقه وسيرة إلى جانب الأدب، ونظم بعض شعرائهم مدائح نبوية .

بيد أن عدداً من الموريسكيين عبروا عن رفضهم للحال التى هم عليها بالمشاركة فى الغارات التى كان يقوم بها بعض المجاهدين الأتراك ، وغيرهم من رعايا الدولة العثمانية والمغاربة ، على ثغور إسبانيا الشرقية والجنوبية ، وكانت مشاركة هؤلاء الموريسكيين ذات فائدة كبيرة بحكم معرفتهم الدقيقة بأحوال إسبانيا وطرقها ومسالكها وكذا لغتها ، مما كان يدفع السلطت الإسبانية إلى نزع سلاح المقيمين منهم لدى هذه الثغور .

أشهر هؤلاء المجاهدين هو خير الدين المعروف بذى اللحية الحمراء Bar-barossa ، وقام بغارات على شواطىء إسبانيا أعانه فيها كثير من المغاربة والموريسكيين ، وكانت هذه الغارات تنتهى إلى تحرير أعداد كبيرة من الموريسكيين ، كما كانت تنتهى إلى استرقاق أعداد أخرى كبيرة من الإسبان .

من الغريب الواقع إن هذه الغارات وقعت خلال القرن السادس عشر ، حين كانت إسبانيا قوة أوربية عظمى ، بل القوة الأوربية العظمى ، تعيش عصرها الذهبى El Siglo de Oro ، وكانت لها إمبراطورية واسعة ، امتدت إلى العالم الجديد ، وضمت بعض ثغور المغرب ومدنه الكبيرة .

نتيجةً لهذا التحدى من قبل المسلمين داخل إسبانيا وخارجها ، فإن السياسة الإسبانية فى عهد فيليب الثالث (١٥٩٨ ـ ١٦٢١) بدأت تتجه إلى منحى جديد ، هو التفكير فى نفى الموريسكيين ، ففى ٢٢ من جمادى الثانية ١٠١٨/ ٢٢ من سبتمبر ١٦٠٩ صدر مرسوم النفى ، وكان له وقع سيء على الموريسكيين ، وجرت محاولات من بعضهم لمقاومته ، لكن هذه المحاولات ذهبت سدىً ، واضطرت الغالبية العظمى إلى الرضوخ له ، وإعداد الأهبة للرحيل على مراكب مخصوصة ، أعدتها الحكومة الإسبانية ، واتجهت الكثرة الغالبة إلى بلاد المغرب ، واتجهت أعداد أقل إلى فرنسا وإسلامبول والشام ومصر .

يقدر عدد الموريسكيين الذين تم ترحيلهم بين سنتى ١٦٠٩ و ١٦١٤ بنحو المليون ، وإن كان البعض يقفز بهذا العدد إلى ثلاثة ملايين .

رغماً عن النفى فإن عدة آلاف من الموريسكيين ، ظلوا يقيمون فى إسبانيا على نحو أو آخر، وهو ما توضحه سجلات ديوان التحقيق فى إسبانيا ، وفى أمريكا أيضاً حيث هاجر بعض الموريسكيين . وفى وقت متأخر يعود إلى سنة ١٧٦٩ اكتشف مسجد صغير فى قرطاجنة ، أنشأه بعض هؤلاء . على أننا لا نسمع عن وجود لهؤلاء المسلمين بعد ذلك فإنهم لم يلبثوا أن اندمجوا فى سائر الشعب الإسبانى ، وفقدوا خصائصهم العرقية والدينية جميعاً .

وإذا كان نفى الموريسكيين قد حقق الوحدة القومية والدينية لإسبانيا ، وهو ماكان يسعى إليه ملوكها والكنيسة ، إلا أن هذا النفى حرمها من أرقى عناصر سكانها ، وأوفرهم نشاطاً وحيوية ، مما كان له أثره مع عوامل أخرى فى إنهيار أحوال إسبانيا على نحو عام ، وترديها خلال القرن السابع عشر ، وانتهاء العصر الذهبى فى تاريخها .

الباب الثالث
إسبانيا النصرانية

الفصل الحادي عشر
ممالك إسبانيا النصرانية

تمهيد :-

إبان فتح المسلمين لشبه الجزيرة ، تطرّقوا إلى النواحى الشمالية الغربية ، إى ما يعرف اليوم بأشتوريش Asturias وجليقية Galicia ، على أن وجودهم فى هذه الأصقاع النائية الوعرة الباردة فى الوقت نفسه كان محدوداً ، وأقصى ما وصل إليه موسى بن نصير هو مدينة جيخون Gijón ، التى أضحت قاعدة للمسلمين ، ولم يهتم - وخلفاؤه بعده - ببقايا المقاومة القوطية التى اعتصمت بقمم الجبال ، خاصةً ما عرف - بعد - بقمم أوربا Picos de Europa .

يذهب البعض من المؤرخين إلى إن عدم تثبيت الوجود الإسلامى فى أشتوريش على نحو خاص كان خطأ أو خطيئة ، لأن هذه البقايا القوطية ، أضحت نواةً للمقاومة النصرانية التى اشتد ساعدها ، وأفادت من الطبيعة الجغرافية للمنطقة ، وأفادت أيضاً بما شجب بين العرب والبربر ، ثم بين العرب بعضهم وبعض من نزاعات ، واستطاع هؤلاء القوط ، ومن لاذ بهم من سكان النواحى المجاورة أن ينشئوا نواةً لمملكة نصرانية صغيرة ، لم يلبث أن اتسع مداها ، ثم نشأت ممالك نصرانية أخرى وإمارات ، شاركت المسلمين وجودهم فى شبه الجزيرة .

والفترة الباكرة لتاريخ إسبانيا النصرانية غامضة كل الغموض ، وأخبارها متضاربة ومتناقضة فى المصادر العربية والإسبانية جميعاً ، وهى ترتبط فى المصادر الأخيرة بمجموعة من الأساطير التى يصعب تصديقها .

قبل أن يعود موسى بن نصير أدراجه إلى المشرق ، خلف على الأجناد المقيمين فى كنتبرية Cantabria وجليقية - ومعظمهم من البربر - زعيماً

يدعى منوسة Munuza ، وقد وثق منوسة هذا علاقاته بالدوق أودو Audo صاحب أقطانية Aquitania (فى فرنسا) وتزوج بابنته ، وسعى إلى الاستقلال عن قرطبة Córdoba .

فى الوقت نفسه فإن زعيماً نصرانياً يدعى پلاجيوس Pelagius أو بلايو Pe-layo [١] ، وعرف عند العرب ببلاى ، استطاع أن يهرب من حبسه بقرطبة فى أعقاب الفتح ، واستقر ببلدة صغيرة تدعى كانجاس Cangas ، حيث التف حوله عدد من القوط الهاربين من سيوف المسلمين ، وعدد آخر من الأهلين ، وأخذ يحرضهم على الخلاص من الغزاة ، فتوجه إليه منوسة ، وطارده فى الجبال، وألجأه إلى الصخرة التى عرفت باسمه ، حيث اعتصم بها ، مع من سبقه من القوط .

لم يستمر منوسة فى حصاره لبلاى ، بسبب الصراع الذى نشب بينه وبين والى الأندلس عبد الرحمن الغافقى ، وقد أفضى هذا الصراع إلى قتله ، مما ترتب عليه أن اتسعت سيطرة بلاى ، واستولى على جيخون التى كانت مستقر منوسة ، وامتدت سيطرته إلى أجزاء أخرى من أشتوريش وجليقية .

فى سنة ١١٦/ ٧٣٤[٢] توجهت إلى بلاى حملة إسلامية من استورقة Astorga ، يقودها والى أشتوريش وهو علقمة Alcaman ، واصطحب معه أُبّه Oppas أخا الملك غيطشة ، وحاصر علقمة هذا بلاى وصحبه بالصخرة ، إلى أن ألجأه إلى مغارة هى مغارة أونجا Cova d'Onga (La Cueva de Onga) ولم يستطع المسلمون اقتحام المغارة ، بل إن بلاى هبط عليهم ، وتمكن من قتل علقمة وعدد كبير من أصحابه ، كما تمكن من أسر أبه ـ وقتل فيما بعد ـ واضطربت جموع المسلمين ، وارتدوا مسرعين إلى أستورقه .

---

(١) ربما هو بلاجيوس أحد النبلاء الذين تآمروا على غيطشة من ملوك القوط وأمر هذا الأخير بنفيه .

(٢) يميل بعض المؤرخين الفرنج إلى تواريخ أقدم ٧١٨ أو ٧٢٢ .

تبالغ الرواية النصرانية فى تقدير عدد من قتل من المسلمين ، وتصل به إلى ١٢٤ ألفاً ، وهو تقدير لا محل لتصديقه ، لأن أعداد المسلمين جميعهم فى شبه الجزيرة بأسرها ، ربما لا تكون قد وصلت إلى هذ الرقم فى تلك الفترة الباكرة من تاريخهم .

لم تكن معركة الصخرة ـ أو كوڤادونجا ـ فى حد ذاتها معركةً كبيرة ، لأنها وقعت بين نفر متمردين من النصارى ، وبين قائد محلى من قواد المسلمين، وكان من الممكن أن تمر دون أن تحدث صدىً كبيراً فى مجريات الأحداث ، والمسلمون فى المغرب هزموا فى بعض معاركهم ، لكن هذه الهزائم لم تؤثر تأثيراً قوياً على المسار العام لفتوحهم هناك .

على أنه إذا لم تكن معركة الصخرة معركةً كبيرةً ، إلا إنها كانت حاسمةً، لأن المسلمين شغلتهم فى هذه الأثناء صراعاتهم الداخلية ، ولم تتهيأ الفرصة لهم من أجل إخماد بؤرة الثورة فى الشمال البعيد ، وصار الشغل الشاغل لفصائلهم المتنازعة هو السيطرة على أزمة الحكم فى العاصمة المتطوحة جنوباً قرطبة .

لذلك ينظر الإسبان إلى معركة كوڤادونجا على أنها صفحة هامة من صفحات تاريخهم ويربط بعضهم بين بلاى هذا وبين من سبقه من ملوك القوط خاصةً رودريجو (رذريق) آخر هؤلاء الملوك . والهدف أن يثبتوا إن تاريخهم متصل لا انقطاع فيه ، ومن ثم فالفترة الإسلامية عارضة وإن طالت ، وهم فى الأحوال جميعها يعتبرون كوڤادونجا بداية حركة الاسترداد La Re-conquista أو معركة القرون الثمانى La Batalla de los Ocho Siglos .

مات بلاى فى سنة ١١٩/ ٧٣٧ أى بعد المعركة بثلاث سنوات ، وخلفه ولد له حكم سنتين فحسب ومات بدوره ، ليلى الحكم فى كانجاس

ألفونسو Alfonso دوق كنتبرية ، وكان متزوجاً بابنة بلاى .

على نهج مملكة أشتوريش بدأت تبزغ فى الشمال القاصى إمارات صغيرة لدى السفوح الجنوبية لجبال البرتات ، أهمها نبّرة Navarra ثم أرغونة Aragón .

فرض نجاح بلاى ـ وخلفائه بعده ـ واقعاً جديداً لافكاك منه للمسلمين ، وحاولت الدولة الأندلسية فى عصر بنى أمية أن تتلمس حلاً لهذه المشكلة عن طريق غزواتها التى كانت تتابع كل عام أو بضعة أعوام .. وكانت هذه الغزوات تبدأ فى الربيع بعد ذوبان الثلوج ، وتنتهى قبل أن ينتهى الصيف ، لذا كانت تسمى صوائف .

ولما كانت الجبهة بعيدةً عن مركز الدولة الإسلامية فى قرطبة ، فإن هذه الدولة فى عصر الخلافة صار لها جيشان ، جيش الحضرة ومستقره قرطبة (أو الزهراء Medina Zahra) وجيش الثغور ومستقره مدينة سالم Medinacelí فى الثغر الأوسط .

أفادت هذه الغزوات فى تثبيت الحدود بين دار الإسلام ودار الحرب أحياناً . وفى دفعها لحساب دار الإسلام فى أحيان أخرى . على أنه لدى الفرقة التى أصابت الأندلس فى عصر الطوائف ، بدأت هذه الحدود تتراجع لحساب دار الحرب .

الخلاصة إنه صارت هناك حال حرب شبه دائمة بين المسلمين ونصارى الشمال ، هذه الحال أضفت على تاريخ الأندلس وإسبانيا النصرانية معاً طابعاً سياسياً واضحاً .

ا ـ مملكة ليون :

خلال السنوات التى حكم فيها ألفونسو الأول الملقب بالكاثوليكى el católico (٧٣٩ ـ ٧٥٧) اتسعت حدود مملكة أشتوريش ، لشغل المسلمين بنزاعاتهم الداخلية ، التى لم تهدأ بقيام الإمارة الأموية فى سنة ١٣٨/ ٧٥٥ ، وأفضت هذه النزاعات إلى أن صار المسلمون ـ عربًا وبربر ـ يهجرون مستقراتهم فى الشمال ويرحلون إلى الجنوب أو إلى بلاد المغرب ذاتها ، خصوصًا بعد أن أصابتهم مجاعات ، استطالت عدة سنوات ، وخلت منهم الأراضى بين نهرى منيو Meño [1] ودويرُه Duero ، وانتهز الفونسو الفرصة ، وأخرج من تبقى من المسلمين من أستورقة وليون León ولك Lugo وألَبة Alavá وبرتقال Oporto ، وضم هذه المدن وغيرها إلى مملكته الناشئة .

لم يتوقف ألفونسو عند هذا الحد ، بل أنه عبر الدويرة غير مرة ، وأرغم المسلمين علي إخلاء مدن أخرى أهمها سمورة Zamora وشلَمَنْقة Salamanca وشقُوبية Segovia وشنت منكش Simancas ، وإن لم يعلن ضمها إلى دولته ، إنما صارت مناطق عازلة ، تعيش فيها أعداد من المسلمين والنصارى الذين تراوح ولاؤهم بين الدولة الإسلامية والدولة النصرانية ، بل بين الإسلام والنصرانية .

ويشغل عهد الفونسو الثانى الملقب بالعفيف el Casto (٧٩١ ـ ٨٤٢) مرحلةً هامةً فى تاريخ المملكة النصرانية ، فقد سعى هذا الملك إلى اجتناب الدخول فى حرب طويلة مع المسلمين ، وكانوا قد نشطوا فى الجهاد ، فانتقل بعاصمته من كانجاس القريبة من تخومه معهم إلى أُبيط Oviedo البعيدة عنهم،

---

(١) أو منهو Minho .

ووثق علاقاته مع الفرنجة فى عهد امبراطورهم شارلمان Charlemagne (٧٦٨ـ٨١٤) ، واعتبر نفسه تابعاً له .

على أن أهم الأحداث فى عصر هذا الملك هو الأسطورة الخاصة باكتشاف قبر القديس يعقوب الحوارى فى موضع بناحية جليقية فى سنة ٨٣٥ ، فأمر الملك بابتناء كنيسة فوق القبر ، تحولت بعد حين إلى كاتدرائية ، نشأت حولها مدينة شنتيا قُب المقدسة Santiago de Compostela . وأضحت هذه المدينة محجاً لنصارى إسبانيا ، بل لنصارى من خارج إسبانيا وأضحت لشنتياقب مكانة كبيرة عند الإسبان وراية يخوضون تحتها معاركهم ضد المسلمين ، ومن ألقابه التى عرف بها Matamoros أى قاتل المسلمين .

هيأت عقيدة شنتياقب قدراً من الوحدة الفكرية بين النصارى الإسبان ، وأعانت على تكريس التوحد فى جزيرة تميل بطبيعتها إلى التعدد .

كان من حظ المملكة النصرانية أن بلاد الأندلس عاشت فى أواخر القرن التاسع وأوائل القرن العاشر فى فتنة ، لم يكن سلطان الأمير الأموى خلالها يجاوز قرطبة وأحوازها فى أحيان كثيرة ، مما هيأ الفرصة لألفونسو الثالث أو الكبير el magno (٨٦٦ ـ ٩١٠) لأن يتوسع بحدود مملكته ، فضم إليها القواعد والمدن التى سبق أن خربها أسلافه فى وادى دويره وأهمها سمورة ، وشرع فى تعمير الإقليم بين نهرى المنيو والدويره ، وأنشأ عدداً من القلاع لدى حدوده الشرقية ، لمواجهة هجمات المسلمين ، ومن هنا نشأت قشتالة Castilla وهى بلاد القلاع ، وأنشأ عدداًمن الأديرة ، وشجع هجرة نصارى الأندلس المعاهدين إلى هذه الأراضى ، وأفاد بمستواهم الحضارى المرتفع ، وكان هؤلاء يحصلون على براءات استيطان Cartae Populationis ، من الملك تتضمن حق الحيازة والسير وفق أعرافهم وقوانينهم ، وعدم التبعية لأحد سوى الملك نفسه .

لم يقف ألفونسو عند هذا الحد ، فقد انصرف إلى تشجيع الثوار الخارجين على الدولة الإسلامية ، خصوصاً فى طُلْيطُلَة Toledo وبَطَلْيَوْس Badajoz ، كما يروى إنه تحالف مع عمر بن حفصون كبير هؤلاء الثوار فى جنوبى الأندلس ، كذلك قام بعدة غزوات لإقليم الغرب Algarve ، ووصل إلى أبعد مما وصل إليه أسلافه ، لذا عرف ألفونسو بعد موته فى سنة ٩١٠ بالإمبراطور el imperator .

فى أعقاب موت ألفونسو الثالث ، ونتيجةً لاتساع حدود دولته ، انتقلت العاصمة من أبيط إلى ليون ، وصارت مملكة أشتوريش ـ جليقية ، تدعى منذ ذلك الوقت بمملكة ليون .

كان لما حققه ألفونسو الثالث من نجاحات دافعًا ، لأن تنشط الدولة الإسلامية فى عصر الخلافة ، لوضع حد لهذه النجاحات ، وخاض عبد الرحمن الناصر (٣٠٠/٩١٢ ـ٣٥٠/٩٦١) عدة حروب ضد مملكة ليون وغيرها من الممالك النصرانية ، لكنه أصيب بنكبة كبيرة فى معركة الخندق Alhandega فى سنة ٣٢٧/٩٣٩ على مقربة من أسوار مدينة شنت منكش .

بيد إن ما أعقب هذه المعركة من صراعات على العرش فى ليون ، هيأ الفرصة لأن يزيل الناصر آثار هزيمته فى الخندق ، واستعاد المسلمون ما سبق أن فقدوه من مواقع ، بل إنهم تدخلوا فى هذه الصراعات لينصروا فريقًا ضد آخر . وعندما عزل سانتشو Sancho البدين (٩٥٦ ـ ٩٦٦) عن ملكه ، قصد إلى قرطبة ومعه جدته طُوطة Toda الوصية على مملكة نبرة ، فأيده الناصر بعون عسكرى استطاع عن طريقه أن يعود إلى عرشه لكنه نكث بوعده أن يسلم إلى المسلمين بعض حصونه ، مما أدى إلى أن اجتاحت جيوشهم أراضى مملكته ، واضطر سانتشو إلى أن يرسل وفداً من قبله إلى قرطبة فى طلب الصلح .

فى أواخر القون العاشر وأوائل القرن الحادى عشر استبد المنصور بن أبى عامر وولده المظفر بالخلافة الأموية ، وأراد أن يضفى قدراً من الشرعية على استبداده بحملاته التى زادت على الخمسين إلى ممالك الشمال ، وكانت أكثر هذه الحملات إلى مملكة ليون . وفى حملته الثامنة والأربعين فى سنة ٩٩٧/٣٨٧ اقتحم مدينة شنتياقب ، ثم عاد إلى قرطبة ، وقد حمل معه الأسرى والغنائم ، ومنها أبواب الكنائس ونواقيسها ، ليستخدمها فى الجزء الذى زاده فى جامع قرطبة .

أسفرت هذه الغزوات عن امتداد حدود الأندلس شمالاً على حساب الممالك النصرانية ، واسترد المسلمون ما سبق أن فقدوه فى عهد ألفونسو الثالث ، وصار ملوك اسبانيا النصرانية جميعهم وأمراؤها تابعين لحضرة قرطبة ، يؤدون لها الجزية ويلوذون بها ، عندما تتجدد النزاعات على العرش ، أو تتجدد النزاعات بين ليون وبين غيرها من الممالك .

هيأت الفتنة التى صاحبت سقوط الخلافة الأموية وقيام ممالك الطوائف الفرصة لأن تستعيد ليون وغيرها من الممالك الإسبانية ما فقدته من أراض قبل ذلك ، ثم اتحدت مملكتاليون وقشتالة على يدى فرناندو الأول Fernando I (١٠٣٥ ـ ١٠٦٥) وعبر هذا الملك الدويره عدة مرات ، وصعد تهديداته لممالك بطليوس وطليطلة وسَرَقُسْطَة Zaragoza ، الأمر الذى دفع حكامها لأن يؤدوا الجزية إليه ، ولم يلبث أن استولى على قُلُمْرِيَة Coimbra فى سنة ٤٥٦/ ١٠٦٤ ، ثم حاصر بَلَنسيَة Valencia ، لكنه لم يستطع اقتحامها لحصانتها ، وعاد إلى بلاده ، حيث مات فى العام التالى .

نتيجةً للنهضة التى بدت فى عهد فرناندو فإنه صار يعرف بالكبير والامبراطور، وأنشأ نواة لما عرف فيما بعد بالكورتيس Cortes شارك فيه النبلاء

والأساقفة وصدرت عنه قوانين لتنظيم أمور المملكة .

قبل موته قسم فرناندو مملكته بين أولاده الثلاثة ، وقد نشبت الحرب بين هؤلاء وهزم ألفونسو ملك ليون ، ولجأ إلى ملك طليطلة المسلم الذى أكرم وفادته قرابة عام كامل استطاع خلاله أن يتعرف على مواطن الضعف فى المدينة ومواطن القوة ، ثم عاد أدراجه إلى بلاده واسترد ملكه ، واستولى كذلك على ملك أخويه، وبذا عادت ليون وقشتالة مملكةً واحدة .

ما كادت تستقر الأمور فى يدى ألفونسو السادس ، حتى شرع فى الاستيلاء على طليطلة ولم يراع ما سبق أن أسداه إليه ملكها ، وحاصرها إلى أن سقطت فى يديه فى سنة ١٠٨٥/٤٧٨ ، وما أن دخلها حتى جعلها عاصمةً لمملكته ، وأعاد إليها صفتها القديمة كمركز للنصرانية فى إسبانيا ، وحول مسجدها الجامع إلى كنيسة جامعة (كاتدرائية) .

كان لاتخاذ طليطلة عاصمة لمملكة ليون ـ قشتالة دلالة رمزية ، باعتبارها العاصمة القديمة لكل إسبانيا، كما أن قربها من تخوم المسلمين ، شكل حافزاً لمواصلة النضال ضدهم ، وأعلن الملك نفسه امبراطوراً للنصارى والمسلمين ، وصار يدعى فى كتبه لأهل الأندلس بذى الملتين .

كان لسقوط طليطلة وقع كبير على المسلمين ، فقدكانت هذه المدينة إحدى مدن الأندلس الأربع الكبار ـ قرطبة ، إشبيلية ، سرقسطة ، طليطلة ـ وزاد من وقع هذا السقوط سعى ألفونسو لأن يستولى على سرقسطة ، فحاصرها بالفعل ، لكنه اضطر إلى رفع الحصار ، لدى علمه بمقدم المرابطين .

استطاع المسلمون المتحدون ـ أندلسيين ومغاربة ـ أن يحققوا انتصاراً عظيماً على ألفونسو فى معركة الزلاقة Sagrajas فى سنة ١٠٨٦/٤٧٩ ، لكنهم لم يستثمروا انتصارهم هذا فى استرداد طليطلة ، ودبت الخلافات بينهم ، مما اضطر

يوسف بن تاشفين إلى إزالة ملوك الطوائف ـ فى معظمهم ـ لتصبح الأندلس جزءاً من دولته الكبيرة .

عاود ألفونسو الظهور بالساحة الأندلسية ، وعاود المرابطون هزيمة جيشه فى أُقْليش Uclés فى سنة ١١٠٨/٥٠١ ، وفى هذه المعركة فقد ولده الوحيد سانتشو ، وسبعة من قوامسه ، لذا دعيت هذه المعركة بمعركة القوامس السبعة La batalla de los siete condes ، ومات الملك فى العام التالى غمًا .

شهد عصر ألفونسو السادس ظهور السيد القنبيطور el Cíd el Campea-dor ، وهو فى الأصل نبيل من أتباعه اختلف معه ، ثم صار يعمل لحسابه ، وضم جيشه مسلمين ونصارى ، واستولى على بلنسية فى سنة ١٠٩٤/٤٨٧ ، وحكمها عدة سنوات إلى أن مات فاستردها المرابطون .

خلفت أُورّاكا Urraca أباها فى حكم مملكة ليون ـ قشتالة ،وتزوجت بألفونسو الأول (المحارب) ملك أرغونة ، لكن هذا الزواج لم يقدر له أن يستقر، بسبب تدخل ألفونسو هذا فى شئون قشتالة ، مما أثار المشاعر الوطنية بها ، ونشبت حرب بين المملكتين ، لم تنته إلا فى عهد ألفونسو السابع ، وهو ولد هذه الملكة من زواج سابق .

دخل ألفونسو السابع ، ويعرف أيضًا بألفونسو رايمونديث Alfonso Raimúndez [1] (١١٢٦ ـ ١١٥٧) فى حروب أخرى مع نبلاء قشتالة الذين كانوا ينزعون إلى الإستقلال ، ومع خالته تيريسا Teresa الوصية على ولدها أمير البرتغال ، وانتهت هذه الحروب إلى أن صار الفونسو سيداً لإسبانيا

(١) ويعرف عند المسلمين بابن رُمُنْد.

النصرانية ، واتخذ لقب الإمبراطور أو القيصر منذ سنة ١١٣٥ ، وعرف عند المسلمين بالسُليطين .

انصرف ألفونسو بعد تتويجه لغزو الأندلس، وكانت أمور المرابطين قد اضطربت بها ، ونشبت ضدهم ثورات فى نواح عدة ، واستنصر بعض هؤلاء الثوار بالقيصر ، فوجدها فرصةً لأن يستولى على مواقع عدة ، ووصل بغاراته إلى أحواز قرطبة وإشبيلية وغرناطة Granada ، واستطاع بمعونة المدن الإيطالية أن يستـــولى فى سنة ١١٤٧/٥٤٢ على الْمَرِيَّة Almería ،كبرى الموانى الأندلسية، وكان لاستعادة الموحدين لها بعد عشر سنوات . أثرها فى أن مات بفجيعته فى فقدها .

عند وفاة القيصر فى سنة ١١٥٧ ، ورثه فى ليون ولده فرناندو الثانى ، (١١٥٧ ـ ١١٨٨) ، وبدأ نجم هذه المملكة يدوى ، بعد أن انفصلت عنها قشتالة ، ونشبت نزاعات بين المملكتين ، كما نشبت نزاعات أخرى بين ليون والبرتغال ، مما أفضى إلى عدم مشاركة ليون فى معركة العقاب Las Navas de Tolosa ، وإن شاركت فى جنى ثمرات النصر الكبير الذى أحرزه النصارى فى هذه المعركة ، فاستولى ألفونسو التاسع ملكها (١١٨٨ ـ ١٢٣٠) على ماردة Mérida وبطليوس ، ثم مات فى سنة ١٢٣٠ لتئول مملكته إلى ولده فرناندو الثالث ملك قشتالة ، واختفت مملكة ليون ، ولم يعد لها وجود سياسى ، إذ أضحت جزءاً من مملكة قشتالة .

2 ـ مملكة قشتالة : ـ

فى أواخر القرن التاسع إمتدت مملكة ليون جنوباً وشرقاً على حساب المسلمين رصاحب هذا الامتداد انشاء عدد من القلاع فى القســم الشمــالى

من الميسيتا الإسبانية المعروف باسم بردوليا Bardulia ، ومهد ذلك لظهور إمارة قشتالة ، وهى بلاد القلاع التى كثيراً ما يتردد ذكرها ، مضافاً إليها أَلْبَة فى الحوليات الإسلامية ، وصارت لها عاصمتها الخاصة بها وهى بُرغش Burgus .

لما كانت قشتالة تشكل موقعاً أمامياً ازاء الأندلس ، فإن ملوك ليون منحوا زعماءها قدراً من الاستقلال ، وأتاحوا للمهاجرين إليها خصوصاً المستعربين امتيازات واسعة ، لذا شعر أهل قشتالة بتميزهم عن سائر أهل ليون وتمايزهم ، وكان للصعوبات الحياتية التى صادفوها أثرها فى أن اتسموا بقدر كبير من الصلابة والصلافة والعناد .

بدأ نبلاء قشتالة فى بداية القرن العاشر ينزعون إلى الاستقلال عن المملكة الأم ليون ، وقادهم فى هذا النزوع فرنان جونثالث Fernán González المعروف عند المسلمين بفرّان غُنصالص (٩٢٣ ـ ٩٧٠) فقد انتهز فرصة الاضطرابات التى اجتاحت مملكة ليون فى منتصف القرن العاشر ، وأعلن استقلاله بقشتالة ، ولكى يؤكد شرعيته قام بغارات على الأراضى الإسلامية المجاورة ، مما دفع الخليفة الحكم المستنصر (٣٥٠/٩٦١ ـ ٣٦٦/٩٧٦) لأن يجتاح بجيوشه الإمارة الوليدة ، فجنح أميرها إلى مسالمة المسلمين إلى أن مات فى سنة ٩٧٠ .

مما يجدر ذكره أن فرنان جونثالث نسجت حول حياته ملحمة شعرية ، تقترب فى شهرتها من ملحمة السِّيد ، كما نسجت حوله قصص وحكايات شعبية ، جعلت من هذا الأمير بطلاً قومياً ، يتغنى بسيرته أهل قشتالة .

إبان غزوات المنصور بن أبى عامر وولده المظفر ، عانت قشتالة كغيرها من الممالك الإسبانية من هذه الغزوات ، وأضحت ـ مثل هذه الممالك ـ تابعةً لحكومة قرطبة ، تؤدى لها الجزية .

فى سنة ١٠٢٨ مات أمير قشتالة دون وريث ، فآلت أمورها إلى إلى فرناندو ابن سانتشو الكبير ملك نبرة ، وقد صار فرناندو الأول هذا ملكا لليون ـقشتالة فى سنة ١٠٣٥ ، واختفت قشتالةً لكيان سياسى مستقل نحو مائة سنة ، لكن أهلها قاموا بدور رئيسى فى سياسة مملكة ليون ، خصوصاً وأن طليطلة التى صارت عاصمة لهذه المملكة تقع داخل قشتالة الجديدة Castilla la nueva .

خلال هذه الفترة لم تهدأ بقشتالة النزعات الانفصالية من جانب نبلائها كآل لارا Lara وآل كاسترو Castro ، الذين شاركوا فى النزاعات على العرش داخل مملكة ليون نفسها .

استردت قشتالة استقلالها عند وفاة القيصر الفونسو السابع فى سنة ١١٥٧ ، ولم تلبث أن صارت كبرى الممالك الإسبانية ، واستمرت عاصمتها فى طليطلة ذات التاريخ العريق واستقرت بها جماعات عسكرية دينية Orodones Mili-tares ، مثل جماعة قلعة رباح Calatravá التى نهضت بدور كبير فى الدفع بعجلة الاسترداد .

فى سنة ١١٥٨ صار ألفونسو الثامن ملكا لقشتالة ، واتجهت سياسته نحو التحالف مع الفونسو الثانى ملك أرغونة ضد مملكة نبرة ، وعلى ذلك اقتطع من هذه المملكة الأخيرة بعض مدنها ، ثم اتفق معه فى معاهدة كاثولا Cazola فى سنة ١١٧٩ على تحديد ما يخص مملكتيهما من أراض إسلامية ، يتوقع الاستيلاء عليها ، ثم قام بغارات على هذه الأراضى ، وصل بعضها إلى قريب من قرطبة .

كان رد فعل المسلمين هو عبور المنصور الموحدى (٥٨٠/١١٨٤ ـ ٥٩٥/١١٩٩) البحر إلى الأندلس ، ودارت بينه وبين ألفونسو الثامن معركة الأرَك Alarcos الشهيرة فى سنة ٥٩١/١١٩٥ ، وقد أسفرت عن هزيمة ساحقة لألفونسو ، ولاذ مع قليل من جنده بطليطلة .

لم تسفر الهزيمة عن نتائج كبيرة على مسيرة الاسترداد ، وفى الوقت نفسه

سعى ألفونسو إلى أن يزيل عار هذه الهزيمة ، فوثق تحالفه مع أرغونة ، وتصالح مع نبرة وليون ، وأتته أجناد من إسبانيا وخارجها ، فتهيأ له جيش كبير ، خاض به معركة العقاب فى سنة ٦٠٩ / ١٢١٢ ، حيث هزم المسلمون هزيمةً لم تقم لهم بعدها قائمة ، وكاد الخليفة الناصر (١١٩٩/٥٩٥ ـ ١٢١٣/٦١٠) أن يفقد حياته إبانها .

مات ألفونسو الثامن فى سنة ١٢١٤ بعد حكم استطال ستةً وخمسين عاماً، صارت قشتالة خلالها سيدة الممالك الإسبانية ، وحسمت حرب الاسترداد على نحو نهائى ، كما أصدر مجموعة قوانين بلدية Fueros ، وأنشأ أول جامعة إسبانية هى جامعة بالنثيا Palencia ، أتى إليها أساتذة من فرنسا وإيطاليا ، كما أنشأ عدداً من الأسقفيات والديارات الضخمة ومنها دير برغش .

خلف ألفونسو الثامن ولد له صغير مات بعد يسير ، لينتقل الملك إلى حفيده (لابنته) فرناندو الثالث (١٢١٧ ـ ١٢٥٢) . وعند وفاة أبيه الفونسو التاسع ملك ليون فى سنة١٢٣٠ جرى ضم مملكة ليون لتصبح جزءاً من مملكة قشتالة .

فى عهد فرناندو الثالث ملك قشتالة وخايمه الأول ملك أرغونة (١٢١٣ ـ ١٢٧٦) ، استمر التنسيق بين المملكتين فى الاستيلاء على ما تبقى للمسلمين فى بلاد الأندلس ، فاختص فرناندو بالموسطة ، واختص خايمه بالشرق . وهكذا سقطت قرطبة ـ عاصمة الخلافة التالدة ـ فى سنة ١٢٣٦/٦٣٣ ، وعاد فرناندو بما سبق أن سلبه المنصور بن أبى عامر فى غزاته لشنتياقب من أبواب وأجراس على ظهور الأسرى المسلمين ، حتى موضعها القديم ، ثم استولى على جيان Jaén فى سنة ١٢٤٦/٦٤٣ ، وأخيراً إشبيلية فى سنة ١٢٤٨/٦٤٦ ، وانتقل الملك إلى هذه المدينة ، وجعلها عاصمةً لدولته بدلاً من طليطلة ، وانزوى ما تبقى من أشلاء الأندلس فى مملكة صغيرة هى غرناطة . وقبل أن يموت فرناندو

فى سنة ١٢٥٢ كان أسطوله يتهدد الشواطئ المغربية .

اشتهر فرناندو بانشائه جامعة شَلَمَنْقَة Salamanca التى تزعمت لعدة قرون جامعات شبه الجزيرة ، كما اشتهر كذلك بمجموعته القانونية التى أكملها ولده ألفونسو العاشر ، ودعيت بالبنود السبعة Las Siete Partidas، وصارت له مكانة خاصة فى تاريخ قشتالة ، إذ اعتبره أهلها أعظم ملوكها ، وبعد أربعة قرون رسمته البابوية قديساً .

عند وفاة فرناندو الثالث خلفه ولده ألفونسو العاشر الملقب بالعالم el sabio (١٢٥٢ ـ ١٢٨٤) وبدا فى بداية عهده ملكاً صليبياً سوف يواصل حركة الاسترداد التى تدافع زخمها فى عهد أبيه ، فاستولى على لَبْلَة Niebla ومواقع غيرها فى الغرب وقرطاجنة Cartagena فى الشرق ، بل أنه عبر البحر فى سنة ١٢٦٠/٦٥٨ ، وأغارعلى مدينة سَلا فى المغرب الأقصى ، وعاد مثقلاً بالغنائم، كما أقمع ثورة المدجنين فى المدن المستردة حديثاً ١٢٦٤/٦٦٢ ـ ١٢٦٥/٦٦٤ ، وأدخل مرسية Murcia فى حكمه .

على أن الأحوال العامة فى قشتالة ، بدأت بدورها تضطرب فى عهد الفونسو العاشر ، فالتقدم السريع للاسترداد أدى ألى أن آلت إلى النبلاء أراض واسعة ، زادت من قوتهم ودفعتهم إلى مناوأة الملك ، وكان هذا بدوره متأثراً بفكرة الحق المقدس للملوك ، وهى فكرة رومانية ، جرى إحياؤها مع إحياء القانون الرومانى فى عصره .

لم يوفق ألفونسو فى صراعه ضد النبلاء ، بسبب اهتماماته العلمية الواسعة التى تضعه فى مصاف كبار المثقفين ، وبسبب محاولاته اتخاذ اللقب الامبراطورى [١]. وما ترتب على ذلك من نفقات مالية باهظة . وأفاد النبلاء من

(١) ينتمى ألفونسو العاشر من ناحية أمه إلى أسرة هوهنشتاوفن الألمانية التى احتكرت تاج الامبراطورية الرومانية المقدسة سنوات طويلة .

هذا كله ، وأفادوا أيضاً من النزاع بين الملك وبين ولده ألفونسو الملقب بالباسل el bravo ، فانضموا إلى هذا الأخير ، وأيدتهم البرتغال وأرغونة ،وعاشت قشتالة سنوات من الحرب الأهلية استطالت حتى قريب من موت ألفونسو فى سنة ١٢٨٤ .

الطريف فى هذا الصراع أن بنى مرين فى المغرب تدخلوا فى هذه الحرب إلى جانب ألفونسو ، فى حين تدخل بنو الأحمر فى غرناطة إلى جانب ولده سانتشو .

تحدد وفاة ألفونسو العاشر نهاية مرحلة من تاريخ قشتالة ، وبداية مرحلة جديدة من هذا التاريخ ، فقد انتهى العصر البطولى ، وهو العصر الذى شهد ذروة حركة الاسترداد ، وبدأ عهد جديد دام مائتى عام ، ركدت خلاله هذه الحركة، ودبت داخل قشتالة حروب أهلية على التاج ، أو حروب أهلية بين النبلاء والتاج . فما جرى عليه العرف من عدم تقسيم المملكة بين أبناء الملك ـ بخلاف ما كانت عليه الحال فى أرغونة ـ أدى إلى كثرة عدد الطامحين إلى التاج ، ولا يخفى أن الملوك فى سعيهم إلى إحياء القانون الرومانى ، إنما كانوا يسعون إلى إحياء السلطة المطلقة ، وإلى أن يختص الملوك وحدهم بهذه السلطة .

لا يخفى كذلك أن توسط قشتالة بين ممالك شبه الجزيرة ، جعلها تدخل فى علاقات متشابكة مع جيرانها كانت فى أحيان كثيرة علاقات حرب ، ولا يخفى أيضاً ما جرى من نهوض لطبقات اجتماعية جديدة من أهل المدن سعت إلى أن تؤكد وجودها ازاء النبلاء ، ومع إنها كانت تتحالف فى أحيان مع الملوك ، إلا إنها كانت تتحالف فى أحيان أخرى ضدهم .

أعان على هذه الحال أن المسلمين صارت لهم مملكة واحدة ذات سيادة واحدة فى غرناطة ، صحيح إنها كانت مملكة صغيرة ، إلا أنها اكتظت بسكانها

المحليين وسكان آخرين وافدين من القواعد الأندلسية الذاهبة ، ثم إن هذه المملكة ظلت ولمدى يصل إلى قرابة المائة العام مدعومةً ـ على نحو أو آخر ـ بقوة بنى مرين حكام المغرب الأقصى ، مما أفضى إلى حال من الاستقرار النسبى لحدود قشتالة مع المسلمين .

كانت الحرب ضد المسلمين فرصةً ، لأن يصرف أهل قشتالة ـ وهم أوفر الشعوب الإسبانية حيويةً ، وأكثرهم صلابة وخشونة ـ طاقاتهم العسكرية التى جبلوا عليها فلما توقفت هذه الحرب أو كادت ، فإنهم لم يجدوا وسيلةً لتصريف هذه الطاقات سوى الاقتتال الأهلى .

عادت الحرب الأهلية مسيرتها فى قشتالة ، لأن ألفونسو الهُلْبَة [(١)] Alfonso de la Cerda كان يعتبر نفسه الوريث الشرعى لجده ألفونسو العاشر ، لذا فقد أعلن ثورةً امتدت سنوات طويلة فى عهود سانتشو الرابع (١٢٨٤ ـ ١٢٩٥) وفرناندو الرابع (١٢٩٥ـ١٣١٢) وألفونسو الحادى عشر (١٣١٢ ـ ١٣٥٠) وتدخلت فى هذه الحرب أرغونة والبرتغال وفرنسا ، كما تدخلت فيها المغرب وغرناطة ، وظلت هذه الحرب مشتعلةً إلى أن كف ألفونسو عن ادعاءاته فى سنة ١٣٣١ .

كان لهذه الحرب أثرها فى حفز دينيس Dinis ملك البرتغال إلى استقطاع بعض أطراف جليقية ، وحفز خايمه الثانى ملك أرغونة إلى استقطاع بعض أطراف مرسية ، كما كان لها أثرها فى بطء حركة الاسترداد ، فاقتصرت على الاستيلاء على طريف Tarifa فى سنة ١٢٩٢/٦٩١ ، وجبل طارق Gi-braltar فى سنة ١٣٠٩/٧٠٩ وفى سنة ١٣٣٣/٧٣٣ استرد المسلمون هذا الموقع الأخير .

---

(١) أى ذو الشعر الغليظ .

استقرت الأحوال فى قشتالة على نحو طيب ، عندما بدأ ألفونسو الحادى عشر فى ممارسة سلطاته بعد انتهاء الوصاية عليه ، وأظهر كفاءةً فى قمع النبلاء المتمردين عليه ، ومنح البلديات الناشئة امتيازات تحميها من النبلاء ، وأصلح الخزانة ، وعقد صلات طيبة مع البرتغال وأرغونة ، وكان لهذا أثره فى الانتصار الذى أحرزه على المسلمين عند نهر سلادو el Río de Salado فى سنة ١٣٤٠/٧٤١ ، واستيلائه على الجزيرة Algeciras بمعاونة أرغونة فى سنة ١٣٤٤/٧٤٤ ، ثم حصاره لجبل طارق فى سنة ١٣٤٩/٧٥٠ ، حتى كاد يسقط فى يديه لولا الوباء المعروف بالموت الكبير La gran mortandad (أو الأسود)الذى أودى بحياة كثير من جنوده ،كما أودى بحياته فى سنة ١٣٥٠ .

عاودت دوامة العنف مسيرتها فى قشتالة ، بل إنها امتدت إلى سائر أنحاء شبه الجزيرة ، فقد نشب نزاع بين بدرو القاسى Pedro el cruel (١٣٥٠ ـ ١٣٦٩)[١] ، وبين إخوانه الغير الشرعيين ، وعلى رأسهم أخوه إنريكى دى تراستامارا Enrique de Trastámara ، شاركت فيه أرغونة والبرتغال وفرنسا وانجلترا ، كما شاركت فيه غرناطة . وسعى البابا ـ على غير جدوى ـ لأن يضع حداً لهذه الدوامة التى استغرقت عهد بدروكله حتى هزيمته فى معركة مونتييلMontiel فى سنة ١٣٦٩ وذبحه على يدى أخيه .

كان لهذه الحرب وما تلاها أثرها فى تباطؤ حركة الاسترداد ،لمدى يقترب من المائة العام ، لأن المسلمين استردوا الجزيرة الخضراء فى سنة ١٣٦٨/٧٦٩ ، ولم تحقق قشتالة إنجازاهاما ، سوى الاستيلاء على أنتقيرة Antequera فى سنة ١٤١٠/٨١٣ .

---

(١) ويعرف عند المسلمين بدون بطره .

زاد من اضطراب الأحوال ، ما جرى من مضاعفات للموت الأسود ، فقد تناقصت أعداد الصناع ، مما دفعهم لأن يطالبوا برفع أجورهم ، وفى الوقت نفسه رفع أصحاب الحرف أسعار منتجاتهم ، مما أهم الكورتيس لأن يصدر قانون الصناع Ordenamiento de menestrales لإجبار هؤلاء على قبول الأجور السابقة للوباء ، وإلى تثبيت الأسعار على السلع .

تشكل ولاية إنريكى دى تراستامارا فى سنة ١٣٦٩ بداية أسرة جديدة حكمت فى مملكة قشتالة عدة قرون ، وسعت إلى فرض هيمنتها على كل شبه الجزيرة ، ونجحت ـ عن طريق المصاهرة أو عن طريق الحرب ـ فى أن تفرض أحد أبنائها ملكًا على أرغونة ، وفى أن تفرض آخر ـ وإن كان لعدة سنوات ـ ملكًا على نبرة ، بل إنها حاولت أن تضم البرتغال لكنها لم توفق فى هذا المسعى .

عاودت الحرب الأهلية مسيرتها فى قشتالة ، فقد ولى أمورها ملوك غير أكفاء ، يفتقرون إلى المواهب ، أو إنهم ولوا الحكم صغارًا ، وخضعوا لوصاية نبلاء أقوياء .

فى سنة ١٤٠٦ ولى الحكم فى قشتالة خوان الثانى Juan II (١٤٠٦ ـ ١٤٥٤) ، وكان له من العمر سنتان ، فخضع لوصاية عمه فرناندو دى أنتقيرة Fernando de Antequera [1] ، فأثبت كفاءةً فى إدارة شئون الدولة ، إلى أن آل إليه تاج أرغونة فى سنة ١٤١٢ . ومع أن خوان زاول مهامه كملك بعد سنوات إلا أنه خضع لتأثير ألبرودى لونا Alvaro de Luna ، وهو نبيل أعانه على الاحتفاظ بعرشه ضد أخصامه داخل قشتالة وخارجها ، وظل كذلك حتى إعدامه فى سنة ١٤٥٢ ولحق به الملك بعد سنتين .

---

(١) بسبب إستيلائه على أنتقيرة من المسلمين .

فى سنة ١٤٥٤ ولى إنريكى الرابع ، ومع أن قشتالة فى عهد استولت على جبل طارق (١٤٦٢/٨٦٧) إلا أنه كان أضعف من أبيه ، وعاود النبلاء الثورة ، ونشب صراع على خلافته ، فقد كان الملك يسعى إلى أن يستخلف ابنته الغير الشرعية خوانا ، فى حين كان فريق من النبلاء يؤيدون أخته إيسابيل Isabel ، ومع أنه أقمع هؤلاء ، حين ثاروا ضده ، إلا أنه أقر أخته وريثةً له ، فخلفته فى سنة ١٤٧٤ ، ليبدأ عهد جديد فى تاريخ قشتالة وتاريخ إسبانيا معًا .

3 ـ مملكة البرتغال : ـ

إلى الغرب من شبه الجزيرة ، يقع إقليم عرف عنه الرومان بلوسيتانيا Lusi-tania (لجدانية عند العرب) ، وكان لهذا الإقليم خصائصه التى تجعله متميزاً عن غيره من أقاليم إسبانيا ، وحافظ على هذا التميز فى عصر القوط .

عند فتح المسلمين إسبانيا ، دخل معظم هذا الإقليم فى طاعتهم ، واشتهرت من مدنه ماردة ، قلمرية ، أشبونه Lisboa ، شلْب Silves ، شنترين Satarém ويابُرة Evora ، ودعوه (أوشطره الجنوبىَ) بالغرب (فى الإسبانية Algarve) .

لدى نهوض مملكة أشتوريش على حساب المسلمين ، استولت هذه المملكة على الأطراف الشمالية لإقليم لوسيتانيا ، وعلى نحو خاص مدينة برتقال Oporto ، ثم هدأت حركة الاسترداد لتعاود نشاطها فى عصر الطوائف ، فاستولى فرناندو الأول ملك ليون على بازو Viseu ولميق Lamego ، والأهم قلمرية فى سنة ١٠٦٤/٤٥٦ ، وجعلها قاعدة لولاية ، دعاها Terra Portu-calensis أى أرض البرتغال Portugal ، ودعاها العرب البرتقال ، ودعوا حاكمها يصاحب قلمرية .

عندما منى ألفونسو السادس بالهزيمة فى الزلاقة فى سنة ١٠٨٦/٤٧٩ ،

عبر الحدود إلى إسبانيا نفر من الفرنسان الفرنسيين ، لنجدة إخوانهم فى الدين ، وكان من جملتهم شابان من الأسرة الفرنسية الحاكمة ، هما ريمون وهنرى ، وقد أعجب الملك بفروسيتهما ، وزوجهما ابنتيه ، فاختص ريمون بأوراكا ، واختص هنرى بتيريسا . ولدى ظفر ريمون ببعض المواقع فى البرتغال ، جعله ألفونسو حاكمًا عليها .

مات ريمون فى سنة ١١٠٧ ، بعد أن خلف من زوجته أوراكا ولده الذى صار فيما بعد ملكًا لليون باسم ألفونسو السابع ، أما هنرى فقد خلف ريمون فى حكم البرتغال ، ومنحه الملك حق الوراثة فى عقبه ، على أن يؤدى الجزية ، ويمده فى حروبه بفرقة من جنوده .

يعد أفونسو الأول هنريكيس Afonso 1 Henriques [1] (١١٢٨ - ١١٨٥) المؤسس الحقيقى لمملكة البرتغال ، ومن أجل تحقيق هذه الغاية ، كان عليه أن يدخل فى صراع مع ابن خالته ألفونسو (السابع) رايمونديث ملك ليون ، وصاحب الولاية على البرتغال . فانتهز فرصة شغل هذا الأخير بصراعاته مع نبرة ، وانتهز كذلك فرصة انتصاره على المسلمين فى بعض الوقائع، وتوج نفسه ملكًا فى سنة ١١٣٩ . ومن أجل أن يدعم استقلاله ، أعلن تبعيته للبابا ، ووعد بأن يؤدى إليه جزيةً سنوية .

ترتب على ذلك أن نشبت الحرب بين البرتغال وليون ، ودامت عدة سنوات إلى أن عقد الطرفان اتفاقًا فى سمورة فى سنة ١١٤٣ ، اعترف فيه ألفونسو السابع ملك ليون بأفونسو الأول ملكًا للبرتغال .

هدأ الصراع بين ليون والبرتغال ، حتى وفاة ألفونسو السابع فى سنة

---

(١) أى ألفونسو (بالإسبانية) بن هنرى ، ودعى عند المسلمين بابن الرِّنق (أو الرِّنك) .

١١٥٧ ، ليتجدد فى عهد خلفه فرناندو الثانى (١١٥٧ ـ ١١٨٨) وتحالف أفونسو الأول مع أرغونة ، وتردد بغارته على جليقية ، إلى أن عقد صلح بين الملكين فى سنة ١١٦٥ ، وتزوج ملك ليون بابنة ملك البرتغال .

شرع أفونسو بعد أن اطمأن إلى استقلاله فى أن ينظم أمور مملكته ، فأنشأ مجلساً ملكياً على غرار نظيره فى ليون ، وأصدر عدداً من القوانين ، ينظم بها مملكته الناشئة ، وأسس جماعة عسكرية دينية هى جماعة أفيس Avis ، أثبتت جدارتها فى حروب البرتغال مع المسلمين .

قبل أن ينتهى صراعه مع ليون من أجل الاستقلال ، بدأ أفونسو صراعاً آخر مع المسلمين من أجل التوسع .

أفاد أفونسو من الصراع بين المرابطين والموحدين ، ونجوم الثوار فى أقطار الأندلس ، فاستولى فى سنة ١١٤٧/٥٤١ على شنترين ، ثم استولى بمعونة قوات صليبية على أشبونة ، وأفاد من موقعها وحصانتها وكونها مرفئاً جيداً للسفن، وصارت فيما بعد عاصمة للبرتغال .

باستيلائه على أشبونة وصلت حدود دولة أفونسو إلى نهر تاجه ، وتطرق بعدها بغزوات جنوبيه ، وعاود الاستعانة بأسطول صليبى ، ليستولى على قصر أبى دانس Alcácer do Sal فى سنة ١١٥٨/٥٥٣ ، مما أهم الموحدين لأن يهرعوا لنجدة أهل غربى الأندلس ، لكن خليفتهم عبد المؤمن مات ، قبل أن يشرع فى العبور فى سنة ١١٦٣/٥٥٨ ، ثم شغلوا بعد ذلك بصراعات مع ابن مردنيش فى شرقى الأندلس .

عاود أفونسو غزواته فى أراضى المسلمين ، فاستولى على يابرة فى سنة ١١٦٥/٥٦٢ وإن أخفق فى الاستيلاء على بطليوس بعد ثلاث سنوات ، بسبب تدخل فرناندو الثانى ملك ليون إلى جانب الموحدين ، ثم عقد معهم هدنة

فى سنة ١١٧٣/٥٦٩ ، مدتها خمس سنوات ، عاود بعدها غزواته التى وصلت به إلى أحواز إشبيلية ، وعبرت بعض سفنه البحر لتهاجم مدينة سبتة القاعدة الأساسية للأسطول الموحدى .

أدرك الموحدون خطورة التحرك البرتغالى على الجبهة الغربية ، وتهيأ الخليفة أبو يعقوب يوسف لحملة كبيرة فى سنة ١١٨٤/٥٨٠ وجهتها مدينة شنترين ، باعتبارها القاعدة التى تنطلق منها الغزوات البرتغالية ، لكن هذه الحملة أخفقت فى تحقيق أهدافها ، ورفع المسلمون الحصار عن المدينة ، لينسحبوا ـ على نحو غير منظم ـ إلى إشبيلية ،فهلكت أعداد كبيرة منهم ، وهلك الخليفة نفسه .

بعد المعركة بشهور مات أفونسو هنريكيس ، بعد أن حكم سبعة وخمسين عاماً ، وطد خلالها دعائم دولته ، وخلفه ولده سانتشو الأول (١١٨٥ ـ ١٢١١) ، فانتهز فرصة شغل المنصور الموحدى ببعض المتاعب فى بلاد المغرب ، وعاود سياسة أبيه العدوانية ، وتطلع إلى مدينة شلب ، وهى أهم القواعد الإسلامية الباقية فى ولاية الغرب ، واستعان بأسطول صليبى ، كان فى طريقة إلى المشرق ، وحاصرها حصاراً شديداً فى سنة ١١٨٩/٥٨٥ ، إلى أن فتحها عنوةً .

كان لسقوط شلب وقع كبير عند المسلمين ، مما دفع المنصور ، لأن يستردها بعد سنتين واسترد فى اعقابها قصر أبى دانس ، وغيرها من مواقع سبق أن استولى عليها البرتغاليون ، فيما عدا يابرة .

هدأت الحرب بين البرتغاليين والمسلمين بسبب النصر الكبير الذى حققه المنصور فى معركة الأرك ٥٩١/ ١١٩٥ من ناحية ، وبسبب شغل سانتشو وولده أفونسو الثانى (١٢١١ ـ ١٢٣٢) بنزاعات مع رجال الدين الذين كان يساندهم البابا .

على أن الهزيمة المروعة التى أصابت المسلمين فى العقاب فى سنة ٦٠٩/

١٢١٢ ، وما تبعها من تفرق أمر الأندلس ، جعلت من اليسير على البرتغاليين ومن أعانهم من الجماعات العسكرية الدينية والصليبيين أن يستولوا على بقية الغرب ، وهكذا سقطت قصر أبى دانس فى سنة ٦١٤/ ١٢١٧ وشلب فى سنة ٦٤٠/ ١٢٤٢ ، وأخيراً فارُه Faro وهى شنتمرِّية الغرب Santamría de Algarve فى سنة ٦٤٧/ ١٢٤٩ ، وبذا يكون البرتغاليون قد استولوا على معظم ولاية الغرب الإسلامية ، أما ما تبقى من هذه الولاية شرقى وادى أنه Guadiana ، فقد دخل فى فتوح قشتالة ، وانتهى صراع البرتغاليين مع المسلمين فى الأندلس ، ليستمر هذ الصراع مع القشتاليين فى إسبانيا والمسلمين فى المغرب .

وإذا كانت البرتغال قد دخلت فى صراع مع ليون استمر سنوات من أجل الاستقلال وتأكيد هذا الاستقلال ، فإنها دخلت فى صراع آخر مع قشتالة، وريثة ليون من أجل ترسيم الحدود بين المملكتين إلى أن تم الاتفاق بينهما فى بطليوس فى سنة ١٢٦٧ ، بأن تسير هذه الحدود مع الوادى أنه حتى مصبه فى بحر الظلمات ، وظلت هذه الحدود ثابتةً حتى زماننا .

دخلت البرتغال بعد ذلك فى صراع آخر مع البابا الذى حاول أن يمارس الهيمنة عليها باعتبار ملك البرتغال فصلاً تابعاً له ، ووصلت به الحال إلى أن حرم عدداً من الملوك وعزلهم ، وشجع على الثورة ضدهم ، ولم تستقر العلاقات بين الجانبين إلا فى عهد دينيس Dinis (١٢٧٩ ـ ١٣٢٥) .

يعد دينيس من أكبر ملوك البرتغال ، ففى عهده تأكدت سلطة الملك إزاء النبلاء والكنيسة ، ونشطت التجارة عبر البحر ، وعنى بالزراعة ، فشجع الحيازات الصغيرة ، وحد من ملكية الكنيسة والجماعات العسكرية الدينية للأراضى ،

وجعل اللغة البرتغالية لغةً وطنيةً ، وأمر بترجمة البنود السبعة إليها ، وأسس جامعةً فى لشبونة (١٢٩٠) جرى نقلها بعد ذلك إلى قلمرية (١٣٠٨) ، وصار بلاطه من أهم المراكز الثقافية فى شبه الجزيرة ، وكان هو نفسه شاعراً غنائيًا ، وخلف لنا مجموعةً من الأشعار الغنائية متضمنة فيما عرف بالدواوين Cancioneiros .

استمرت حال الاستقرار خلال المرحلة التالية لوفاة دينيس ، رغمًا عن حروب خاضتها البرتغال مع قشتالة ، بسبب سعى هذه الأخيرة للهيمنة عليها ، لكنها أعانتها فى تحقيق الانتصار على المسلمين فى وقعة سلادو (٧٤١/ ١٣٤٠) .

فى سنة ١٣٨٥ وصلت إلى الحكم أسرة أفيس Avis وهى فرع غير شرعى من الأسرة الحاكمة ، شأنها شأن أسرة تراستامارا فى قشتالة ، وصرفت هذه الأسرة معظم جهودها للتوسع على حساب المسلمين فى بلاد المغرب ، ثم التوسع على طول الساحل الإفريقى ، ومهدت لذلك بأن شجعت بناء السفن ، ومنحت البنائين والتجار امتيازات واسعة ، فنشأت ـ من ثم ـ شركات بحرية كبيرة، وصدرت بشأنها قوانين تنظمها [١] ، وتحولت أشبونة إلى ميناء كبير ، يضم تجارًا من أنحاء مختلفة .

ترتبط هذه النهضة البحرية على نحو أساس بالأمير هنرى الملاح ، وهو أحد أبناء حنا الأول João أول ملوك أسرة أفيس (١٣٨٥ ـ ١٤٣٣).

ترتب على ذلك أن استولت البرتغال على سبته فى سنة ٨١٨/ ١٤١٥ والقصر الصغير فى سنة ٨٦٢/ ١٤٥٨ وأصيلة فى سنة ٨٧٦/ ١٤٧١ وأتبعتها

---

(١) لهذه القوانين أهمية كبيرة عند الدارسين للقانون البحرى Marine Law .

بطنجة ، وأضحت لها السيادة على الضفة الجنوبية من مضيق جبل طارق .

في الوقت نفسه واصل البرتغاليون ارتياد الشواطىء الإفريقية ، وفي سنة ١٤٨٨ وصل بارثولوميودياس Bartholomew Dias إلى رأس الرجاء الصالح ، وبعد عشر سنوات وصل ڤاسكو داجاما Vasco da Gama إلى الهند ، وفي سنة ١٤٩٤ توصلت البرتغال وإسبانيا إلى حل للمشكلات القائمة بينهما على العالم الجديد في معاهدة torديسيّاس Tordesillas التي باركها البابا .

4 ـ مملكة نَبَرّة :

في سعي البَشْكُنْس الدائب نحو الاستقلال ، نشأت في بداية القرن التاسع لدى سفوح البرتات الجنوبية إمارة نَبَرّه Navarra ، وعاصمتها بنبلونه Pam-peluna ، وأشهر أمرائها في فجر تاريخها هو إنييجو إنيجيث أريستا Iñigo Iñiguez Arista (٨١٠ ـ ٨٥١) الذى عرفه المسلمون باسم ينقُه بن ونّقُه، وارتبطت أسرته بروابط النسب مع أسرة بنى قسّى ، وهى أسرة مسلمة مُولّدة من أصل نصراني ، سيطرت على بعض أنحاء الثغر الأعلى الأندلسي طيلة القرن التاسع .

إبان الفتنة التي عمت أقطار الأندلس في أواخر عصر الإمارة ، استطاع سانتشو الأول Sancho I Garcés (٩٠٥ـ ٩٢٦) أن يتوسع بحدود دولته على حساب المسلمين ، وصارت نبرة مملكة ، ضمت بعد سنوات إمارة أرغونة المجاورة ، وأضحت القوة النصرانية التالية في شبه الجزيرة بعد مملكة ليون .

على أن النهضة التي جرت بالأندلس في عصر الخلافة الأموية والدولة العامرية ، وضعت حداً لتوسع هذه المملكة ، بل إنها تعرضت لغزوات المسلمين

واجتياحهم غير مرة ، واقتحم المنصور العامرى العاصمة بنبلونة ، واضطر سانتشو الثانى Sancho II Garcés (٩٧٠ ـ ٩٩٤) إلى مهادنته ، وزوجه ابنته التى صارت أمًا لولده عبد الرحمن الذى اشتهر بشنجول Sanchuelo (وهو تصغير شانجة Sancho ، كما إنه زار قرطبة فى سنة ٣٨٢/ ٩٩٢ ، ليعبر عن ولائه للمنصور ، ويجدد العهد معه.

فى سنة ١٠٠٠ ولى سانتشو الثالث الكبير Sancho III Garcés el mayor واستطاع عن طريق المصاهرة ، وعن طريق الحرب ، أن يفرض سيطرته على مملكة ليون وإمارة قشتالة ، وتلقب بملك إسبانيا ثم بالإمبراطور . ولدى وفاته فى سنة ١٠٣٥ قسمت مملكته بين ولده ، ودارت حرب بين هؤلاء إلى أن لقى جارثيا الثالث García III Sánchez (١٠٣٥ ـ ١٠٥٤) ملك نبرة مصرعه على يدى أخيه فرناندو الأول ملك ليون .

خلال السنوات التالية صارت مملكة ليون هى المحرك الرئيسى للأحداث فى إسبانيا النصرانية ، وتوارى نجم مملكة نبرة ، فسعت إلى التحالف مع مملكة أرغونة الوليدة ، لكن هذه المملكة الأخيرة تآمرت مع ليون ضدها وتقاسمتاها ، واختفت مملكة نبرة فى سنة ١٠٧٦ .

عند وفاة ألفونسو المحارب ملك أرغونة فى سنة ١١٣٤ ، عاودت مملكة نبرة الظهور مرةً أخرى على يد جارثيا الرابع García IV Ramírez (١١٣٤ ـ ١١٥٠) وهو حفيد بعيد لسانتشو الكبير ، وخاض نضالاً امتد سنوات ضد رامون برنجير أمير قطالونيا (ثم ملك أرغونة) والقيصر ألفونسو السابع ملك ليون ، واتبع فى هذا الشأن سياسةً حذرةً ، مما أفضى إلى الصلح فى عام ١١٤٤ ، وحافظت نبرة على استقلالها ، وشاركت القيصر حروبه ضد المسلمين ،

واستيلاءه على ثغر ألمرية منهم فى سنة ٥٤٢/ ١١٤٧ .

بعد وفاة جارثيا الرابع ، عاد الصراع من جديد بين نبرة من ناحية وقشتالة وأرغونة من ناحية أخرى ، فاتجهت نبرة إلى التحالف مع ليون ، ثم اتجهت إلى التحالف مع المسلمين ، وارتحل سانتشو السابع (١١٩٤ ـ ١٢٣٤) المعروف بالقوى el Fuerte إلى المغرب ، ليعقد حلفاً مع المنصور الموحدى .

أثارت هذه الزيارة إستياء البابا ، مما أفضى إلى أن استقطعت قشتالة وأرغونة أجزاءاً من نبرة ، ثم سعى البابا إلى رأب الصدع بين الممالك الإسبانية ، وشاركت نبرة غيرها من هذه الممالك فى معركة العقاب ٦٠٩/ ١٢١٢ التى انتهت إلى هزيمة المسلمين .

فى المرحلة التالية لمعركة العقاب ، صارت قشتالة وأرغونة هى أقوى الممالك الإسبانية ، وتضاءل شأن مملكة نبرة وتقلص حجمها ، وتحولت إلى مملكة صغيرة، ارتبطت ـ على نحو عام ـ بالسياسة الفرنسية ، خصوصاً بعد أن آل حكمها إلى بيت فرنسى [(١)] ، ثم زالت عند ترسيم الحدود بين فرنسا وإسبانيا فى مطلع العصور الحديثة ، ويعد البشكنس فى أيامنا ورثة هذه المملكة الذاهبة .

---

(١) فى الفترة ١٤٢٥ ـ ١٤٧٩ حكم فى نبرة أحد أمراء أسرة تراستا مارا الحاكمة فى قشتالة وأرغونة وهو خوان الذى آل إليه حكم أرغونة فى سنة ١٤٥٨ وهو والد فرناندو الكاثوليكى آخر ملوك أرغونة وأول ملوك إسبانيا .

5 ـ إمارة قطالونيا :

فى سنة ٧٦٨ ولى عرش الفرنجة الملك كارل الذى أضحى فى سنة ٨٠٠ إمبراطوراً رومانياً ، باسم كارل الكبير ، واشتهر فيما بعد بشارلمان (٧٦٨ ـ ٨١٤) .

تحت دعاوى إحياء الإمبراطورية الرومانية فى الغرب ، سعى شارلمان من أجل أن يضم إسبانيا إلى دولته ، فغزاها فى سنة ٧٧٨ ، ولكن هذه الغزوة أخفقت ، وأصيبت مؤخرة جيشه بنكبة كبيرة عند عبورها جبال البرتات فى طريق العودة ، وخلدت هذه الغزوة أغنية رولان La Chanson de Roland ، وهى الملحمة الوطنية العظمى لفرنسا .

على أن أطماع شارلمان لم تنته فى إسبانيا ، فقد انتهز فرصة خروج بعض الثوار فى مناطق الثغور الإسلامية ، وسير جيشاً إلى برشلونة فى سنة ١٨٥/ ٨٠١، جعل عليه ولده لويس ، فاستطاع أن يقتحم المدينة ، التى صارت قاعدة لإقليم تابع لدولة الفرنجة دعى بالثغر الإسبانى La Marca Hispánica ، وتحددت وظيفة هذا الثغر فى كونه حاجزاً ضد غزوات المسلمين لأراضى الإمبراطورية الفرنجية من ناحية ، وفى كونه قاعدةً للتوسع فى شبه الجزيرة من ناحية أخرى .

بعد محاولة فاشلة لغزو طُرْطوشة Tortosa فى سنة ٨٠٩ نشط الفرنجة فى إنشاء عدد من القلاع بالثغر الإسبانى ، أكسبته اسمه الذى عرف به فيما بعد وهو قطالونيا Catalonia (أو Cataluña) .

لدى وفاة شارلمان فى سنة٨١٤ بدأت إمبراطوريته الواسعة فى التدهور السريع، وظهر أثر ذلك فى الثغر الإسبانى فتوزعته عدة كونتيات أهمها برشلونة ،

وفى سنة ٨٧٣ أعلن ويفريدو Wifredo ــ وهو نبيل فرنجى ــ استقلاله بهذه الكونتية .

عند نهوض المسلمين فى عصر الخلافة ، وجهوا بعض غزواتهم إلى برشلونة ، مما دفع أميرها لأن يدين لهم بالطاعة ويرسل سفراءه إلى قرطبة طلباً لمودتها . على أن ذلك لم يمنع المنصور العامرى من غزو برشلونة فى سنة ٣٧٥/ ٩٨٥ ودخلها ، لكنه غادرها دون أن يعلن ضمها إلى دولته . أما ولده المظفر ، فقد عاود غزوها فى سنة ٣٩٣/ ١٠٠٣ ، وعاث فى بسائطها ، دون أن يقتحم المدينة نفسها .

بعد سقوط الدولة العامرية فى سنة ٣٩٩/ ١٠٠٩ شارك أمير برشلونة فى الصراعات على السلطة بين المتنازعين عليها من بنى أمية ، مقابل أموال أداها إليه بعضهم .

بلغت كونتيه برشلونة ذروة مجدها فى عهد رامون الأول برنجير Ramon I Berenguer (١٠٣٥ ــ ١٠٧٦) الذى ضم إليه سائر الكونتيات المجاورة ، بل ضم أيضاً كونتية قَرْقَشونة Carcassonne فى فرنسا ذاتها ، لتنشأ إمارة قطالونية وجعل لها هيئة شبه برلمانية من النبلاء ، أصدرت ما يعرف بأعراف برشلونة Usages de Barcelona ، لتطبق إلى جانب القوانين القوطية القديمة ، وبدأت هذه الإمارة الوليدة تتخذ مكانها بين ممالك إسبانيا النصرانية ، وتشارك على نحو فعال فى حركة الاسترداد .

شاركت قطالونية غيرها من الإسبان فى معركة الزلاقة (٤٧٩ / ١٠٨٥) التى أفضت إلى انتصار المسلمين ، كما شاركت غيرها من الصليبيين فى الإستيلاء على جزيرة ميورقة Majorca فى سنة ٥٠٨/ ١١١٥ ، وإن عادت إلى المسلمين فى العام التالى ، لكنها استطاعت أن تمتد بسيادتها إلى قريب من

نهر إِبْرُه Ebro ، كما صارت لها قوة بحرية لا يستهان بها .

عند صعود نجم مملكة أرغونة فى عهد ألفونسو المحارب ، نشأ تحالف بينهما وبين إمارة قطالونيا ضد العدو المشترك ـ المرابطين ـ وظهر أثر ذلك فى الاستيلاء على سرقسطة فى سنة ٥١٢/ ١١١٨ .

فى سنة ١١٣٧ جرى تطور هام ، فقد تخلى ملك أرغونة راميرو الثانى Ramiro II عن عرشه لصهره رامون برنجير الرابع أمير قطالونية (١١٣١ ـ ١١٦٢) [(١)] . وأفضى ذلك إلى أن اختفت إمارة قطالونيا ، فلم يعد لها وجود سياسى مستقل وإن ظل إقليم قطالونيا يحتفظ بطابعه الخاص ، واستقلاله الداخلى وعاصمته ، بل ظل يحتفظ بطابعه الثقافى ولغته ، التى تمت بصلات من القربى مع لغة جيرانه شمالى البرتات .

٦ ـ مملكة أرغونة :

تعاصرت إمارة أرغونة Aragón فى نشأتها فى بداية القرن التاسع مع إمارة نبرة ، وأول أمرائها هو أثنار جاليندو Aznar Galindo (٨٠٩ ـ ٨٣٩) الذى حكم فى خاكا Jaca ، ومثلما ارتبطت الفترة الباكرة من تاريخ نبره ببنى قسى ، وهى أسرة مسلمة من أصل إسبانى نصرانى ، فقد ارتبطت الفترة الباكرة من تاريخ أرغونة ببنى شبربط Savarico [(٢)] وهى أيضاً أسرة مسلمة من أصل إسبانى نصرانى .

فى غضون القرن العاشر اختفت إمارة أرغونة ، عندما آلت عن طريق المصاهرة إلى جارثيا الأول ملك نبرة ، ولم تعد مرة أخرى إلى مسرح الأحداث ، إلا بعد وفاة سانتشو الكبير ملك نبرة فى سنة ١٠٣٥ .

---

(١) يعرف عند المسلمين بِرَمُنْد بن بَلَنقير .

(٢) ويعرفون أيضاً ببنى الطويل .

توجهت سياسة أرغونة إلى التوسع غربًا على حساب مملكة نبرة ، فاصطدمت بمملكة ليون التى كانت لها مطامعها هى الأخرى فى المملكة نفسها ، مما أفضى إلى أن تتوجه أرغونة إلى التوسع شرقًا على حساب مملكة سرقسطة الإسلامية ، الأمر الذى دفع هذه المملكة إلى طلب العون من مملكة ليون، ورغمًا عن المدد الذى أرسله الفونسو السادس إلى المستعين بن هود ، إلا أن هذا العون لم ينجح فى إنقاذ وَشْقَة Huesca التى سقطت فى يدى پدرو الأول Pedro I ملك أرغونة (١٠٩٤ ـ ١١٠٤) فى سنة ٤٨٩/ ١٠٩٦ ، فانتقل إليها، وجعلها عاصمةً لدولته .

بعد وفاة پدرو فى سنة ١١٠٤ خلفه أخوه ألفونسو الأول (١١٠٤ ـ ١١٣٤) الذى يعرف عند المسلمين بابن رُذْمير ، وكانت طموحاته تفوق طموحات أسلافه ، لهذا تدخل فى شئون ليون التى كان زوجًا لملكتها أُوّراكا ، مما أسفر عن حرب أهلية بين الزوجين ، ومع أن ألفونسو حقق انتصارات واضحة فى الحرب ، إلا أنه انسحب بعد أن ضم إلى دولته بعض أطراف ليون ، وكان يدفعه إلى ذلك التفرغ لقتال المسلمين والاستيلاء على مدينة سرقسطة .

كانت سرقسطة قد دخلت فى ملك المرابطين فى سنة ٥٠٣/ ١١١٠ ، ولم يكن ألفونسو ليغض البصر عن هذه المدينة الهامة التى كانت قاعدةً للثغر الأعلى عند المسلمين ، فانتهز فرصة شغل المرابطين بالبرتغال ، وحاصر المدينة فى سنة ٥١٢/ ١١١٨ ، واستعان فى ذلك بقوات أتته من قطالونيا وفرنسا ، ولما اشتدت معاناة المدينة ، وتأخر المرابطون فى نجدتها ، اضطر أهلها إلى قبول شروط الفونسو ، وسلموا المدينة بالأمان ، وما كاد يدخلها حتى حول مسجدها الجامع إلى كنيسة جامعة ، وجعلها عاصمةً لدولته ، وقاعدة لمتابعة غزواته فى شرقى الأندلس .

كان لسقوط سرقسطة فى يدى الفونسو الأول ملك أرغونة الذى صار يعرف بالمحارب el Batalldor صدى شبيه بسقوط طليطلة فى يدى ألفونسو السادس ملك ليون . ولم يلبث أن عاود الزحف جنوباً ، ليستولى على تطيلة Tudela وطرَسونة Torrazona ، ثم عاود هزيمة المرابطين فى معركة قُتُنْدَة Cutanda فى سنة ٥١٤/ ١١٢٠ وفى أعقابها استولى على دروقة Daroca وقلعة أيوب Calatayud ، وتدافعت حدود مملكته إلى جنوبى نهر إبره .

فى سنة ٥١٩/ ١١٢٥ اخترق ألفونسو المحارب الأندلس إلى أن وصل إلى ساحل البحر مما يلى غرناطة ، وأيده فى غزوته عدة آلاف من نصارى الأندلس المعاهدين ، وأخفق المرابطون فى التصدى له .

توقف ألفونسو عدة سنوات عن الحرب ضد المسلمين ، ليعاود التدخل فى شئون مملكة ليون فى عهد قيصرها الفونسو السابع ، وتجدد الصراع بين الملكين إلى أن خضعا لوساطة رجال الدين ، وعقدت تسوية لهذا الصراع بتنازلات من الجانبين .

تطلع ألفونسو لأن يستولى على ميناء طُرطوشة Tortosa الهام ، لكن كان عليه أولاً أن يستولى على مدينة إفراغة Fraga ، فحاصرها حصاراً شديداً ، ورفض عروض أهلها بأن يدخلها صلحاً ، ثم أرسل المرابطون جيشاً كبيراً التقى بجيش ألفونسو تحت أسوار المدينة فى سنة ٥٢٨/ ١١٣٤ ، ودارت معركة كبيرة، أفضت عن هزيمة كبيرة للنصارى ، كان من آثارها أن هلك ألفونسو عقب المعركة فى رواية ، أو هلك فى المعركة نفسها فى رواية أخرى .

بعد موت ألفونسو المحارب بسنوات قليلة آلت مملكة أرغونة عن طريق المصاهرة إلى رامون برنجير الرابع أمير قطالونيا الذى صار يحكم دولة واسعة ،

فصرف همه لأن يستولى على ما تبقى للمسلمين بالثغر الأعلى ، وكانت الأندلس تضج فى هذه الأثناء بالثورة على المرابطين ، فاستولى بمعونة أهل جنوة Genoa وبيشة Piza على مدينة طرطوشة فى سنة ٥٤٣/ ١١٤٨ ، ثم استولى على لاردة وإفراغة ومِكْناسة Mequinenza ، وانتهت سيادة المسلمين فى الثغر الأعلى .

اتجهت سياسة مملكة أرغونة ، منذ منتصف القرن الثانى عشر إلى أن تنسق جهودها مع مملكة قشتالة فى تحديد ما يخص كل مملكة فى المراحل التالية من حرب الاسترداد وفى معاهدة كاثولا Cazola فى سنة ١١٧٩ اتفق الفونسو الثانى ملك أرغونة (١١٦٢ ـ ١١٩٦) وألفونسو الثامن ملك قشتالة (١١٥٨ ـ ١٢١٤) على أن يقتسما الفتوح المنتظرة بينهما ، فاختصت أرغونة بالفتوح فى منطقة بلنسية حتى لقّنت Alicante ، واختصت قشتالة بمادون لقنت حتى أقصى الجنوب .

على أن هذا الاتفاق اصطدم بنزاع المملكتين حول مملكة نبرة ، الأمر الذى أدى إلى أن وقفت قشتالة وحيدةً أمام الموحدين فى الأرك (٥٩١/ ١١٩٥) حيث أصيبت بهزيمة كبيرة ، وبعد جهود بذلها البابا تم تسوية هذا النزاع ، وبذا شاركت أرغونة غيرها من الممالك الإسبانية فى معركة العقاب (٦٠٩/ ١٢١٢) وهى آخر المعارك الكبيرة بين النصارى والمسلمين ، وأفضت إلى انهيار كامل للوجود الإسلامى فى شبه الجزيرة .

فى سنة ١٢١٣ ولى خايمه الأول jaime I (جاقمة عند العرب) ، وتطلع إلى الاستيلاء على الجزائر الشرقية Islas Baleares ، وكان المسلمون قد استردوها قبل مائة عام ، لكنه عندما اختل أمرهم بعد معركة العقاب ، انقطعت صلات هذه الجزائر بالأندلس ، مما جعل أهلها يقفون منفردين أمام

أسطول ضخم ولج إلى ميورقة فى سنة ٦٢٦/ ١٢٢٩ يقوده ملك أرغونة ، ورغماً عن المقاومة الشديدة التى أبداها المسلمون ، إلا أن الجزيرة سقطت فى يدى خايمه، وبسقوطها سقطت يابسة Ibiza وفرومنتيرة ، لكن منورقة Minorca صمدت ، حتى انتهى أمرها فى سنة ٦٨٦/ ١٢٨٧ .

تفرغ خايمه بعد ذلك لشرقى الأندلس أى بلنسية ومرسية ، وكان قد تغلب عليها بعض الثوار فى أعقاب إنهيار الدولة الموحدية ، فزحف خايمه إلى بلنسية فى سنة ٦٣٥/ ١٢٣٨ ، وفرض حصاره عليها ، فلما شعر حاكمها بوطأة الحصار ، بعث فى عون الحفصيين بتونس ، ومع أنهم لبوا نداءه ، إلا أن سفنهم لم تتمكن من دخول الميناء ، واضطر أهل المدينة ، لأن يسلموها إلى الملك صلحاً فى صفر ٦٣٦/ أكتوبر ١٢٣٨ .

بعد الاستيلاء على بلنسية ، استولى خايمه على دانية Denia ولقنت فى سنة ١٢٤٤/٦٤١ ثم شاطبة Xátiva وأوريولة Orihuela فى سنة ١٢٤٦/٦٤٤ ، واقترب من مرسية ، فسعى أهلها إلى التفاهم مع فرناندو الثالث ملك قشتالة ، إذ كانت مرسية داخلةً فى فتوحه ، طبقاً لاتفاق كاثولا ، واتفقوا معه على أن يبقيهم على حالهم ، على أن يعترفوا بطاعته ويؤدوا الجزية ، وتتواجد حامية من جنوده بها . وظلت مرسية محتفظةً باستقلالها الداخلى ، حتى وفاة ملك قشتالة فى سنة ١٢٥٢ ، فخلفه ولده ألفونسو العاشر ، واضطربت مملكته فى عهده ، فانتهز خايمه هذه الفرصة ، ودخل المدينة فى سنة ٦٦٤/ ١٢٦٦ ، لكنه عاد بعد ذلك وسلمها لألفونسو .

بسقوط مرسية ثم تسليمها لقشتالة تكون الفتوحات الأرغونية فى الأراضى الإسلامية قد وصلت إلى غايتها ، ولم تعد هناك حدود مشتركة لأرغونة مع المملكة الأندلسية الباقية غرناطة ، وتفرغ خايمه الذى صار يدعى

بالفاتح el Conquistador لإعادة تنظيم مملكته التى اتسعت حدودها اتساعاً واضحاً ، فشملت كل شرقى الأندلس وجزائر البليار وجزءاً من جنوبى فرنسا ، كما قام باصلاحات تشريعية ، ثم مات بعد أن حكم سنوات طويلة فى سنة ١٢٧٦ .

ترتب على التقدم السريع لحركة الاسترداد أن صارت أرغونة هى القوة الأساسية المنافسة لقشتالة ، وإذا كانت هاتان القوتان قد تعاونتا معاً فى التهام نبرة ، إلا أنهما اختلفتا فى ترسيم الحدود بينهما فى إقليم مرسية ، وهى مشكلة استمرت سنوات طويلة ، كان من نتائجها أن أعانت أرغونة إنريكى تراستا مارافى فى ثورته ضد أخيه بدرو القاسى ، لكن هذه المشكلة تم حلها نهائياً بتدخل من البابا .

على أنه مما تجب ملاحظته أن أرغونة كانت تطرح أحياناً خلافاتها مع قشتالة فى مجابهتها لما تبقى من وجود إسلامى فى مملكة غرناطة ، فأعانتها فى الاستيلاء على جبل طارق فى سنة ٧٠٩/ ١٣٠٩ ، وشاركتها فى معركة سلادو فى سنة ٧٤١/ ١٣٤٠ واستولى أسطولها على الجزيرة الخضراء فى سنة ٧٤٤ / ١٣٤٤ .

الأهم من هذا كله أن أرغونة تطلعت إلى أن تلعب دوراً بحرياً متوسطياً ، وقد بدأ ذلك فى فترة باكرة ، تعود إلى سنة ١٢٨٢ ، حين وضع بدرو الثالث (١٢٧٦ ــ ١٢٨٥) يديه على جزيرة صقلية ، وتدخل فى شئون تونس ، وحصل عل امتيازات تجارية بها . وفى عهد ولده خايمه الثانى (١٢٩١ ــ ١٣٢٧) آلت إليه سردانية فى سنة ١٣٢٥ ، وحاول أن يستولى على قبرس ، وإن لم يتحقق له ذلك ، لكن عدداً من المغامرين الأرغونيين والقطالونيين ، استطاعوا أن يستولوا على أثينا ، وأنشئوا بها دوقية تدين بالتبعية له فى سنة ١٣٢٦ ، وظلت هذه الدوقية قائمةً حتى سنة ١٣٧٢ .

كان من الطبيعى أن يؤدى ذلك إلى نزاع مع البابوية التى أزعجها تدخل أرغونة فى شئون إيطاليا ، وحرضت فرنسا ضدها [١] ، كما حرضت النبلاء على الثورة ضد ملكهم . على أن الأهم هو ماجرى من صراع بين أرغونة وجنوة للسيطرة على الحوض الغربى للبحر المتوسط ، واستمر الصراع سنوات طويلةً ، حالفت أرغونة خلالها البندقية Venezia وتحقق لها النصر على غريمتها فى سنة ١٣٥٢ ، مما أفضى إلى أن ذوى نجم هذه المدينة .

نتيجةً لشغل ملوك أرغونة بمغامراتهم البحرية ، فإن نبلاءها سعوا لأن يحافظوا على حقوقهم ، وشكلوا مع البلديات عصبةً Unión دخلت فى صراعات مع الملوك بين حين وآخر ، واستمرت هذه الصراعات حتى سنة ١٣٤٩ حين دارت قرب سرقسطة معركة ، انتصر فيها الملك بدرو الرابع (١٣٣٦ ـ ١٣٨٧) ، وانتقم من الثوار انتقاماً رهيباً ، لكنه حافظ للنبلاء على حقوقهم كطبقة اجتماعية ،كما فعل الشيء نفسه بالنسبة للبلديات .

بعد وفاة بدرو الرابع فى سنة ١٣٨٧ خلفه ولده خوان الأول (١٣٨٧ ـ ١٣٩٥) ثم ولده الآخر مارتين Martin (١٣٩٦ ـ ١٤١٠) ولما كان هذا الأخير قد مات دون عقب جرى اختلاف فيمن يلى بعده ، ودام هذا الاختلاف سنتين إلى أن قرر الكورتيس استدعاء فرناندو دى تراستامارا المعروف بصاحب أنتقيرة [٢] ، فولى باسم فرناندو الأول ، وبذا صار بيت تراستامارا يحكم فى مملكتى قشتالة وأرغونة .

فى عهد ألفونسو الخامس (١٤١٦ ـ ١٤٥٨) المعروف بالشهم el magnánimo تصاعدت قوة مملكة أرغونة ، عندما تدخل ألفونسو فى شئون

---

(١) آلت إلى مملكة أرغونة فى بعض السنوات مقاطعات فى جنوبى فرنسا دانت لها بالطاعة .

(٢) وكان وصياً على ابن أخيه الطفل خوان الثانى ملك قشتالة (١٤٠٦ـ١٤٥٤) .

إيطاليا ، وآلت إليه مملكة نابولى فى سنة ١٤٤٣ ، فانتقل ببلاطه إليها ، بحيث صار ملكاً إيطالياً أكثر من كونه ملكاً إسبانياً . ولما كان ذا ثقافة عالية ومحباً للعلوم والفنون ، فإنه أعان على نقل النهضة الإيطالية إلى وطنه الأول إسبانيا .

بيد أن غياب ألفونسو الطويل عن وطنه أدى إلى أزمات اجتماعية وقلاقل ، عبرت عن نفسها بثورات اجتاحت إقليم قطالونيا ، وسببت مشكلات عانى منها أخوه وخليفته خوان الثانى (١٤٥٨ ـ ١٤٧٩) وزاد من هذه المشكلات ما كان يتنامى فى هذا الإقليم من نزعات انفصالية ، فضلاً عن حرص خوان على أن يحتفظ بسيادته على مملكة نبرة التى حكمها سنوات طويلة قبل ذلك .

هدأت الأحوال عندما توصل الملك فى سنة ١٤٧٢ إلى تسوية مع الثوار ، وبعد سبع سنوات مات ليخلفه فى أرغونة ولده فرناندو الذى عرف بالكاثوليكى، ولما كان فرناندو هذا متزوجا بإيسابيل ملكة قشتالة ، فإن المملكتين اتحدتا ، ليبدأ عصر جديد فى تاريخ إسبانيا .

الفصل الثاني عشر
البناء الاجتماعي في إسبانيا النصرانية

تمهيد :

فى تحليلنا للبناء الاجتماعى لإسبانيا النصرانية فى العصور الوسطى ، نلاحظ إنه كان مشابهاً (وأحياناً مماثلاً) لما كان عليه هذا البناء فى سائر أقطار أوربا الغربية فى المرحلة ذاتها . والمفتاح لفهم هذا البناء هو النظام الاقطاعى الذى يقوم على أساس التعاقد الخاص بين الأفصال والسادة ، ففى مقابل قيام الفصل بالخدمة العسكرية وغيرها من الخدمات ، فإن يحظى بالحماية وحق الانتفاع بالضيعة أو المنصب ، وعادةً ما يكون هذا الحق وراثياً .

ويرتبط بالنظام الإقطاعى نظام السيادة ، أى إن الفصل يمارس قدراً من السيادة على أتباعه فى ضيعته (أو ضياعه) ، ويتقاضى منهم إيجاراً وخدمات ، كما إن له ولايات قضائية بينهم .

بطبيعة الحال كان هناك قدر من الإختلاف بين ما كان عليه البناء الاجتماعى فى إسبانيا النصرانية ، وبين ما كان عليه فى أقطار أوربا النصرانية . والمصدر لهذا الاختلاف هو المكان ، باعتبار الجوار الذى كان واقعاً بين إسبانيا النصرانية وإسبانيا الإسلامية (الأندلس) وعلاقات التأثير والتأثر بين الجانبين .

فى تحليلنا للبناء الاجتماعى فى إسبانيا النصرانية ، نلاحظ ثم فروقاً أساسية بين هذا البناء وبين ما كانت عليه الحال فى إسبانيا الإسلامية ، فلا نشاهد فى هذه الأخيرة استقطاباً حاداً بين عناصر المجتمع وطبقاته ، ولم تعرف الأندلس نظام الطبقة المغلقة الذى كان يسود الحياة فى أوربا الغربية ، بما فيها إسبانيا

النصرانية ، فكانت هناك مساحة واسعة من الحراك الاجتماعى الذى كان سمةً أساسيةً للمجتمعات الإسلامية فى العصور الوسطى ، وكانت الفوارق العرقية والدينية (والمذهبية) تلعب دوراً أدنى مما كانت عليه فى المجتمعات النصرانية .

مما يجب ملاحظته كذلك إن البناء الاجتماعى فى إسبانيا النصرانية كانت له سمات عامة وخصائص ، لازمها قدر من الثبات النسبى ، ولازمها أيضًا قدر من التطور النسبى ، تم على نحو تراكمى ، بحيث بدت الصورة العامة لهذا البناء فى نهاية العصور الوسطى ، تختلف إلى حد كبير ، عما كانت عليه هذه الصورة فى بدايتها .

نستطيع أن نميز ـ على نحو عام ـ بين مرحلتين أساسيتين ، يفصل بينهما حدث هام هو سقوط طليطلة فى سنة ٤٧٨/١٠٨٥ .

فى المرحلة الأولى عاشت ممالك إسبانيا النصرانية فى مناطق وعرة ضئيلة الموارد قليلة السكان ، ويعبر الميسيتا من الشرق إلى الغرب أنهار المنيو والدويره والتاجه Tagus ، وأنهار أخرى ونهيرات ، وجميعها غير صالحة للملاحة ، وماؤها منخفض عن المستوى العام للهضبة ، مما لا يفيد كثيراً فى الزراعة .

هكذا كان اقتصاد هذه الممالك رعوياً فقيراً ، إنتاجه الزراعى محدود ، والصناعة لا تفى ـ ربما ـ بحاجات المجتمع المحلى فى الضيعة . وأدت هذه الحال إلى تأخر التجارة ، بل إن النقود ـ وهى أساساً أندلسية وفرنجية ـ كانت نادرةً ، ولجأ الناس فى بعض الأحيان إلى المقايضة . كما أصاب الإنهيار البلديات حتى إن مدناً مثل أستورقة ظلت غير مأهولة حتى منتصف القرن التاسع ، كما إن مدناً أخرى مثل ليون وبرشلونة لم تكن مراكز تجارية ولا صناعية ، إنمـا كانت مقـاراً للحكم .

لا يخفى كذلك ما كان يجرى من حال حرب شبه دائمة بين الممالك النصرانية الناشئة ، بل بين أمراء الإقطاع أنفسهم ، ثم ما كان يجرى من حال حرب شبه دائمة كذلك مع المسلمين ، وكانت هذه الحروب تفضى إلى تأثيرات مدمرة على البنية الاقتصادية ـ الاجتماعية فى إسبانيا النصرانية .

نستطيع أن نأخذ صورةً عامةً عما كانت عليه الأحوال العامة إلى الشمال من بلاد الأندلس، مما ذكره رحالة يهودى أندلسى، زار جليقية فى القرن العاشر.

يقول إبراهيم بن يعقوب الإسرائيلى الطرطوشى يصف أهلها فيقول إنهم : « أهل غدر ودناءة أخلاق لا يتنظفون ولا يغتسلون فى العام إلا مرةً أو مرتين بالماء البارد ولا يغسلون ثيابهم ، منذ يلبسونها إلى أن تتقطع عليهم ، ويزعمون أن الوسخ الذى يعلوها من عرقهم تنعم به أجسامهم وتصح أبدانهم ، وثيابهم أضيق الثياب ، وهى مفرجة يبدو من تفاريجها أكثر أبدانهم » .

فى المقابل فإن العديد من الرحالة والتجار وطلاب العلم والمبعوثين والسفراء من الإسبان ومن الأوربيين أنفسهم كتبوا بعد زياراتهم للأندلس انطباعات تشى بما كانت عليه الأحوال العامة هناك من نهضة ، لا نشاهدها فى بقية إسبانيا ، ويكفى أن راهبةً ألمانيةً زارت الأندلس فى المرحلة ذاتها ـ القرن العاشر ـ وصفت قرطبة بأنها « زينة الدنيا التى حوت كل شىء تزهو به المدن » .

تبدأ المرحلة الثانية مع تدافع حركة الاسترداد فى أخريات القرن الحادى عشر، فقد أضيفت إلى اسبانيا النصرانية مساحات واسعة من الأراضى الإسلامية، أوفر موارد ، وتضم مراكز حضارية زاهرة ومدناً تجارية نهضت لدى الساحل الشرقى ، وتضم كذلك أعداداً كبيرة من المسلمين والمستعربين واليهود ، كانوا أرقى حضارةً ، وأوفر نشاطاً من غيرهم من الإسبان .

أضيف إلى هؤلاء السكان بين حين وآخر جماعات من الصليبيين الوافدين من أقطار أوربا شمالى البرتات . وكان هؤلاء الصليبيون يحظون بتشجيع من الملوك ، بهدف الإفادة منهم فى حربهم ضد المسلمين ، فأتاحوا الفرصة لهم ، من أجل أن يستقروا فى البلاد ، وانتظم عدد منهم فى طبقة النبلاء .

ترتب على ذلك أن تضاعف عدد سكان إسبانيا النصرانية ـ يذهب بيثنس بيبس Vicens Vives ـ بين منتصف القرن الثانى عشر ومنتصف القرن الرابع عشر ، إلى أن وصل هذا العدد فى نهاية القرن الخامس عشر إلى ستة ملايين ، ثلثاهم فى قشتالة ، وبين هؤلاء ، عاش مليون من المسلمون واليهود .

ترتب على ذلك قدر من الحراك الاجتماعى ، فالأراضى التى تم الاستيلاء عليها يسرت للأحرار من غير طبقة النبلاء إمكانية أن تصير لهم أراض خاصة بهم، شجعهم الملوك على زراعتها ، وأعطوهم الحق فى تملكها ، بل أن ملكاً مثل دينيس البرتغالى (١٢٧٩ ـ ١٣٢٥) ـ وقد عرف بالمزارع ـ كان يصادر بعض أراضى النبلاء ويمنحها لمن تهيأت له القدرة على زراعتها من العامة .

الأهم أن المدن عاودت ازدهارها الذى كان عليه فى الحقبة الرومانية ، أو واصلت ازدهارها الذى كانت عليه فى الحقبة الإسلامية ، ونشطت فى الصناعة والتجارة معاً . وبدأت تبزغ فى إسبانيا طبقة جديدة من أهل المدن ، حظيت بتشجيع من الملوك فى صراعهم مع النبلاء وأحياناً مع الكنيسة ، وأتاحوا الفرصة لبعض أفرادها كى يصعدوا إلى طبقة النبلاء ، وأن تمثل فى الكورتيس ـ وهو الهيئة التشريعية ـ وأتاحوا الفرصة كذلك لأرباب الحرف كى ينظموا أنفسهم فى نقابات ، وأصدروا فى القرن الرابع عشر قوانين تنظمها .

أفضى هذا كله إلى نتيجتين هامتين ، أولاهما أن النظام الإقطاعى الذى كان نسيج الحياة فى العصور الوسطى بدأ رحلة أفوله قبل أن تنتهى هذه العصور .

صحيح أن النبلاء ظلوا يحافظون على وجودهم كطبقة ، إلا أن الامتيازات التى كانت لهم فى السابق ، جرى تقليصها إلى حد كبير ، وتضاءلت ولاية النبيل بين أتباعه ، وصار من حق هؤلاء الأتباع أن يفارقوه إذا شاءوا .

النتيجة الثانية أن تصاعدت سلطة الملوك ، خصوصاً بعد ما جرى من إحياء للقانون الرومانى فى القرن الثالث عشر ، وما تبعه بالتالى من احياء للحق المقدس للملوك ، ورغماً عما جرى من صدامات بين هؤلاء من ناحية وبين النبلاء والكنيسة من ناحية أخرى ، إلا أن الظفر تحقق فى النهاية للملوك .

١ - النبلاء :

كان الملك يقف فى قمة هذه الطبقة ، وانحصر فى عائلة واحدة ، بخلاف ما كان عليه الحال فى عهد القوط ، واجتمعت فى يديه سلطة التشريع، وسلطة استدعاء الأفصال إلى الحرب ، وفى الأراضى الخاضعة له مباشرةً ، كان يمارس وظائف قضائية .

ورغماً عن انحصار مبدأ الوراثة داخل العائلة الواحدة ، فإن هذا لم يمنع وقوع نزاعات على العرش ، فمع ما حققه الفونسو الثالث من إنجازات ، فقد تآمر عليه زوجه وأولاده ، مما اضطره إلى أن يعتزل الحكم فى سنة ٩١٠ . وبعد وفاته بسنوات نشبت حرب أهلية بين ورثته ، لم يطفىء من جذوتها الانتصار الذى أحرزه النصارى على المسلمين فى وقعة الخندق فى سنة ٣٢٧/ ٩٣٩ ، وكان ذلك دافعاً لغزوات المسلمين ، وتدخلهم فى شئون النصارى الداخلية فى عصر الخلافة الأموية والدولة العامرية .

ورغماً عن التوسع الكبير الذى أحرزته إسبانيا النصرانية فى عهد فرناندو الأول ، وتوحيده مملكتى ليون وقشتالة ، إلا أن الحرب الأهلية نشبت بين أبنائه الثلاثة بعد موته فى سنة ١٠٦٥ ، وتجددت بعد موت ابنه الفونسو

السادس فى سنة ١١٠٩ .

كذلك فإن ما سعى إليه ألفونسو العاشر من توليه عهده حفيده ألفونسو ، دون ولده سانتشو ، كان السبب فى ثورة هذا الأخير على أبيه ، ونشبت حرب استمرت سنين عدداً ، وتدخلت فيها قوى من خارج قشتالة بما فيها المسلمون ، واستغرقت عهود ثلاثة ملوك إلى أن انتهت فى سنة ١٣٣١ ، وماكادت تنتهى حتى نشبت صراعات بين بدرو القاسى وأخيه الغير الشرعى إنريكى ، وأسفرت هذه الصراعات عن قيام أسرة مالكة جديدة هى أسرة تراستامارا .

كان يعاون الملك فى ممارسة مهامه ما يعرف بالمجلس الملكى Aula regia (أو Palatium)[1] ويرى سانتشيث ألبورنوث Claudio Sánchez Albornoz أن هذا المجلس آلت إليه اختصاصات مجلس الملك القوطى العلمانى ، وكذا مجلس طليطلة الدينى ، وكان يضاف إليه فى الدورات الغير العادية الأساقفة ورؤساء الأديرة ، وأهم وظيفة مارسها هذا المجلس هى كونه هيئةً قضائية .

فى أخريات القرن الثانى عشر ظهرت هيئة جديدة دعيت بالكورتيس Cortes[2] ، وعقد أول كورتيس فى ليون فى سنة ١١٨٨ على يدى ألفونسو التاسع ملكها ، ثم امتد إلى الممالك الإسبانية الأخرى ، فى قطالونيا ١٢٢٥ ، أرغونة ١٢٢٧ ، قشتالة ١٢٥٠ ، نبّره ١٢٥٣ ، البرتغال ١٢٥٤ وبلنسية ١٢٨٣[3] .

---

(١) صار يدعى فى ليون فى القرن الحادى عشر بـ Curia regis وصار يدعى فى قشتالة فى سنة ١٣٨٥ بـ Consejo real .

(٢) الكورتيس مشتق من كوريا Curia وهى هيئة الشورى أو المشيخة فهو كوريا مكبرة ومن هنا أتى اشتقاق الاسم أقرب إلى صيغة الجمع .

(٣) يلاحظ أنه بينما كان يوجد فى معظم الممالك الإسبانية كورتيس واحد بكل مملكة ، تفردت مملكة أرغونة بكورتيس لكل إقليم من أقاليمها الثلاثة أرغونة ، قطالونيا ، بلنسية .

والكورتيس هيئة برلمانية ، تفردت إسبانيا ـ ولأول مرة فى تاريخ أوربا ـ بأن ضمت الطبقات الثلاث Los tres estados ، وهى النبلاء ورجال الدين وممثلو المدن . وتحدد عمله على نحو أساسى فى إقرار الضرائب التى يطلبها الملك، فضلاً عن اصدار قوانين جديدة ، أو إلغاء قوانين قديمة ، كما لعب دوراً معيناً فى وراثة العرش ، ولعب دوراً آخر فى تحديد سلطة الملك ، خصوصاً فى أرغونة، حيث كان للكورتيس حق الاعتراض Derecho de agravios على خرق الملك أو بعض أتباعه للقوانين .

على أن وجود الكورتيس كان يتصادم فى أحيان كثيرة مع نزوع الملك إلى السلطة المطلقة ، مما كان يترك أثره فى الصراعات ـ التى نتحدث عنها بعد ـ مع النبلاء . ومنذ بداية القرن الخامس عشر تدهورت سلطة الكورتيس لصالح الملك والمجلس الملكى ، وبعد أن كان يعقد كل ثلاث سنوات ، فقد تباعدت دورات انعقاده ، وصار فى هذا القرن قصراً على أهل المدن ، وهؤلاء بدورهم تناقص عدد ممثليهم ، ثم توقفت بعض المدن عن إرسال ممثليها ، وأضحى دور الكوريتس فى التشريع باهتًا ، بل إن خوان الثانى ملك قشتالة (١٤٠٦ ـ ١٤٥٤) ـ وولده بعده ـ صار يشرع دون العودة إليه .

أما عن النبلاء فقد ضمت طبقتهم بقايا نبلاء العهد القوطى ، مضافًا إليهم عدد ممن أثبت كفاءةً فى الحرب ضد المسلمين . وكان كبارهم Magnates[1] أتباعًا للملك Fideles regis ، يشاركون فى مجلس البلاط ، كما يشاركون فى الكورتيس ، أما صغارهم Infanzones[2] ، فهم أتباع لكبارهم ، ويتحدرون من

(١) ويدعون أيضاً: Seniores, Barones, Proceres, Optimates وعرفوا فى قشتالة فى القرن الخامس عشر بالكبراء Grandes .

(٢) ويدعون أيضاً Caballeros, Milites .

أصل نبيل ، وكانوا يكافئون على خدماتهم نقداً ، أو يمنحون أراض كاقطاع .

ارتبط النبلاء بنظام الاقطاع الذى أضحى نظاماً أساسياً فى أوربا منذ القرن التاسع ، وظهر أثره فى إسبانيا ، غير أن نمو هذا النظام فى قطالونيا ، كان أوضح منه فى غيرها ، بسبب ارتباطها بالقارة ، وفى سنة ٨٧٧ اعترف بوراثة حق الانتفاع فى قطالونيا .

تمتع النبلاء فى الوحدات الإدارية التى انقسمت إليها المملكة بسلطات واسعة فكان القوامس Comites (Condes) يجمعون الضرائب والأموال ويجهزون الجيوش ، كما كانت لهم وظائف قضائية ، من بينها توقيع العقوبات البدنية ، وكان لموقع قشتالة ككونتية حدودية أثره فى أن استقلت عن المملكة الأم ليون .

كانت هذه الامتيازات وراء نزوع النبلاء الدائم إلى التمرد ، فاعتبروا أن من حقهم الاستقلال عن الملك ، أو الانتقال إلى مملكة أخرى ، إذا غضبوا منه لسبب أو لآخر ، بل إن بعضهم كان ينتقل إلى الأندلس ، ويحارب فى جيوش المسلمين ، ضد قومهم وأبناء دينهم . ولدينا فى سيرة السِّيد القنبيطور مثال واضح على ذلك ، فقد تنقل بولائه بين المسلمين والنصارى ، وجمع فى جيشه أتباعاً مسلمين ونصارى ، ولقبه الذى اشتهر به ، أطلقه عليه أتباعه المسلمون .

ويسجل تاريخ مملكة ليون فى مرحلتها الباكرة ثورات عديدة وفتناً قام بها النبلاء ، مثل ثورتهم ضد سانتشو الأول البدين ، التى تزعمها القومس جونديسالبو سانتشيث Gundisalvo Sánchez حاكم جليقية ، الذى دس السم للملك ، فمات قبل أن يصل إلى عاصمته ليون فى سنة ٩٦٦ ، واستمر هذا القومس يحكم مستقلاً فى جليقية ، وعلى نهجه سار عدد من النبلاء .

ترك إحياء القانون الرومانى فى القرن الثلاث عشر أثره على سلطة الملوك ، فقد بدأ المفهوم الرومانى للدولة ، يحل محل المفهوم الكنسى ، ففى ظل هذا المفهوم الأخير ـ يذهب أوكالاهان ـ كانت الدولة ثمرةً للضعف الإنسانى ، ومن ثم فهى بحاجة إلى تصديق من الكنيسة ، مما كان يؤدى إلى هيمنـة رجال الدين (أو البابا) على الملوك ، أما فى المفهوم الرومانى فالدولة مؤسسة طبيعية مستقلة عن رجال الدين .. الأكثر من هذا فإن فكرة الدولة فى القرن الخامس عشر تنامت إلى أن أضحت مستقلةً عن شخص الملك نفسه ، مما أدى إلى اشتعال فكرة الوطنية ، وهذه بدورها أفاد منها الملوك ، واستخدموها لصالحهم .

كان ألفونسو العاشر ملك قشتالة (١٢٥٢ ـ ١٢٨٤) هو أول ملك إسبانى أفاد من مفهوم الدولة فى القانون الرومانى ، وصار هذا المفهوم يعنى عنده أن يستبد بسلطته باعتبارها حقاً مقدساً ، مما أثار عليه النبلاء ، وأعانوا ولده سانتشو الباسل فى تمرده ، ثم انقلبوا على هذا الأخير ، عندما خلص له الأمر ، وظلوا كذلك حتى موته فى سنة ١٢٩٦ .

وإذا كان خوان الثانى قد استعان بألبرودى لونا ، ليمكن لنفسه ضد النبلاء المنازعين له ، فإن هذ بدوره غلب عليه ، واستحوذ على السلطة دونه حتى إعدامه فى سنة ١٤٥٢ ، وظل نبلاء قشتالة يثيرون المتاعب ضد الملوك حتى ولاية إيسابيل فى سنة ١٤٧٩ .

فى المرحلة ذاتها عانى ملوك أرغونة من ثورات النبلاء الذين كانوا عادةً ما يستجيبون لتحريض البابوية ، ويتحدون فى بعض الأحيان مع المدن الناشئة ، مما أسفر عن ظهور العصبة La Unión ، واضطر بدرو الثالث لأن يستجيب لمطالبهم، وأصدر فى سنة ١٢٨٣ وثيقة تدعى بالامتياز العام Privilegio general ، أشبه

بالعهد الكبير Magna Charta [1] الشهيرة فى التاريخ الإنجليزى ، إعترف فيها بحقوق النبلاء وأهل المدن ، ووافق على وظيفة جديدة ، يشغلها قاض دعى بالعَدْل justicia يعينه الملك ، وله سلطة أكبر من سلطة غيره من القضاة، ويختص بحل المشكلات التى تنشأ بين النبلاء بعضهم وبعض أو تنشأ بينهم وبين الملك . ويذهب خليان ريبيرا Julian Ribera y Tarrago (ت ١٩٣٤) إلى أن هذا القاضى هو صورة إسبانية لقاضى المظالم عند المسلميــن .

فى سنة ١٢٨٧ تقدم ألفونسو الثالث بخطوة أوسع فأصدر وثيقة تدعى بامتياز العصبة Privilegio de la Unión ، وأكد فيها على ما سبق أن وافق عليه أبوه ، وأضحى من حق الكورتيس أن يطيح بالملك إذا مس بهذه الوثيقة .

اقتضى الأمر سنوات طويلةً ، حتى استطاع بدرو الرابع (١٣٣٦ ـ ١٣٨٧) أن يكسر شوكة النبلاء ومن أعانهم من أهل المدن فى معركة جرت قرب سرقسطة فى سنة ١٣٤٨ ، وأعلن الغاء الامتيازات Privilegios التى أصدرها أسلافه وأحرق بنفسه الوثائق التى تتضمنها ، كما ألغى العصبة ، لكنه أعلن فى الوقت نفسه الالتزام بالقوانين ، وأبقى على وظيفة القاضى العَدْل الذى أضحى يعين فى منصبه مدى الحياة ، وتمتع باستقلال فى أدائه لوظيفته .

نستطيع أن نقرر ـ على نحو عام ـ أن سلطة الملوك تصاعدت ـ خلال القرن الخامس عشر ، وشرعوا يتعاملون على نحو مباشر مع رعاياهم ، دون وساطة من النبلاء ، وصاروا يرسلون قضاةً يدعون بالقضاة الملكيين Caldes de Corte، يزاولون أعمالهم بالمدن ، مما كان يثير فى أحيان كثيرة إحتجاج النبلاء.

---

(١) وثيقة تقدم بها النبلاء الانجليز إلى حنا الأول ملك انجلترا (١١٩٩ ـ ١٢١٩) تضمنت عدة مطالب ، واضطر الملك إلى الموافقة عليها فى سنة ١٢١٥ .

2 - رجال الدين :

شكلوا الطبقة الموازية لطبقة النبلاء ، وحافظوا على امتيازاتهم الموروثة من عهد القوط ، وأعانتهم على ذلك حال الحرب المستمرة ضد المسلمين ، وكانت تحمل طابعاً دينياً واضحاً ، إلى جانب الطابع القومى ، خصوصاً بعد أسطورة اكتشاف قبر القديس يعقوب الحوارى ، وانفرد رجال الدين بأراض خاصة بهم ولهم أفصال يدينون لهم بالولاء ، وشاركوا النبلاء فى عضوية مجلس البلاط وفى عضوية الكورتيس .

زاد من نفوذ رجال الدين كذلك ، ما جرى من انشاء الجماعات العسكرية الدينية Ordones militares فى ممالك إسبانيا النصرانية جميعها ، وأهمها سانتياجو وقلعة رباح والقنطرة Alcántara وأفيس Avis ، وكانت على غرار الجماعات العسكرية الدينية التى أنشأها الصليبيون فى بلاد الشام كالداوية Tem-plarios والإسبتارية Hospitalarios . وقامت هذه الجماعات الإسبانية بدور كبير فى حركة الاسترداد ، بل هى التى انفردت فى سنتى ١٢٤٩ و ١٢٥٠ بالاستيلاء على ما تبقى من إقليم الغرب جنوبى البرتغال .

وأسهم الملوك بدورهم فى تدعيم سلطة الكنيسة ، فكانوا يكتفون بتقديم لائحة باسماء الأشخاص المرشحين لتولى مناصب الأساقفة ، ويختار المطران أحدهم ، ثم هم بعد ذلك كانوا يمنحون الأساقفة ومقدمى الأديرة بين حين وآخر اقطاعات غير مسموح للموظفين الملكيين بدخولها .. وهكذا كان رجال الدين يجمعون الضرائب والأموال ويجهزون الجيوش ويزاولون القضاء .

استمرت نـظم الكنيسة ورسومها ، كما كانت فى عهد القوط ، لكنها تعرضت لتطورات جدت ، مع تصاعد حركة الاسترداد ، فبعد سقوط طليطلة فى سنة ٤٧٨/ ١٠٨٥تم استبدال الطقوس الرومانية بالطقوس المستعربية ، رغماً

عن المعارضة الشديدة التى واجهها ألفونسو السادس من القساوسة الإسبان .

على أن تصاعد ما كان يحصل عليه رجال الدين من امتيازات ، هيأ الفرصة للصدام مع الملوك ، فاختصاص رجال الدين بمحاكم خاصة بهم ، أفضى إلى مشكلات فى خصوماتهم مع غيرهم ، والأهم هو ما جرى من توسع فى ملكياتهم بالأراضى المستردة ، وما كان يترتب عليه من تناقص فى موارد الدولة فى وقت كانت تتزايد حاجاتها المالية ، لذا أمر فرناندو الثالث ملك قشتالة (١٢١٧ـ ١٢٥٢) ، بأن يتوجه ثلث العشور للنفقة على الاسترداد ، ورغماً عن شكوى الكنيسة ، إلا أن البابوية وافقت على مضض ، شريطة أن يكون ذلك لفترة محدودة ، لكن هذه الفترة استطالت .

وفى سنة ١٢٨٦ أمر دينيس ملك البرتغال بأن تبيع الكنيسة الأرض التى حازتها ، منذ بداية حكمه لأشخاص علمانيين ، وبعد خمس سنوات أمر بمنع أى شخص يزمع الانتماء إلى جماعة عسكرية دينية ، من أن يمنح الكنيسة أرضه ، ووضعت حدود للهبات الكنسية ، فعلى الواهب أن يبيع ثلث أرضه أولاً .

ومثلما تدخل النبلاء فى صراعات العرش ، فإن الكنيسة تدخلت كذلك ، فكان من جملة من خرج على سانتشو الأول (البدين) ملك ليون (٩٥٦ ـ ٩٦٦) سيسناندو Sisnando أسقف شنتياقب الذى حصن المدينة وقصره الأسقفى بحجة حمايتها وحماية مزار القديس يعقوب من غارات النورمان ، لكنه لم يلبث أن أعلن العصيان ، وإن اضطر فى النهاية لفتح أبواب المدينة للملك .

كذلك فإن دييجوخيلميريث Diego Gelmírez أسقف شنتياقب قام بدور رئيسى فى الصراع بين أوراكا ملكة ليون وزوجها ألفونسو المحارب ملك أرغونة ثم بين أوراكا نفسها وولدها ألفونسو رايمونديث ، وتنقل بولائه بينهما ،

وصارت له السيادة على كل جليقية وصك عملةً باسمه ، وظل كذلك حتى وفاته فى سنة ١١٣٦ .

وجدير بالذكر أن رجال الدين فى إسبانيا كانوا يستندون فى ادعاءاتهم إزاء الملوك إلى سلطة البابا ، وكان هذا بدوره يرى إن من حقه أن يصدر قرارات الحرمان ضد الملوك وأن يأمر بعزلهم . وقد وضح نفوذ البابوية على نحو خاص فى أرغونة والبرتغال ، فكان البابا ينظر إلى ملوكهما على أنهم أفصال إقطاعيون تابعون له ، وعليه فقد مارس مع بعضهم أسلوب الحرمان والعزل ، مما كان يشجع النبلاء على الثورة ، أو يؤدى إلى تدخل قوى خارجية ، ولا يجد الملوك فى نهاية الأمر إلا أن يمتثلوا لقرارات البابا ويسعوا إلى إرضائه .

وجدير بالذكر ـ أيضاً ـ إن هذه الصراعات بين البابوية والملوك الإسبان ، لم تبلغ فى ضراوتها الصراعات بين البابوية والملوك الألمان أصحاب الولاية على الإمبراطورية الرومانية المقدسة .

بيد إنه جدت تطورات فى العلاقة بين البابوية والدولة ، مع مطالع القرن الخامس عشر ، فقد تصاعدت سلطة الملوك ، وفى الوقت نفسه أصيبت البابوية بالضعف والوهن نتيجةً لتداعيات الأسر البابلى(١) والانقسام العظيم(٢) . وبدأ الإسبان وغيرهم من الأوربيين ينظرون إلى البابا ومن دونه من رجال الكنيسة نظرةً غير التى درجوا عليها .

---

(١) فى سنة ١٣٠٥ جعل البابا كلمنت الخامس من مدينة اڤينيون فى فرنسا مستقراً له بدلاً من روما ، وتابعه فى ذلك خلفاؤة حتى سنة ١٣٧٧ وبطبيعة الحال صار هؤلاء البابوات خاضعين لمشيئة ملوك فرنسا ، لذا يطلق على الفترة ١٣٠٥ ـ ١٣٧٧ فترة الأسر البابلى .

(٢) عندما عاد البابا جريجورى الحادى عشر إلى روما فى سنة ١٣٧٧ واستقر خلفه بها لم يعجب هذا القساوسة الفرنسيين واختاروا أحدهم بابا فى اڤينيون ومن هنا جرى هذا الانقسام الذى دام حتى سنة ١٤١٧ .

زاد من ذلك ما جرى من تنام للفساد داخل الكنيسة نفسها ، ويتضح من قرارات المجامع الدينية أن كثيراً من رجال الدين - والنظاميين منهم - كانوا يتخذون خليلات كما إن لديهم أطفالاً غير شرعيين ، بل إن كثيراً من مقدمى الأديرة ، لم يكونوا فى أصلهم رهباناً ، ولم يعيشوا فى الأديرة ، وكل ما كانوا يهدفون إليه، هو الإفادة من موارد هذه الأديرة وأموالها الطائلة .

أفضى هذا كله إلى أن شرع الملوك يتدخلون فى شئون الكنيسة ، وأعانتهم فى هذا الشأن الطبقة الثالثة الناهضة ، ووصلت الحال إلى أن نصب ألفونسو الحادى عشر ملك قشتالة (١٣١٢ - ١٣٥٠) ولده الغير الشرعى سيداً لجماعة شنتياقب ، وبعده بنحو مائة عام نصب خوان الثانى ملك أرغونة أخاه الغير الشرعى مطراناً لسرقسطة .

3 - الأحرار :

كان يطلق عليهم تعبير Ingenui ، وشكلوا غالب الشعب ، وعمل بعضهم صناعاً أو حرفيين ، يتنقلون بين مدينة وأخرى أو بين ضيعة وأخرى ، ولما كانت المدن ما تزال فى طور النشأة ، فإنهم ارتبطوا على نحو أساسى بالريف، حيث حاز بعضهم الأرض حيازةً كاملةً ، ونتيجة لهجمات المسلمين والحروب الأهلية اضطر عدد كبير منهم إلى طلب الحماية من النبيل أو الأسقف أو رئيس الدير ، مما كان يترتب عليه أن يسلموا أراضيهم لهم ، ويتحولوا هم بدورهم إلى منتفعين بها ، يؤدون الأجرة ، ومع أن هذا العقد كان اختيارياً ولمدة محدودة ، ويجوز إنهاؤه فى أى وقت ، إلا أنه تحول مع الزمن وأضحى وراثياً .

على أن غالب الأحرار كانوا يعيشون فى الضياع الكبيرة أجراءاً أو مستأجرين، أما الأجراء ، فإن النبيل كان يزودهم بالغذاء والكساء والملجأ والعمل

فى دواره ، وفى المقابل لا يستطيعون مغادرته دون موافقته وإلا استرقوا .

أما المستأجرون(١) فكانوا مرتبطين بالأرض Adscritos a la tierra ، شأنهم شأن الأقنان فى العهد القوطى ، وحيث إنهم كانوا يؤدون الجزية لسادتهم، فقد دعوا Tributarii ، وكانوا يعملون فى خدمة الأراضى الخاصة بالسيد فى أيام البذر والحرث والحصاد ويؤدون رسوماً نظير استخدام طاحونته أو فرنه أو معصرة نبيذه ، أو نظير زواج واحد منهم أو ـ ربما ـ مفارقته .

أدت الحال البائسة التى عاشها الأحرار إلى هرب الكثيرين منهم من أراضى سادتهم ولما أضحت هذه ظاهرةً عامةً ، اضطر ألفونسو الخامس ملك ليون فى سنة ١٠١٧ إلى السماح للأجير بترك أرض سيده ، على أن يعطيه فى المقابل نصف ماله المنقول .

أتيحت للأحرار الفرصة لأن يعيشوا حياةً أفضل فى المناطق التى تم استردادها من المسلمين ، فكان لمن شارك فى نضالهم ، وأبدى شجاعةً فى حربهم الحق فى قطعة من الأرض ، يعفى من أداء ضرائبها ، شأنه فى هذا الشأن رجال الدين والنبلاء ، وليس لأحد سيادة عليه سوى الملك . وفى سنة ٩٧٤ منح جارثيا فرنانديث García Fernández أمير قشتالة بعض هؤلاء امتيازات صغار النبلاء.

كان المستعربون الذين فارقوا الأندلس عنصراً هاماً ـ بل العنصر الأهم ـ بين هؤلاء فاشتغلوا بالزراعة وغيرها من الحرف ، وصار بعضهم رهباناً ، وكانت مهاراتهم الزراعية والصناعية عالية بسبب مستواهم الثقافى ، وقد شجع الملوك هجرتهم وواضح من أسماء المبعوثين الوافدين ، من قبل هؤلاء الملوك إلى قرطبة فى عصر الخلافة أن بعضهم كانت أسماؤهم عربية .

---

(١) صار يطلق على هذه الطبقة فى مملكة نبرة (وأرغونة) فى القرن العاشر تعبيرMesquini وهو تعبير يعود إلى أصول عربية ، وله دلالة على الحال التى كانت تعيشها .

لم تود حركة الاستقرار فى الأراضى الجديدة إلى تحسن واضح فى أحوال طبقة الأحرار ، بسبب ما كان يسود هذه الأراضى من خراب ، فضلاً عن تعرضها لغزوات المسلمين ، وكان المعمرون لا يحصلون على الاعتراف الملكى بحقوقهم فى بعض الأحيان .

تركت حركة الاسترداد التى اشتد ساعدها منذ منتصف القرن الحادى عشر أثرها فى البنية الاقتصادية ـ الاجتماعية بإسبانيا النصرانية ، فقد آلت إلى النصارى أراض واسعة ، تتوافر بها مياه وتقنيات زراعية أفضل مما كان عندهم ، كما تتوافر بها مرافىء جيدة ، مما هيأ الفرصة لنهضة اقتصادية ، حطمت بالتدريج نظام الضيعة ، وهيأت فائضاً ، جرى استثماره فى التجارة عبر البحر ، مثلما فعلت قطالونيا ، كما جرى استثماره فى بعض الصناعات بخاصة الأصواف [١] التى اشتهرت بها قشتالة ، ونشطت فى تصديرها إلى فرنسا ، ولم تتخلف البرتغال عن الركب ، فصارت لها وكالات تجارية فى أقطار أوربا الغربية ، ثم تصاعد هذا النشاط بعد أن تطرقت بأساطيلها إلى الشواطىء المغربية والإفريقية .

كان الأحرار هم أكثر الطبقات تأثراً بهذه التطورات ، فصاروا يتدافعون بأعداد كبيرة إلى الأراضى الجديدة ، وكانوا فى البداية يؤدون إلى سادتهم قدراً من المال Remensa ، فى مقابل السماح لهم بمغادرتهم ، وهو ما كانت تقضى به البنود السبعة ، على أن ذلك لم يكن كافياً ، إذ شرع الأحرار فى المطالبة بإلغاء هذا الشرط ، وقاموا بعدة انتفاضات زخرت بها وثائق القرنين الثالث عشر والرابع عشر ، وأيدهم فى بعضها الملوك وملوك أرغونة على نحو خاص ،

---

(١) درجت الحال فى قشتالة على أن تهجن خرافها المحلية بخراف أخرى جلبتها من بلاد المغرب ودعيت السلالة المختلطة باسم مرينوس Merinos نسبة إلى بنى مرين حكام المغرب الأقصى المعاصرين .

إلى أن تم إلغاء هذا الشرط نهائيًا على يدى فرناندو وإيسابيل فى سنة ١٤٨٦[1].

الأهم أن المدن التى كانت قد أصابها التدهور فى بواكير العصور الوسطى ، بدأت تعاود نشاطها ، وإن كان على نحو بطئ ، ومنحها الملوك مجموعةً من القوانين البلدية ، Fueros أهمها فى البداية القانون الذى منحه ألفونسو الخامس لمدينة ليون فى سنة ١٠١٧ ، وأهمها جميعاً مجموعة القوانين القوطية التى ترجمت فى عهد فرناندو الثالث ملك قشتالة باسم Fuero Juzgo ، ومنحها للمدن المستردة حديثًا فى الأندلس .

كفلت هذه القوانين للمدن أن تحقق لنفسها إدارةً ذاتيةً بعيدةً عن سلطة النبلاء ، وهيأت لها الفرصة لأن تنمو وتتطور بخاصة فى أرغونة . وكان الملوك ـ من ناحيتهم ـ يرون فى المدن حليفاً لهم فى صراعهم مع النبلاء والكنيسة فسمحوا لها بأن ترسل ممثلين عنها إلى الكورتيس ، وبذا سبقت إسبانيا سائر أقطار أوربا فى أن وجد داخل مجالسها التشريعية ممثلون للطبقة الثالثة ، بل إن هذه المجالس فى القرن الخامس عشر صارت قصراً على هذه الطبقة .

ترتب على هذا الحلف بين الملوك والمدن أن خاض الطرفان معارك ناجحةً ضد النبلاء والكنيسة . على أنه بعد فترة تحولت بعض هذه المدن إلى قومونات ، وتحقق لها قدر أعلى من الاستقلال ، وصار بكل واحدة منها هيئة تدعى بالمشورة Consejo ، تقوم على تعيين قضاه منافسين للقضاه الملكيين ، وتمسكت فى الوقت نفسه بقوانينها البلدية التى سبق أن منحها لها الملوك ، وتصدت لمحاولات هؤلاء تطبيق القانون الرومانى عليها ، مما أفضى إلى أن يبرز

---

(١) بالغاء أعراف برشلونة التى دعيت « بالأعراف الشريرة » .

تناقض بين الحليفين السابقين .

في أخريات القرن الثالث عشر اتفقت بعض المدن في مملكة أرغونة على أن تنشيء عُصبة Unión ، ولم تجد بأساً من أن يدخل النبلاء معها في هذه العصبة، وترتب على ذلك حروب استمرت سنوات طويلةً بينها وبين ملوك أرغونة . كما أن بعض المدن في قشتالة شكلت ما يعرف بالأخويات Herman dades ، شاركت النبلاء في ثورتهم مع سانتشو النبيل ضد أبيه ألفونسو العالم .

بمرور الوقت بدأت تظهر داخل المدينة فئة من الأثرياء الذين سيطروا على هيئة المشورة ، وكانوا هم الذين يمثلون المدينة في الكورتيس ، واندرج بعضهم في سلك صغار النبلاء ، حيث عرفوا باسم Hidalgos وهو تعبير قريب من تعبير « أولاد الناس » ، على أن الاسم الذى شاع إطلاقه على هؤلاء هو فرسان العامة Caballeros Villanos أو المدنيون Ciudadanos .

في المقابل كانت الكثرة من أهل المدينة من الحرفيين Menestrales ، عملوا في الصناعة والتجارة ، ونظموا أنفسهم في نقابات Gremios ، وقويت هذه النقابات بعد الموت الكبير (أو الأسود) La gran mortandad ، وما نشأ عنه من قلة الأيدى العاملة وارتفاع الأسعار ، مما أدى إلى مطالبتها بزيادة الأجور .

دخل الحرفيون في تناقض مع أثرياء المدن ، ونافسوهم في انفرادهم بتمثيلهم في الكورتيس ، ووقف الملوك إلى جانب هؤلاء الحرفيين ، وشرعوا في استمالتهم وأصدروا قوانين عامة ، تنظم نقاباتهم بما في ذلك الأجور ويوم العمل وعرفت هذه القوانين باسم « قوانين الحرفيين » (Ordenamiento (Ordenanzas de menestrales .

هكذا وقبل أن تنتهى العصور الوسطى خرجت من رحم طبقة الأحرار أو

العامة طبقة جديدة من أهل المدن ، شكل بعض أبنائها طبقةً وسطى إلى جانب طبقة النبلاء وطبقة رجال الدين . على أنه مما تجب ملاحظته إن هذه الطبقة تسارع نموها فى قطالونيا أكثر من غيرها من أقطار إسبانيا ، بسبب ما جرى بها من تطور صناعى وتجارى بخاصة لدى الساحل حيث المدن الزاهرة .

4 ـ العبيد :

تكونت كتلة العبيد الرئيسية من أسرى الحرب المسلمين والمجرمين والمدينين، وعرفوا بعدة مسميات أشهرها Servi [١] ، وانقسموا إلى عبيد دولة Fiscales وعبيد كنيسة Ecclesiasticos وعبيد أشخاص Particularis .

ولم تكن للعبيد أية حقوق ، شأنهم شأن أسلافهم فى عهد القوط ، فما تزال النظرة إليهم على إنهم مجرد أشياء كالمبانى والأشجار ، ويتضمنون فى عقود البيع والشراء .

نتيجةً لسوء أحوال العبيد ، فإنهم ثاروا على سادتهم فى أشتوريش فى نهاية القرن الثامن ، وقمعت ثورتهم بكل عنف ، وأعيدو إلى حالهم التى كانوا عليها . وبعد أن نشطت حركة الاسترداد ، سعى بعضهم للهرب إلى الأراضى الجديدة المعمرة ، فيحصل على حق الانتفاع ، لكن لم يوفق فى هذا المسعى سوى القليل .

نتيجةً أيضاً لتأثر الإسبان بما كانت عليه الحال فى الأندلس ، صار بعضهم يحررون عبيدهم ، ويصدرون فى هذا الخصوص براءات تحرير Cartae Ingenuitas وتعنى أن العبد صار ـ من الناحية النظرية ـ حراً Civis Romanus لكن المعتق كان يخضع عادةً لحماية سيده السابق ، ويؤدى له جزية رأسه ، ويواصل العمل فى دواره أو يزرع الأرض التى سبق أن عاش فيها كعبد .

(١) منها أيضاً : Pueri ، Mancipii .

5 ـ اليهود :

كان عددهم كبيراً ، وازداد هذا العدد مع تصاعد الاسترداد ، ودخول أعداد كبيرة من يهود الأندلس فى طاعة النصارى .

كانت بعض المدن ـ بخاصة فى قطالونيا ـ تحتشد بأعداد كبيرة من اليهود . من هذه المدن طرّكونة التى دعيت « بمدينة اليهود » أما فى برشلونة فكانوا يعدلون النصارى كثرةً . وينوه الرحالة بنيامين التطيلى ـ وهو يهودى ـ إلى إنها حفلت بعدد كبير من علماء اليهود وحكمائهم .

كان اليهود يقيمون عادةً فى أحياء خاصة بهم ، دعيت فى البداية بمعسكرات اليهود Castra Judaeorum ، ثم دعيت فى القرن الثالث عشر بأحياء (أو حارات) اليهود Juderías . ونظمت الجماعة اليهودية Jama نفسها ، كما كانت عليه حالها فى الأندلس ، فكانت لها مشيخة تعنى بشئون اليهود ، دعى رئيسها بروش هاكنيست ، أى رئيس المعبد ، تعاونه مجموعة من العرفاء يدعون جبائيم ، يجمعون الضرائب المفروضة على اليهود ، إلى جانب الحزّانيم الذين كانت مناصبهم دينية ، كما كان للجماعة قاضيها ويعرف بالديّان Dayyan ، بينما كان الملك يعين القاضى الأعلى Rab - mayor .

ومن غريب إن اليهود الذين واجهوا صعوبات شديدة ، من قبل الملوك القوط قبل الفتح الإسلامى ، عوملوا معاملةً طيبةً من قبل الملوك النصارى بعد الفتح نفسه ولمادارياجا Madariaga (ت ١٩٧٨) عبارة ذات دلالة عن وضع اليهود فى هذا الإبان إذ قال « إن إسبانيا هودت » ، وربما نفسر هذا بالتأثير الإسلامى الذى كان جياشاً على الممالك النصرانية ، بيد إنه مما لاشك فيه أن عنصراً هاماً فى هذه السياسة ، هو حاجة الملوك إلى اليهود وخبراتهم وأموالهم ، وكونهم وسطاءً تجاريين بين الشرق والغرب .

كانت ترتيب اليهود فى السلم الاجتماعى ، يأتى مباشرةً بعد الملك والنبلاء، فسمح الملك لهم ببناء المعابد التى تصل فى ارتفاعها إلى ارتفاع الكنائس النصرانية ، وجعلوا دية اليهودى القتيل تساوى أحياناً دية الفارس أو القس، واستعانوا بهم فى الوظائف العليا ، ويوضح ذلك كتاب ألفونسو السادس إلى أمير المسلمين . قبيل معركة الزلاقة ، فيتحدث عن اليهود على أنهم «وزراؤنا وكتابنا ، وأكثر خدم العسكر منهم ، فلا غنى بنا عنهم » .وفى عهد بدرو القاسى (١٣٥٠ ـ ١٣٦٩) شغل صموئيل اللاوى - Samuel ha Levi وظيفة خازن بيت المال لعدة سنوات ، وإن كان قد تعرض لسخط هذا الملك الغريب الأطوار وقتل .

زاول اليهود ـ إلى جانب ذلك ـ أعمالاً مختلفة ومهناً منها الطب ، ويندر أن نجد بين أطباء القصر الملكى من ليس يهودياً ، وسمح لهم بملكية الأرض وزراعتها ، فحازوا فى القرن العاشر ثلث الضياع الكبيرة فى برشلونة ، وأنشئت فى الأراضى المعمرة مستوطنات أطلقت عليها أسماء يهودية ، مثل جبل اليهود Mons judaiorum ، والضيعة اليهودية Villa Judaica .

على أن إسهام اليهود فى الزراعة كان محدوداً ، وكانت التجارة والمال عملهم الرئيسى ، فتحكموا فى تجارة النسيج والأحجار الكريمة بمدينة ليون فى القرن العاشر ، وكانت أهم تجارة أسهموا فيها هى تجارة الرقيق ، والجدير بالذكر أن الكنيسة كانت تعترض على أن يحوز اليهود رقيقاً لكنها لم تعترض على إتجارهم به ، كذلك كان اليهود يتعاملون بالربا ، ويقرضون الناس بسعر فائدة كبير يبلغ الثلث ، وفى ملحمة السيّد مثال واضح على ذلك ، فكان اليهوديان راكيل وفيداس مشغولين بعد النقود ، حين جاءهما رسول السيّد ، يطلب

ستمائة مارك ، وخديعته لهما أشبه بخديعة أنطونيو لشيلوك فى رائعة شكسبير [١] (ت ١٦١٦) .

كانت اللغة العربية ذائعة الانتشار بين اليهود خارج حدود الأندلس ، ونستدل على ذلك من الوثائق المستعربية ، بعد أن أضحت طليطلة حاضرةً لمملكة ليون ، وفى إحداها إشارة إلى « العلم الوزير صاحب الشرطة أبو هرون بن الحارث الإسرائيلى » .

قام اليهود بدور كبير فى الحياة الثقافية بإسبانيا النصرانية ، فنهضوا بترجمة الكتب العربية واليونانية إلى اللغة اللاتينية ، أما عن الأدب اليهودى ، فإنه كتب فى معظمه فى الأندلس بالعربية ، وكتب فى معظمه فى إسبانيا النصرانية بالعبرية، ويدور فى موضوعات دينية .

ورغماً عما كان سائداً من تسامح تجاه اليهود ، إلا إنه وجد دائماً تيار ينحو نحو التعصب مصدره الكنيسة ، وفى المجمع القشتالى بأبيط فى سنة ١٠٥٠ تقرر ألا يعيش نصرانى فى منزل واحد مع يهودى ، ولا يشاركه طعامه . على أن الملوك لم يكونوا يعيرون هذه القرارات اهتماماً كبيراً .

فى غضون القرن الرابع عشر بدأت رياح التعصب تجتاح يهود إسبانيا النصرانية مع الصليبيين الذين توافدوا بأعداد كبيرة خلال القرنين السابقين ، فضلاً عن الضغوط المتزايدة من الكنيسة . والأهم من هذا كله ما جرى من نهوض الطبقة الثالثةً من أهل المدن الذين بدأوا يدخلون عالمًا جديداً كان قصراً على اليهود هو عالم التجارة ، مما أسفر عن صدام كان لا بد منه بين هؤلاء وأولئك .

زاد من هذا الصدام ووقعه ، ما كانت عليه صورة اليهود لدى أبناء هذه

---

(١) تاجر البندقية The Merchant of Venice .

الطبقة الناهضة ، فهم الجباة الذين يستعين بهم الملوك والنبلاء لنهب أموالهم، وهم كذلك المرابون الذين يلجئون إلى وسائل شتى لنهب هذه الأموال . ولم يلبث أن راجت شائعات بأن اليهود مسئولون عن النكبات التى حاقت بإسبانيا فى هذه المرحلة من حروب أهلية وانكماش اقتصادى ، بل هم مسئولون أيضاً عن الموت الأسود .

فى قطالونيا حيث كانت نهضة المدن أوفر من غيرها من أقطار إسبانيا ، درج العامة من أهل برشلونة وطركونة على إنه فى ثلاثة أيام معلومة كل سنة ، ينطلقون إلى أحياء اليهود فيطلبونهم ، فمن وجدوه منهم قتلوه ونهبوا داره .

انطلقت الشرارة الأولى فى يونيو ١٣٩١ ، حين أحرق العامة الحى اليهودى فى إشبيلية ، وذبحوا أربعة آلاف منهم ، وامتدت هذه الموجة إلى سائر أنحاء مملكتى قشتالة وأرغونة ، مما دفع الكثير من اليهود للهرب إلى مملكتى البرتغال وغرناطة ، كما تنصر بعضهم ومنهم سلومون هاليڤى (ت ١٤٣٥) الذى صار فيما بعد أسقفاً لبرغش .

ويذهب بيثنس بيبس إلى إنه من بين مائتى ألف من يهود قشتالة تنصر ما يناهز الخمسة وعشرون ألفا وذبح ما يناهز المائة ألف .

فى سنة ١٤١٢ صدرت قرارات تقضى باجبار اليهود على ارتداء ثياب صفراء واتخاذ شارة معينة هى النجمة السداسية ، وحظر عليهم أن يستخدموا نصارى أو أن يقتنوا عبيداً نصارى ، وأخضعوا للمحاكم النصرانية ، وأمر بطردهم من الوظائف العامة ، ومنعوا من ممارسة مهن معينة كالطب والصيدلة ، ومنعوا كذلك من الاتجار بالربا .

ترتب على ذلك أن ظهرت طبقة جديدة عرفت بالمرتدين Conversos .

وهم اليهود المتنصرون . ولما كان هؤلاء موضع شك فى إيمانهم ، فإنهم لم يسلموا من الاضطهاد ، ففى سنة ١٤٤٩ قام عامة أهل طليطلة بهجمات عليهم ، فقتلوا بعضهم واستولوا على ممتلكاتهم ، وصاروا يطلقون عليهم تعبير Marranos أى خنازير ، وبعد سنتين شرع ديوان التحقيق La Inquisición (محاكم التفتيش) يمارس عمله بينهم ، وفى عام ١٤٩٢ ـ وهو عام سقوط غرناطة ـ أمرت الملكة إيسابيل بنفى كل من رجع إلى دينه الأصلى منهم .

6 ـ المسلمون :

ليست لدينا معلومات وافرة عن حال المسلمين الأوائل فى إسبانيا النصرانية ، ويفهم من المصادر العربية أن التوسع الذى جرى فى عهد ألفونسو الأول الكاثوليكى ، أفضى إلى وجود عدد من المسلمين ، تنصروا فى معظمهم ، ويشير العهد الذى منحه ألفونسو الخامس لمدينة ليون فى سنة ١٠١٧ إلى بعض البربر الذين تنصروا ، لكنهم لم يتخلوا عن أسمائهم الإسلامية .

لم تكن أعداد هؤلاء المسلمين كبيرةً ، ولا يمكن أن تقارن بأعداد المستعربين فى الأندلس ، وبطبيعة الحال أضيفت إليهم أعداد أخرى ، بسبب الغزوات التى كانت متبادلةً على جانبى الحدود ، وكان النصارى يعودون فى بعض الأحيان بأسرى مسلمين دعوا باسم Mauri Capti أى المسلمون الأسرى ، واندمجوا فى طبقة العبيد .

كان الرقيق المسلم يتفاوت عدده بين عصر وآخر ، وكان المسلمون إبان نهضتهم فى الأندلس يحررون الرقيق المسلمين ، عندما يحققون النصر فى معاركهم ضد نصارى الشمال ، كما إن انفاق المال فى إطلاق الأسرى المسلمين ، كان من الأعمال الصالحة التى جرت عليها العادة عند المسلمين .

كانت الأحوال العامة للرقيق من المسلمين أسوأ من حال غيرهم من الرقيق، لا سيما وإنهم كانوا يعملون فى دوار النبيل ، وليس فى مزرعته ، كما كانوا يستخدمون فى تعمير الأراضى المستردة ، تحت إشراف الرهبان ، حيث كانت توجه إليهم الإهانات ، وفى غير أوقات العمل يردون إلى قيودهم .

على أن نصارى الشمال تأثروا فيما بعد بالأعراف الإسلامية الخاصة بعتق العبيد ، وهو ما نستدل عليه من الوثائق المستعربية بطليطلة ، فتشير إحداها إلى مملوكة متنصرة قاطعت سيدها على حريتها بقدر من الأموال تؤديه منجماً فتصير حرةً ، وهى طريقة المكاتبة ، وتشير وثيقة أخرى إلى وصية راهبة بعتق مملوكتها المسلمة عند وفاتها وهى طريقة التدبير .

ومنذ منتصف القرن الحادى عشر دخلت فى سيادة الممالك النصرانية أعداد كبيرة من المسلمين بسبب سقوط العديد من القواعد والمدن الأندلسية فى أيدى هذه الممالك . وكان هؤلاء فى معظمهم من الأحرار ، لذا عرفوا بـ Mauri pacis أى « المسلمون المستأمنون » و Mauri regis أى « المسلمون التابعون للملك » على أن الاسم الذى شاع إطلاقه على هؤلاء المسلمين هو المدجنون Mudéjares ، وتعنى هذه التسمية المسلمين الذين التزموا ديارهم وآثروا السلامة، مقابل أداء الجزية Tributum ، لذا كانوا يدعون أحياناً Tributarii .

أثار وجود هؤلاء الأحرار بالممالك النصرانية مشكلةً عند الفقهاء المسلمين بالأندلس . ويقرر ابن حزم (ت ٤٥٦/ ١٠٦٤) الذى عاصر هذه المرحلة ، أن المسلم إذا لم يكن قادراً على الهجرة إلى بلاد المسلمين لسبب أو لآخر فهو معذور، وإذا شارك النصارى فى حربهم وأعانهم فهو كافر ، أما إذا أقام لدنيا يصيبها وهو قادر على الهجرة فغير معذور لكنه لايكفره .

شكل المدجنون أقليات كبيرة فى ممالك إسبانيا النصرانية ، بل إنهم شكلوا

كثرة السكان فى قشتالة الجديدة Castilla la nueva ، ومرسية وبلنسية والغرب، وعاشوا فى أحياء خاصة بهم داخل المدن دعيت Morerías ، يسوس أمورهم «مقدم» Adelantado أو« قائد » al-Cayed تعاونه « مشيخة » Los Viejos، كما كان للجماعة الإسلامية قاض يدعى « بصاحب الجماعة » Sahib al Jama أو صاحب الحصن » çavalachen ، أما فى الخصومات التى يكون أطرافها مسلمون ونصارى، فكان ينظرها قاض نصرانى أو قضاة مسلمون ونصارى .

يتضح لدينا أن المدجنين عوملوا بقدر من التسامح فى إسبانيا النصرانية ، فسمح لهم بالاحتفاظ بدينهم ومساجدهم ـ عدا المسجد الجامع ـ ومدارسهم ، ولم تفرض عليهم ضرائب سوى التى سبق لهم أداؤها لحكامهم المسلمين ، فضلاً عن الجزية ، واحتفظوا بحقهم فى البيع والشراء للعقارات ، كما احتفظوا بحقهم فى حمل السلاح ، وأجيزت لهم الخدمة فى الجيش .

وتحقق ما كان يخشاه الفقهاء المسلمون ، فكثير من المدجنين حاربوا مع سادتهم النصارى ضد سائر إخوانهم المسلمين ، مما كان له أثره الفادح فى الأندلس، لأنهم كانوا أعرف بها من غيرهم ، ثم إن بعضهم خالط النصارى وتزاوج معهم ، الأمر الذى افقد هؤلاء دينهم ولغتهم وخصائصهم القومية بمرور الوقت .

على أن الكنيسة كانت تنقم من وجود هؤلاء المسلمين وسعت لدى ملوك قشتالة وأرغونة ، من أجل أن يتخلوا عن سياسة التسامح هذه ، وتوالت القرارات البابوية بشأنهم ، تحض على استرقاقهم أو تنصيرهم ، ونلاحظ هذه القرارات على نحو خاص بعد استيلاء خايمه الفاتح على الجزائر الشرقية (البليار) .

لكن الملوك كانوا يتغاضون عن مساعى الكنيسة ، لأسباب تتصل بمصالحهم ومصالح بلادهم ، لأن المدجنين كانوا أفضل رعاياهم وأنشطهم وأوفرهم أداءً

للأموال ، كما كانوا مبرزين فى الطب والهندسة ومهن أخرى ، وهم أصحاب الفضل فى إدخال محاصيل معينة كالقطن والحرير والأرز وقصب السكر والتين والبرتقال ، وهم أيضاً أصحاب الفضل فى قيام نظام خاص للرى فى شرقى الأندلس ، وبرعوا فى صناعات مختلفة أخصها المنسوجات ، كما نشطوا فى التجارة .

الأكثر من هذا فقد ابتكر المدجنون طرازاً معمارياً نسب إليهم هو الطراز المدجنى الذى استخدموه فى بناء كنائس ودور وقصور ، بينما القصر Alcázar فى إشبيلية وبوابة الشمس Puerta de sal فى طليطلة .

لا يخفى كذلك أن من هؤلاء الملوك من أفاد من المدجنين فى النهضة العلمية التى بدأت تبرغ فى إسبانيا فى القرن الثالث عشر ، واختص الفونسو العاشر ملك قشتالة ببعض علمائهم ، واستعان بهم فى تصنيف كتب نسبت إليه بعد ذلك ، كما إن من هؤلاء الملوك من أفادوا من المدجنين ومن له دراية بفنون الحرب منهم ، وجعلهم إنريكى الرابع ملك قشتالة (١٤٥٤ ـ ١٤٧٤) فى جملة حرسه .

على أنه مما يجب ملاحظته أن تيار التسامح هذا ، رافقه منذ البداية تيار آخر من التعصب ظل يتنامى عبر سنوات طويلة ، إلى أن أضحى هو التيار السائد ، منذ مطالع القرن الخامس عشر ، وهو ما أفضى فى النهاية إلى مصير بائس كان فى انتظار المدجنين وخلفائهم الموريسكيين .

نستطيع أن نلتمس شواهد واضحةً على هذا التيار فى منتصف القرن الثالث عشر ، حين منعت البنود السبعة المسلمين ، من أن يتخذوا مساجد فى المدن ، وحثت على تنصيرهم بالحسنى ، وفى سنة ١٢٥٢ أمر كورتيس قشتالة بمنع المسلمين من ارتداء ملابس زاهية الألوان ، ولا أن يعيشوا فى منازل نصارى ، أو يستخدموا نصارى أو أن يشتروا أراض من نصارى .

يذهب مينينديث بيدال Ramón Menéndez Pidal (ت ١٩٦٥) إلى أن الاتجاه إلى الملكية المطلقة والشخصية الوطنية للدولة ، وهما من آثار الرنيصانص (النهضة) كان وراء إنتهاء هذه الروح التسامحية العريضة ، ويؤيده كاسترو ويضيف إن مفهوم التسامح فقد قوته ، عندما كف المسلمون عن إثارة الرعب والإعجاب معاً فى نهاية القرن الرابع عشر ، ولم يعد ممكناً للنصارى والمسلمين واليهود أن يعيشوا معاً فى البيت نفسه ، بسبب إحساس النصرانى العارم والدائم بأنه الأقوى بين أقرانه .

فى عهد مارتن ملك أرغونة (١٣٩٥ ـ ١٤١٠) صدرت قوانين تحد من حركة المدجنين ، ومنعهم من إظهار شعائرهم ، ومنها الأذان للصلاة ، ومنعهم كذلك من استقلالهم القضائى ، وصار عليهم أن يمثلوا أمام القضاة الملكيين . أما خوان الثانى ملك قشتالة (١٤٠٦ ـ ١٤٥٤) فإنه ألزم المدجنين بأن يرتدى الواحد منهم قلنسوة صفراء ، ويضع على كتفه الأيمن شارة زرقاء ، وحظر عليهم أن يتقلدوا وظائف عامة أو أن يشتغلوا بالتجارة ومهن غيرها .

الفصل الثالث عشر
الثقافة في إسبانيا النصرانية

تمهيد :

خلال القرون الثلاثة الأولى من تاريخ إسبانيا النصرانية ، لم يكن للثقافة وجود ناشط بها لأن المراكز الحضارية الهامة كانت تقع داخل الأراضى الإسلامية ذاتها ، ثم إن هذه الممالك كانت ميداناً لغزوات متتالية من قبل المسلمين ، وصل بعضها إلى عواصمها ومدنها الكبيرة ، مما أدى إلى حال من عدم الاستقرار ، انعكست بدورها على الثقافة ، ولم يجد الطامحون من الإسبان مندوحةً من الهجرة إلى الجانب الآخر من البرتات ، حيث وجدوا فرصتهم فى بلاط شارلمان (٧٦٨ ـ ٨١٤).

تركزت الثقافة ـ على نحو عام ـ فى الأديرة ، وما تخلف عن هذه المرحلة ـ وهو قليل ـ يدور فى معظمه فى موضوعات دينية ، ويعود الفضل فيه إلى مستعربين ، وفدوا من الأندلس ، ونقلوا معهم قواعد الرهبانية كما وضعها القديس إيسيدور وغيره من آباء الكنيسة ، كما يعود الفضل إلى أحدهم فى تصنيف الحولية المتنبئة (٨٨٣) واعتمد فيها على مصادر عربية .

على أنه وجدت فى قطالونيا مراكز ثقافية ، تعد امتداداً لمراكز مجاورة لها فى إقليم پروفانس Provence ، ونخص بالذكر مكتبة دير سانتا ماريا دى ريپول Santa María de Ripoll ، التى حفزت راهباً ألمانياً يدعى جربرت Gerbert إلى الوفود إليها ، وقد صار هذا الراهب بعد سنوات بابا باسم سيلفستر الثانى Sylvester II (٩٩٩ ـ ١٠٠٣).

خلال القرن الحادى عشر بدأت الثقافة فى إسبانيا النصرانية ، تتقدم بخطى

وئيدة ، ويعود ذلك إلى تصاعد حركة الاسترداد ، وما تبعه من سقوط العديد من القواعد الإسلامية الزاهرة ابتداءً بطليطلة ، ووجود مجتمعات إسلامية كبيرة داخل هذه القواعد يعيش فيها مواطنون مسلمون ، صاروا من رعايا الممالك النصرانية وعرفوا بالمدجنين .

نشأ عن وجود هؤلاء المسلمين ، ووجود عدد آخر من اليهود ، أن نشطت حركة الترجمة ، وتأسست مدارس خاصة بها ، أكبرها فى طليطلة Colegio de traductores Toledonos ، حيث جرى ترجمة العديد من الكتب العربية واليونانية فى الطب والفلسفة والرياضيات والفلك والعلوم والآداب . وأشرف على هذه الحركة فى بعض مراحلها عدد من رجال الدين ، أشهرهم رودريجو خمينيث دى رادا Rodrigo Jiménez de Rada (ت ١٢٤٧) رئيس أساقفة طليطلة .

شارك فى الترجمة بعض رجال الدين المثقفين من الإسبان – نصارى ويهوداً متنصرين – أبرزهم فى الصدر الأول دومينجو جونثالث Domingo González[1] . (ت حوالى ١١٨١) أسقف شقوبية Segovia ويوحنا الإسبانى Joannes Hispanus ويعرف أيضاً بابن داود Avendaut ، وقد تعاونا فى ترجمة العديد من الكتب العربية (واليهودية) ومنها النفس والطبيعة وما وراء الطبيعة لابن سينا (ت ٤٢٨/ ١٠٣٧) ومقاصد الفلسفة للغزالى (٥٠٥هـ / ١١١١) وينبوع الحياة[2] لابن جبيرول (ت ٤٦٢/ ١٠٧٠) كما ألفا كتباً اعتمدا فيها على مصادر عربية .

شارك فى الترجمة كذلك ، بعض رجال الدين الوافدين إلى إسبانيا ، ومنهم

---

(١) ويعرف أيضاً بدومينيكوس جونديسالفى Dominicus Gundisalvi .

(٢) ويدعى بالعبرية « ميكورحاييم » وباللاتينية Fons Vitae .

جيراردو الكريمونى Girardo di Cremona (ت ١١٨٧) ويعزى إليه ترجمة ما يزيد على السبعين كتاباً عربياً فى الفلك والرياضيات والطب ، وميخائيل سكوتوس Michael Scotus الإنجليزى (ت ١٢٣٥) وهو أول من ترجم ابن رشد ، وهرمان الألمانى Hermannus Alemannus (ت١٢٧٢) وقد ترجم الشعر لأرسطو .

امتدت الترجمة إلى مجال الأدب ، وأشهر عمل فى البداية ، نهض عليه يهودى إسبانى متنصر هو بدرو ألفونسو Pedro Alfonso (ت ١١١٠) وقد نقل من التراث العربى مجموعة من القصص الخيالية دعاها Disciplina Clericalis أى « سلك الكتاب » أو « التربية الكنيسة » ، صار لها تأثير واضح على أجيال من الأدباء ، بينهم بوكاتشيو Boccaccio (ت ١٣٧٥) وثرڤانتس Cervantes (ت ١٦١٦).

فى سنة ١٢٥٢ اعتلى عرش قشتالة ألفونسو العاشر ، ورغماً عما واجهه هذا الملك من صعاب ـ عرضنا لها فى موضع سابق ـ وامتدت حتى وفاته فى سنة ١٢٨٤ إلا أنه تفرد بين ملوك إسبانيا فى العصور الوسطى بمكانة فى مجال الثقافة لاتضاهيها مكانة غيره من هولاء الملوك ، وأحاط نفسه بكوكبة من العلماء والأدباء والمترجمين ـ مسلمين ونصارى ويهوداً ـ وحفزهم إلى ترجمة العديد من الكتب العربية فى فنون شتى ـ نعرض لها بعد ـ كما كان هو نفسه شاعراً ، بل رائداً من رواد الشعر الغنائى فى إسبانيا بأقطارها كافةً .

لهذا وغيره اشتهر ألفونسو العاشر فى التاريخ بالعالم أو الحكيم el Sabio .

لم تكن الترجمة هى الجسر الوحيد الذى عبرت عليه الثقافة العربية الراقية إلى ممالك إسبانيا النصرانية ، فقد كان للصلات الاجتماعية الحميمة بين النصارى والمسلمين أثرها فى أن انتقلت بعض فنون المسلمين وطرزهم المعمارية

إلى نسيج الحضارة الإسبانية ، بل إن بعض الكنائس درجت على استقدام عدد من العازفين المسلمين والمغنيين ، ليمارسوا عزفهم وغناءهم فى مناسباتها الدينية ، مما كان مدعاة لسخط المجمع الذى عقد فى بلد الوليد Valladolid فى سنة ١٣٢٢ .

ترتب على حركة الاسترداد كذلك أن توافدت أعداد كبيرة من الأوربيين ، مدفوعين بالروح الصليبية السائدة ، وكان المستوى الثقافى لهؤلاء الوافدين يفوق فى بعض الأحيان مستوى نظرائهم الإسبان .

الأهم إن من توافد من هؤلاء فى القرن الخامس عشر حمل معه عبق النهضة الإيطالية ، وما يرتبط بها من نزعة إنسانية .

على أن هذه النهضة ترتبط على نحو خاص بمملكة أرغونة ، التى كانت أكثر انفتاحًا ـ بحكم موقعها ـ على هذه النهضة ، وزاد منها ما جرى من صلات بين التاج الأرغونى وإيطاليا منذ نهاية القرن الثالث عشر . وكان ألفونسو الخامس (١٤١٦ ـ ١٤٥٨) ذا ثقافة عالية ، وتشبع بروح النهضة ، وصار بلاطه فى نابولى عامرًا بالفلاسفة وعلماء اللغة والأدباء ـ إسبانيين وإيطاليين ـ وأثرى هذه المدينة بفنون العمارة والبناء .

أثمرت هذه النهضة عن نشوء عدد من الجامعات الإسبانية أولها جامعة بالنثيا Palencia وجامعة شلمنقة Salamanca ، اللتان تعاصرتا فى هذه النشأة مع جامعتى بولونيا فى إيطاليا وباريس فى فرنسا . ويرجع الفضل فى إنشاء جامعة بالنثيا فى أخريات القرن الثانى عشر إلى ألفونسو الثامن ملك قشتالة ، الذى استقدم إليها علماء اللاهوت والفنون الحرة من إيطاليا وفرنسا ، ثم أنشأ فرناندو الثالث بها كليات للآداب واللاهوت والقانون الكنسى .وإذا كانت جامعة بالنثيا قد خمد نشاطها بعد موت هذا الملك ، إلا أن جامعة شلمنقة التى أنشأها

ألفونسو التاسع مع ملك ليون فى أوائل القرن الثالث عشر ، صارت كبرى الجامعات الإسبانية ، خصوصاً بعد أن عنى بها ولده فرناندو الثالث ملك قشتالة ، ووافق البابا فى سنة ١٢٥٥ على منح خريجيها إجازة التدريس ، والجدير بالذكر أن اللغات العربيــة والعبرية والسريانيـة ، كانت تحظى بعناية خاصة فى هذه الجامعة .

ومع أن الجامعات الإسبانية لم تصل إلى مستوى جامعتى بولونيا وباريس ، إلا أن إسبانيا شهدت فى القرن الرابع عشر ظهور جامعات أخرى ، من بينها جامعة لاردة (١٣٠٠) قلمرية (١٣٠٨) ووشقة (١٣٥٤) .

١ ـ الفكر الديني واللاهوت :

لا نستطيع أن نتحدث عن فكر دينى فى إسبانيا النصرانية ، قبل بداية القرن الثانى عشر ، فقد كان هذا الفكر ، لا يتعدى كونه شروحاً لكتابات آباء الكنيسة، ولم يكن ثم نشاطات قوية ، سوى ماكان رد فعل أو امتداداً لنشاطات أخرى موجودة فى الأندلس .

أبرز ما يدل على هذا نحلة التبنى Adopcionismo ، التى ظهرت بين نصارى الأندلس فى أخريات القرن الثامن ، وتنسب إلى مطران طليطلة إليباندوس Elipandus . وتذهب هذه النحلة إلى أن المسيح عليه السلام ، بقدر ماكان إنساناً ، كان ابناً لله بالتبنى ، وأيده فى مذهبه فليكس Felix أسقف أرقلة Ur-gel فى الثغر الإسبانى ، وتصدى للاثنين معاً راهبان هما بياتوس Beatus من ليبانا Liebana بأشتوريش ، وإيتريوس Eterius من أوسما Osma . وكتب هذا الأخير دحضاً للتبنى ، وبعث ألكوين Alcuinus زعيم النهضة الكارولنجية بخطاب إلى إليباندوس ، يحضه على التخلى عن مذهبه ، فرد عليه هذا بخطاب

شديد اللهجة ، ودعاه بأريوس الجديد ، وهاجم بياتوس ودعاه بالدجال . وترتب على ذلك أن عقد مجمع دينى فى فرانكفورت فى سنة ٧٩٤ ، حضره ثلاثمائة من الأساقفة ، أدان هذه النحلة .

ترتب على تصاعد حركة الاسترداد منذ منتصف الحادى عشر أمران هامان، أولهما هو تزايد نفوذ المسلمين وتأثيرهم الجياش فى الفكر الإسبانى ، بسبب حركة الترجمة فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر . وتعبر عن ذلك كتب دومينجو جونثالث ، ومنها « خلود النفس » De immortalitate animae وهو مبنى على أراء ابن سينا وابن جبيرول ، و « خلق الدنيا » De Processione mundi وهو مبنى على الأفلاطونية المحدثة كما عرفها المسلمون ، كما إن له كتاباً فى فروع الفلسفة De divisione philiosophae سار فيه على نهج الفارابى (ت ٣٣٩/ ٩٥٠) فى إحصاء العلوم .

الأمر الآخر هو تزايد نفوذ البابوية ، فصار البابا يصدر رسائل إلى الكنائس الإسبانية ، يدعوها فيه إلى إصلاح أحوالها ، ويدعو أيضاً إلى أن يوحد الإسبان جهودهم ضد المسلمين ، كما أمر بعقد عدد من المجامع الدينية .

أفضت هذه الجهود إلى استبدال الطقوس الكنيسة الرومانية بالطقوس القوطية (أو المستعربية) رغماً عن معارضة دامت سنوات طويلة من جهة المستعربين، والأهم هو تدفق العديد من الرهبان الذين نشطوا فى سعيهم لتنصير المدجنبين ، واقتدى بهم عدد من الإسبان ، بينهم بدرو بسكوال Pedro Pascual أسقف جيان (ت ١٣٠٠) وأهمهم رايموندو لوليو Raimundo Lullo (ت ١٣١٥) _ ويأتى الحديث عنه بعد _ وجدير بالذكر أن هذه الجهود التنصيرية ، لم تفسر عنه نتائج إيجابية واضحة ، لوجود تيار قوى بين الإسبان ، يدعو إلى التعايش بين سائر الديانات فى شبه الجزيرة ، فضلاً عن حرص المسلمين على

التمسك بدينهم .

خلال القرن الثالث عشر وصلت إلى إسبانيا أصداء الفلسفة المدرسية [١] ، بخاصة الاتجاه الذى يمثله القديس توما الأكوينى Thomas Aquinas (ت ١٢٧٤) وكان هذا الاتجاه يسعى إلى التوفيق بين العقيدة النصرانية والفلسفة الأرسطية . ووجد أنصاراً له فى إسبانيا ، كما وجد خصوماً ، وفى الأحوال جميعها ، فإن المفكرين الإسبان فى هذه المرحلة تأثروا بدورهم بالفلسفة الإسلامية المتأثرة بالأرسطية ، وما عرف بالرشدية اللاتينية وعلم الكلام والتصوف والأفلاطونية المحدثة فى ثوبها الإسلامى .

عاش فى إسبانيا خلال القرن الثالث عشر عدد من المفكرين اللاهوتيين ، بينهم بطرس الإسبانى Petrus Hispanus (ت ١٢٧٧) وهو راهب برتغالى، صار فيما بعد بابا باسم يوحنا الحادى والعشرين وله كتاب فى المنطق يدعى Summulae logicalis ، ظل يدرس فى إسبانيا لمدة ثلاثة قرون . ورايموندو مارتين Raymundo Martin [٢] (ت ١٢٨٦) وهو أيضاً راهب، وكان عارفاً بتراث المسلمين ، بما فى ذلك القرآن الكريم والحديث الشريف وكتب الإمام الغزالى بخاصة كتابه « تهافت الفلاسفة » ، وأفاد من هذا التراث فى إثبات الخلق من العدم Creatio ex nihilo ، وله كتاب هام فى محاجاة اليهود دعاه « خنجر الإيمان ضد اليهود » Pugio fidei contra Judaeos ، أفاد فيه بأفكار القديس توما الأكوينى فى كتابه « الخلاصة ضد الأعاجم » Summa contra gentiles ، وحاول مارتين فى كتابه أن يثبت أن يسوع هو المسيح الذى ينتظره اليهود ، ويذهب مينينديث إِلى بلايو -Marcelino Menén

---

(١) أى الفلسفة التى كانت تعلّم فى المدارس Scholae ، وهى فلسفة العصور الوسطى بامتياز .

(٢) ويعرف فى القطالونية برامون مارتى Ramón Martí .

dez y Pelayo (ت ١٩١٢) إلى أن هذا الكتاب هو أفضل ما صنفه الإسبان في الإلهيات خلال القرن الثالث عشر .

أتى بعد ذلك أرناودى بيلانوبا Arnau de Vilanova (ت ١٣١١) وهو طبيب أرغونى له دراية واسعة بالطب العربى ، وكان قد راعه ما شاهده فى عصره من فساد ، فسعى إلى إصلاح المجتمع ، داعياً الملوك وفى مقدمهم البابا إلى إصلاح أنفسهم ، والعودة بالنصرانية إلى طهارتها الأولى ، وصنف فى هذا الشأن كتاباً دعاه « مقدم الدجال ونهاية العالم » De adventu Antichriste et Fine Mundi ، تنبأ فيه بمقدم الدجال فى سنة ١٣٤٥ ، ودخل فى معارك فكرية مع بعض رجال الدين الذين اتهموه بالبعد عن العقيدة الصحيحة ، كما دخل فى معارك مع التوماويين (أنصار القديس توما الأكوينى) الذين سعوا إلى تطبيق العقلانية الأرسطية على العقيدة النصرانية ، ومع هذا فإن دعوته الإصلاحية استمر لها حضورها فى إسبانيا فترة طويلة .

على أن أكبر مفكر لاهوتى فى إسبانيا فى العصور الوسطى هو رايموندولوليو[1] (ت ١٣١٥) وهو مفكر موسوعى ، لاهوتى ، ناسك ، منصِّر، روائى ، شاعر و (شهيد) ، ويتفق مع أرناو فى إنه لم يتلاءم مع عصره .

ولد لوليو بجزيرة ميورقة ، وقضى شبابه فى بلاط خايمه الأول ملك أرغونة، ثم تنسك وجعل هدفه الأساسى هو تنصير المسلمين ، وألف عدة كتب ، دعا فيها البابا وملوك أوربا إلى إنشاء مدارس لتعليم اللغة العربية ، من أجل إعداد منصرين ، وتنقل من أجل هذه الغاية نحو أربعين سنة فى أنحاء متفرقة من أوربا، وأسفرت جهوده عن صدور قرار من مجمع ڤيينا الدينى ، بإنشاء كراس للغات الشرقية فى بعض الجامعات الناشئة .

---

(١) ويعرف فى القطالونية برامون لل Ramón Lull .

رغماً عن جهود لوليو التنصيرية فإنها لم تسفر عن نتائج مرضية ، وعبر هو نفسه عن أسفه لهذه النتائج فى بعض أشعاره ، ولم يجد سوى الرحيل إلى تونس فى سنة ١٣١٥ ، حتى يمارس التنصير بنفسه ، وهناك تم رجمه بالحجارة حتى الموت .

أصدر لوليو عدة كتب باللغتين العربية والقطالونية ، وترجمت بعض هذه الكتب إلى اللغة اللاتينية على أيدى تلامذته ، وكان يهدف فى كتبه هذه إلى غايتين متصلتين ، هما التنصير بين المسلمين واصلاح الهيئة الكنسية .

فيما يختص بالمسلمين ، انصرف لوليو إلى شرح العقيدة النصرانية كما يفهمها على نحو يتقبله هؤلاء ، وأفاد من منهجه المتأثر بالأرسطية فى محاجاتهم، وهو فى هذا السياق يشيد ببعض من قيمهم وفضائلهم ، رغماً عن إيمانه بخطأ عقيدتهم .

أما بالنسبة للكنيسة فقد ذهب لوليو إلى إنه لايوجد تعارض بين العقل والإيمان ـ على ما بينهما من تباين ـ لأن الحقيقة مزدوجة ، وبذا أدان الرشديين اللاتينيين الذين فصلوا بين الفلسفة واللاهوت ، كما دعا إلى وحدة المعرفة ، باعتبار أن هناك مبادىء عامة مشتركة تحكم فروعها ، وفصل أفكاره هذه فى كتاب دعاه « الفن الأكبر » Ars magna generalis ultima ، كان له تأثيره ـ بعد ـ على الفيلسوف الهولندى لايبنتس Leibniz (ت ١٧١٦) الذى أخذ ببعض أفكاره .

يتضح هذا المنهج على نحو خاص فى رواية كتبها لوليو ودعاهابلا نكيرنا Blanquerna ، تعد الأهم بين كتبه الكثيرة ، وتتداخل أحداثها مع سيرته الذاتية ، فهى تحكى قصة شاب يدعى بلانكيرنا ، رفض أن يحيا الحياة التى اختارها له أبواه ، واتخذ طريق الرهبنة وصعد فى مناصبها إلى أن صار مقدم دير

ثم أسقفاً فبابا ، وكان فى كل مرحلة من هذه المراحل يسعى إلى اصلاح نفسه والعالم حوله . وواضح الأسلوب الرمزى فى هذه الرواية ، إذ هو يتحدث عن الفضائل التى يجب أن يتحلى بها كل من الراهب ومقدم الدير والأسقف والبابا نفسه ، ويحسن يوليو للبابوية أن تعود إلى ما كانت عليه فى السالف من نسك وزهد وعبادة ، ويتردد فيها نزوع صوفى واضح ، كالذى نشاهده عند محيى الدين بن عربى (ت ٦٣٨ / ١٢٤٠) فالغاية من الحياة عند بلانكيرنا هى الاتحاد بالله، والغاية من الحب هى المشاكلة بين ذات المحب وذات المحبوب .

وعلى ذكر التصوف وغيره من مؤثرات إسلامية ، فإن لوليو جعل الأسماء الحسنى التى عرفها المسلمون مائة [1] ، وكتب منظومة من ألف بيت ، جعل فيها لكل اسم من هذه الأسماء عشرة أبيات ، كى تنشد فى الكنائس ، مثلما يرتل المسلمون القرآن فى مساجدهم .

لم تقف لوليو عند هذا ، فقد كان يزدرى أية هيئة كنسية نظامية أو ديرية ، ويتجول فى الطرقات مرتدياً خرقةً ، ويلقى المواعظ بين الناس ، يبشر بينهم بالنصرانية ، ويدعوهم إلى أن يحاسبوا أنفسهم قبل أن يحاسبوا ، واستخدم فى هذا السياق لغةً بسيطة مفهومة ، يستطيع أن ينفذ بها إلى أعماقهم .

امتد نفوذ لوليو لسنوات طويلة بعد موته ، خصوصاً فى وطنه قطالونيا ، وزاد من هذا النفوذ ما اتسمت به كتبه من طابع صوفى ، وما اتسمت به كذلك من طابع شعبى ، فضلاً عن كتابة بعضها باللغة القطالونية الناشئة ، مما دفع الكنيسة إلى مهاجمتها ، واتهامها بالبعد عن العقيدة الصحيحة ، لكن ملوك أرغونة نهضوا للدفاع عن أفكار لوليو ، باعتبارها فلسفةً وطنية ، وأنشأ ألفونسو الخامس الأرغونى عدة مدارس لتعليم كتابه « الفن الأكبر » وفى سنة ١٤٨١ أنشئت مدرسة

---

(١) أى إنه أضاف اسماً واحداً زائداً وذلك ليتميز عن المسلمين .

لألّلية فى جزيرة ميورقة ، حولها فرناندو الكاثوليكى إلى جامعة ، ولم يلبث أن امتد نفوذ اللّلية إلى البرتغال ، فأنشئت لها مدرسة فى لشبونة .

من أهم اللّليين فى القرن الخامس عشر مواطنه رامون سيبيودا Ramón Si-biuda الذى ألف كتاب الخلق « Liber Creatororum » ، أوضح فيه إنه بملاحظة الطبيعة ، يستطيع الإنسان أن يتوصل إلى المبادىء الأساسية للنصرانية ، على أن أهمية هذا الكتاب تبدو فى تركيزه على المعرفة التى يتحصل عليها بالتجربة ، وعلى نحو خاص التجربة الفردية .

اصطدمت اللّلية بسبب نزعتها الشعبية بالمدرسية التى كانت موجودةً فى الجامعات فنشأ تيار معارض لها ، من رجاله أنسلمو دى تورميدا Anselmo de Turmeda (ت ١٤٢٥ أو ١٤٣٠) وهو ميورقى كلوليو ، درس فى جامعتى لاردة (فى إسبانيا) وبولونيا (فى إيطاليا) ، وألف عدة كتب بالقطالونية ، منها كتاب « مجادلة الحمار » Disputa de l'ase ، حفل بالسخرية من رجال الدين والكنيسة ، ويتخذ هيئة حوار بين إنسان وحمار ، وتدور حول مقولة ، أيهما أسمى من الآخر الإنسان أم الحمار ، ويقرر أنسلمو على لسان الحمار أن الإنسان أدنى من الحيوان لعبثه وغبائه وجنونه .

يذهب جونثالث بالنثيا Angel González Palencia (ت ١٩٤٩) إلى أن هذا الكتاب ـ فى واقع الحال ـ صدى للرسالة الثالثة من رسائل إخوان الصفا التى تعود إلى القرن العاشر .

إرتحل تورميدا ـ مثلما فعل لوليو ـ فى أواخر حياته إلى تونس ، حيث أسلم وتسمى بعبد الله الترجمان ، وألف بالعربية كتاباً ضد النصرانية ، دعاه « تحفة الأريب فى الرد على أهل الصليب » احتج عليها بالعقل الطبيعى ، أى إنه أفاد بأفكار لوليو ، ولكن لنصرة الإسلام .

من معارض لوليو أيضاً الكردينال خوان دى توركيمادا Juan de Torquemada [1] (ت ١٤٦٢) ، ويمثل الاتجاه المحافظ فى اللاهوت النصرانى، ودافع فى كتابه « الخلاصة فى الكنيسة » Summa de ecclesia عن البابوية وسلطاتها ، وقرر إنها أسمى من سلطات المجامع الدينية الوطنية الخاضعة لسيطرة الملوك ، كما قرر إن من حق البابا أن يصدر قرارات الحرمان ضد الملوك ، وأن يعزلهم إذا اقتضت ذلك مصلحة كنسية أو حتى مصلحة زمنية يقررها البابا لحفظ العقيدة وصيانتها .

أتى بعد توركيمادا رودريجو سانتشيث دى أريبالو Rodrigo Sánchez de Arévalo (ت ١٤٧٠) أسقف سمورة ، وهو أشد تطرفاً منه ، وله كتاب عنوانه « مملكة الدنيا » De monarchia orbis ، دافع فيه كذلك عن سلطات البابا ، وأكد إنها سلطات روحية وزمنية معاً ، وله أن يتدخل كما يشاء فى شئون الحكام العلمانيين ، وفى كتابه عن التاريخ الإسبانى Historia Hispánica ، تتبدى نظرة القديس أوغسطين النصرانية للتاريخ .

يتضح من جهود هؤلاء المعارضين للوليو إنه برز فى إسبانيا منذ أواخر القرن الرابع عشر تيار ينحو إلى تحدى سلطة البابا ورجال الدين داخل الكنيسة وخارجها، وسعت السلطة الزمنية إلى إخضاع الكنيسة الوطنية ، وزاد من تدافع هذا التيار ، ما جرى من انقسام داخل الكنيسة ، وكثر الحديث عن فسادها . وفى قصيدة ساخرة تدعى « رقصة الموت » La danza de la muerte للشاعر بدرولوبيث دى أيالا Pedro Lopéz Ayala (ت ١٤٠٧) يتهم هذا الشاعر القساوسة بالإهمال فى أداء واجباتهم الدينية كما يتهمهم بالإقبال على مباهج

---

(١) هو ابن عم توماس دى توركيماد Tomás de Torquemada (ت ١٤٩٨) المحقق العام Inquisitor general فى عهد فرناندو وإيسابيل .

الحياة ، وانفاقهم وقتهم فى قصور الملوك ، وليس فى كنائسهم ، ويقرر إنهم يحبون الدنيا حباً جماً ولا يهتمون بالموت Aman al Mundo mu-cho,nunca cuydan morir .

2 ـ الكتابات التاريخية :

بعد أن استقرت الحال بمملكة ليون فى القرن التاسع ، بدأت تظهر بعض الحوليات التاريخية المجهولة المؤلفين ، وإن كانوا على نحو عام ـ من المستعربين .. أهم هذه الحوليات فى البداية حولية البلدة La Crónica Albeldense ، حيث عثر عليها عند دير البلدة ، وتضم مختصراً لتاريخ إسبانيا ـ إسلامية ونصرانية ـ حتى نهاية السنوات العشر الأولى من عهد ألفونسو الثالث (٨٧٦) . والحولية المتنبئة La Crónica Profetica وهى معاصرة للحولية السابقة ، ودعيت بهذا الاسم ، لأنه كانت هناك نبوءة ، بأن سيادة العرب فى إسبانيا ، سوف تنتهى فى العام ٨٨٣ ، وهو تاريخ كتابة هذه الحولية ، وجدير بالذكر أن الحوليتين اعتمدتا ـ معاً ـ على مصادر عربية .

كان من آثار حركة الاسترداد أن نشطت الكتابة التاريخية ، فظهرت حوالى سنة ١١١٥ حولية تدعى بتاريخ سليوس Historia Silense ، نسبةً إلى دير سيلوس Silos كتبها راهب مستعرب من أهل طليطلة ، وتمتد هذه الحولية حتى عهد فرناندو الأول ملك ليون . وحولية ناجرة La Crónica Naje-rense ، وتعود إلى سنة ١١٦٠ ، وأفادت من المصادر التاريخية المبكرة ، وقيمتها العلمية كبيرة ، خصوصاً فيما يتعلق بعهدى فرناندو الأول وألفونسو السادس من ملوك ليون .

إلى جانب هذه التواريخ التى عنيت بسير الملوك ، ظهرت تواريخ أخرى

عنيت بسير غيرهم من الأعيان ، مثل تاريخ كومبو ستيلا Historia Com-postelana ، وهو سيرة لحياة دييجو خلميريث Diego Gelmírez رئيس أسقافة كومبوستيلا ، (ت ١١٣٦) ، ويتضمن كذلك قصة اكتشاف قبر القديس يعقوب الحوارى ، ومعظم المدونة يدور حول علاقة صاحبها بألفونسو السادس والملكة أوراكا وولدها ألفونسو السابع ، كما يتضمن عدداً من الرسائل البابوية وقرارات المجامع الدينية .

لدى صعود نجم قشتالة فى القرن الثالث عشر ، ظهر أعظم مؤرخيها وهو رودريجو خمينيث دى رادا رئيس أساقفة طليطلة (ت ١٢٤٧) ، وكان قريب الصلة بألفونسو الثامن وفرناندو الثالث ، وبتشجيع من هذا الأخير كتب « المآثر الإسبانية » De rebus Hispaniae ، وهو أول تاريخ حقيقى لإسبانيا ، تناول فيه تاريخ هذه البلاد منذ عصر القوط ، مؤكداً على استمراريته عبر العصور ، وينتهى فى أحداثه بسنة ١٢٣٧ ، واهتم بالفترة الإسلامية ، واعتمد على المصادر اللاتينية الأصلية والمصادر العربية ، وما كتبه عن الأحداث التى عاصرها ذو قيمة عالية ، باعتباره شاهد عيان شارك فيها ، كما إن لغته عالية مفعمة بالشعر .

جدير بالذكر إن هذا القس كتب عن تواريخ شعوب أخرى بينها العرب منذ بعثة نبيهم ﷺ حتى القرن الثانى عشر ، ويعد ما كتبه فى هذا الصدد ، هو الأول من نوعه فى أوربا الغربية .

عاصر هذا المؤرخ الكبير مؤرخ آخر ، وان كان أدنى منه قيمةً هولوقا التوذى Lucas de Tuy (ت١٢٤٩) وقد ألف « تاريخ العالم » Chronicon mundi ويمتد منذ بداية الخليقة حتى الاستيلاء على قرطبة فى سنة ١٢٣٦ .

مع بروز اللغات الدارجة بدأت تظهر أعمال مكتوبة بها ، شجع عليها

ألفونسو العاشر ملك قشتالة ، وبفضل توجيهاته صدرت الحولية الأولى العامة Primera crónica general ، وهى تاريخ قومى لإسبانيا ، يمتد حتى موت فرناندو الثالث فى سنة ١٢٥٤ ، ويشبه إلى حد بعيد حولية رودريجو خمينيث ، من حيث معاودة المصادر الأصلية ، ومنها مصادر عربية ، ويحتوى - إلى ذلك - على مواد من قصائد ملحمية لم تصل إلينا . وقد صار لحولية ألفونسو العاشر هذه شهرة كبيرة عبر العصور ، وصدرت لها ذيول ، تتضمن عهود بعض من تلوه من الملوك .

وعاش فى القرن الرابع عشر بدرو لوبيث دى أيالا (ت ١٤٠٧) الذى كان شاعراً إلى كونه مؤرخاً ،وهو أول الإنسانيين من أهل قشتالة ، صنف مدونات عن الملوك الذين عاصرهم ، وعمل فى خدمتهم ، ومنهم بدرو القاسى، وما كتبه له قيمة تاريخية عالية ، بحكم أن المؤرخ شارك فى الأحداث بنفسه ، كما إن أسلوبه أنيق وجميل ، وأحكامه هادئة ومتوازنة . وعلى نهجه سار ابن أخيه فرنان بيريث دى جوثمان (قزمان) Fernán Pérez de Guzmán (ت ١٤٦٠) وقد أصدر كتاباً عن أعيان القرن الخامس عشر ممن كانت له صلة بهم دعاه « أجيال وتراجم » Generaciones y Semblanzas وكان شاعراً كخاله .

امتدت النهضة فى الكتابة التاريخية إلى مملكة أرغونة ، لكن هذه النهضة كانت محدودةً ، وأهم معالمها مدونة جمعها رهبان دير ريبول Ripoll عن أعمال كونتات برشلونة وملوك أرغونة ، تمتد حتى سنة ١٣٠٤ وصدرت باللاتينية باسم Veterum Comitum Barcinonensium et regnum Aragonensium .

فى المرحلة نفسها كلف خايمه الأول الفاتح أمين سره بكتابة مدونة تاريخية عن حياته وزوده بالمادة المناسبة ، وعلى نهجه سار عدد من الملوك .

فى القرن الخامس عشر وفد إلى أرغونة عدد من المؤرخين الإيطاليين ، أهمهم لورنز ڤالا Lorenzo Valla (ت ١٤٥٧) الذائع الصيت بكشفه عن زيف هبة قسطنطين [(١)] ، وأهم كتبه فى التاريخ الإسبانى عن حياة فرناندو دى أنتقيرة ملك أرغونة Historia de Ferdinando de Aragoniae rege .

إمتدت النهضة كذلك إلى مملكة البرتغال ، بفضل جهود ملكها دينيس الذى كان محبًا للثقافة ، فأمر بترجمة العديد من الحوليات القشتالية إلى اللغة البرتغالية ، كما كلف خيل پيريث Gil Pérez بترجمة كتاب المؤرخ المسلم الرازى (ت ٣٤٤/٩٥٥) ، وقد ترجمت فيما بعد هذه الترجمة البرتغالية إلى الإسبانية بعنوان La Crónica del moro Rasis ، ولهاتين الترجمتين البرتغالية والإسبانية أهمية كبيرة ، لأن النص العربى لتاريخ الرازى يعد مفقودًا .

ومن المؤرخين البرتغاليين فى القرن الخامس عشر فرنيا ولوبيسFernáo Lopes (ت ١٤٦٠) ويعد أبًا للكتابة التاريخية البرتغالية ، واعتمد فيما كتبه عن تواريخ ملوك البرتغال على محفوظات العاصمة لشبونة ووثائق الأديرة والكنائس، واتسمت كتبه بالدقة والاتزان، رغمًا عما جرى من فقد معظمها .

---

(١) Donatio Constantino وثيقة مزيفة نسبتها البابوية إلى قسطنطين الكبير (٣٠٦ - ٣٣٧) يقر فيها بسيادة البابا الروحية على الكنيسة فى أقطارها كافة وسيادته الزمنية على روما وإيطاليا والغرب كله . وقد أفادت البابوية من هذه الوثيقة فى صراعها مع الإمبراطورية فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر على نحو خاص .

3 ـ اللغة والأدب :

إذا كانت اللغة اللاتينية هى لغة الدولة والكنيسة والثقافة الرفيعة طوال العصور الوسطى ، فإنه منذ بداية القرن الثانى عشر ، بدأت اللغات الدارجة تفرز آداباً خاصةً بها ، ثم تنامت هذه اللغات ، إلى أن تحقق لها الظفر على اللغة اللاتينية ، قبيل نهاية هذه العصور ، وصار لدينا فى شبه الجزيرة الأيبيرية ـ عدا اللهجات ـ ثلاث لغات أساسية ، هى القشتالية والقطالونية والبرتغالية [١] .

نستطيع أن نتلمس حضور هذه اللغات فى بعض البراءات والعهود التى تعود إلى القرن الثانى عشر ، ويعد فرناندو الثالث ملك قشتالة (١٢١٧ ـ ١٢٥٢) ، هو أول ملك استخدم اللغة الدارجة فى الوثائق العامة ، وشجع على ترجمة نصوص هامة ، بينها المجموعة القانونية القوطية التى صدرت باسم Fuero Juzgo .

حظيت اللغة الدارجة أيضاً بالاهتمام نفسه من ألفونسو العاشر (١٢٥٢ ـ ١٢٨٤) ولد فرناندو الثالث فاستكمل الموسوعة التى بدأت فى عهد أبيه ، ودعيت بالموسوعة السبعينية Setenario ، وهى موسوعة كبيرة ، تتناول الفنون الحرة والعقائد النصرانية ، كما صدرت كتب المعرفة الفلكية Libros del saber de la astronomía وهى ترجمة لخمسة عشر كتاباً فى الفلك ، وصدرت أيضاً جداول فلكية عن حركة الكواكب والنجوم منقولة من مصادر عربية وكتاب فى الشطرنج Libro de ajedrez ، وترجمات لكتب هامة من التراث العربى، بينها قصة المعراج Escala de Mahoma وقصص السندباد[٢]

(١) كانت اللغتان الجليقية (قريبة من البرتغالية) والأرغونية (قريبة من القشتالية) أقل انتشاراً .

(٢) ترجمت بعنوان « مكائد النساء وحيلهن Libro de los engaños y los esayamientos de las mujeres .

وكليلة ودمنة و « مختار الحكم ومحاسن الكلم »[1] للمبشر بن فاتك (ت ٤٨٧ / ١٠٩٤) وغيرها .

ترتب على ذلك أن أضحى النشر باللغات الدارجة أمراً مألوفاً منذ بداية القرن الرابع عشر ، وأهم عمل نثرى فى هذا القرن ـ يذهب مينديث بلايو هو كتاب Libro de los enxiemplos del Conde Lucanor et de Patronio لخوان مانويل Juan Manuel (ت ١٣٤٨) وهو ابن أخى ألفونسو العاشر ، شارك فى أحداث عصره المضطربة ، لكن ذلك لم يمنعه من أن يؤلف هذا الكتاب الذى ضم مجموعة من الأقاصيص والخرافات من أصول عربية ويهودية ، تشبه فى إطارها العام الديكاميرون Decameron البوكاتشيو التى كتبت بعدها بسنوات قليلة .

كذلك كان لكتاب لوليو بلانكيرنا تأثيره على خوان مانويل فى كتابه الآخر « الأحوال » أو « الطبقات » Libro de los estados ، ويستند إلى قصة بوذا التى كانت قد وصلت إلى اسبانيا عن طريق المسلمين ، وتدور حول نصرانى من قشتالة يحاور أميراً وثنياً فى الدين ، ويبين له زيف الإسلام واليهودية ، يقنعه بالنصرانية على نحو عقلانى .

فى أواخر القرن الرابع عشر بدأت النزعة الإنسانية تفد إلى إسبانيا من إيطالية، ومما يجب ملاحظته أن هذه النزعة نشطت فى قصور الملوك ، وليس فى الجامعات التى كانت لا تزال تعنى بالدراسات المدرسية ، ثم إن هذه النزعة كانت أوضح فى قطالونيا عنها فى سائر أنحاء إسبانيا ، وذلك بسبب الصلات القوية بين قطالونيا، وبين مهد هذه النزعة فى إيطاليا .

ترتب على صعود النزعة الإنسانية ، أن ترجمت بعض الأعمال الكلاسيكية

---

(١) ترجمت بعنوان « قطوف الذهب » Los Bocados de oro .

التى يعود بعضها إلى العهود الوثنية إلى اللغات الدارجة ، ومنها « مدينة الله » للقديس أوغسطين ، (ت ٤٣٠) و « سلوى الفلاسفة » لبوئيثيوس Boethius (ت٥٢٤) وبعض أعمال شيشرون Cicero (ت ٤٢ ق.) وسنيكا Seneca، كما ترجمت بعض الأعمال الأدبية التى تعود إلى عصر النهضة مثل الديكاميرون لبوكاتشيو (ت١٣٧٥) والكوميديا الإلهية Comedia Divina لدانتى Dante (ت١٣٢١) . ولم يلبث أن أضحى بلاط ألفونسو الخامس الأرغونى (١٤١٦ ـ ١٤٥٨) فى إيطاليا محجاً لكتاب أتوا من قطالونيا وقشتالة ، وعادوا بعد ذلك إلى بلادهم ، وقد تشربوا النزعة الإنسانية ، ونهلوا منها ، ولم يلبث أن اقتدى خوان الثانى ملك قشتالة (١٤٠٦ ـ ١٤٥٤) ، ودوارتى Du-arte ملك البرتغال (١٤٣٣ ـ ١٤٣٨) بألفونسو الخامس ، مما أسفر عن الظفر النهائى للرنيصانص فى عهد فرناندو وإيسابيل .

يعد برنات متجى Bernat Metge (ت١٤١٣) أول كاتب قطالونى (أو إسبانى) تأثر بالنزعة الإنسانية ، وألف كتاباً دعاه « الحلم » Lo Somni ، يبدو فيه إتجاه مادى واضح وشك . أما القشتالى إنريكى دى بيينا Enrique de Villena (ت١٤٣٤) فقد عنى بالسحر والتنجيم ، الأمر الذى أدى إلى اتهامه بأنه عقد اتفاقاً مع الشيطان ، وأمر خوان الثانى ، فأحرقت كتبه بعد موته ، لكن بقى القليل منها ، ويعزى إلى إنريكى هذا أول ترجمة كاملة لإنياذة فرجيل Aeneid (ت ١٩ ق . م) .

بعد موت انريكى دى بيينا بسنوات قليلة ، أصدر ألفونسو ما رتينيث Alfonso Martínez أسقف طلبيرة Talavera (ت١٤٦٦) كتاباً ممتعاً فى الحب دعاه السوط el Corbacho، يمزج فيه بين القديم والجديد ، فقد تأثر بشيشيرون ، كما تأثر بما كان سائداً فى العصور الوسطى من اهتمام بنقائض النساء والضعف الإنسانى ، واهتم بلغة الناس البسطاء ، ويحفل كتابه بالسخرية

والتهكم والطرائف ، ويصور على نحو طيب الحياة المعاصرة .

على أنه كان لفروسية العصور الوسطى تأثيرها فى عدد من الروايات الرومانسية التى تعود إلى أصل فرنسى ، مثل أماديس دى جاولا Amadis de Gaula أو قطالونية أصيلة مثل تيرانت الأبيض Tirant lo Blanc التى كتبها نبيل من أهل بلنسية هو خوانوت مرتوريل Joanot martorell (ت١٤٦٠) وتصور حياة فارس ، طوحت به فروسيته وتقواه شرقًا وغربًا ، حيث تحققت له الغلبة على أعدائه وأعداء دينه . وتصور القصة تيرانت على أنه بطل العقيدة ضد الأتراك ، إبان حصارهم للقسطنطينية ، وقد حفلت هذه القصة بعناصر من العصر الجديد أهمها السخرية والتهكم .

جدير بالذكر أن كلاً من أماديس وتيرانت حظيتا باعجاب ثرفانتس (ت ١٦١٦) فى رائعته دون كيخوته Don Quixote de la mancha .

4 ـ الشعـر :

أول الأعمال الكبيرة فى هذا المجال هو ملحمة السِّيد La Poeme (o el cantar) de mío Cíd ، وتعود إلى أوائل القرن الثانى عشر (حول سنة ١١٤٠) ، نظمها الشاعر الشعبى فى أربعة آلاف بيت باللغة القشتالية الناشئة ، وتصف أعمال الفارس القشتالى الشهير رودريجودياث دى بيبار Rodrigo Díaz de Vivar (ت١٠٩٩) الذى عرف عند المسلمين بالسيد القنبيطور، وعاش حياةً حافلةً ، وتنقل بولائه بين المسلمين والنصارى ، وكان جيشه يضم جنوداً من الفريقين ، واستولى على مدينة بلنسية ، بعد أن أذاق أهلها ويلات من الحصار ، وحكمها ثم مات بها ، وعندما توجه المرابطون لاستعادتها ، غادرتها زوجه خمينا Jemina ومعها رفاته ، ثم اقتحمها المرابطون .

وصورة السيد فى الملحمة الشعبية تغاير صورته الحقيقية ، فهو فى هذه

الملحمة فارس نبيل ، حارب ضد المسلمين ليكسب عيشه Para ganar su pan وهو وفى لسيده ملك ليون ، ووفى أيضا لزوجه ، عطوف على ابنتيه ، متسامح مع المسلمين ، لكنه فى الوقت نفسه يمارس المكر مع المرابين اليهود .

وفى الملحمة صور عربية ـ يذهب الطاهر مكى ـ مثل الكرم والشرف والثأر، وصور إسلامية مثل تخميس الغنائم ، وزواج ابنتى السيد مرتين ، والملحمة لا تتناول من الحب ، سوى الحب بين الزوجين . لهذا يذهب ريبيرا إلى الأصل العربى لفن الملحمة فى إسبانيا ، وينفى ما يتردد عن الأصل الفرنسى أو الجرمانى .

أما عن الشعر الغنائى ، فيحيط الغموض بنشأته ، على أنه من المتفق عليه إن هذا الشعر نشأ فى پروڤانس ـ مهد شعر التروبادور Trovadores [١] فى القرن الثانى عشر ، وامتد إلى سائر أقطار أوربا ومنها إسبانيا . وكانت البدايات الأولى للشعر الغنائى فى جليقية والبرتغال ، حيث جمعت ثلاثة دواوين -Con cioneiros بناءً على أمر الملك دينيس الذى كان هو نفسه شاعراً غنائياً ، وبين الألفى قصيدة التى ضمتها هذه الدواوين ، هناك أغانى حب ، تماثل الخرجات الأندلسية ومع أن جارثيا جوميث Emilio García Gómez يذهب إلى أن هذه الخرجات ، أجزاء من شعر غنائى قشتالى قديم ، إلا أنه لم يصلنا شىء من هذا الشعر .

الرأى عندنا أن الشعر العربى فى الأندلس ـ بما فيه الموشحات والأزجال ـ هو المصدر الأصلى (أو هو مصدر أصلى) للشعر الغنائى فى إسبانيا النصرانية ، بل للشعر الغنائى فى پروڤانس ، فأول شعراء التروبادور وهو جيوم Guillaume

---

(١) أو Troubodour .

دوق پواتييه (ت ١١٢٧) تتردد عنده معان عرفها الأندلسيون ، وتدور جميعها فى إطار الحب العفيف (أو العذرى) Amour Courtois [1]، مثل قسوة المحبوب وصدوده ، وعذابات الحب وهمومه ، وتتردد فيه شخصيات مثل العاذل والرقيب والنمام والزوج الوفية ، مما يذكرنا بابن حزم فى « طوق الحمامة » . كما درج شعراء التروبادور على العناية بالقافية ، وكانوا يوقعون أشعارهم - شأنهم شأن أهل الأندلس - على آلات موسيقية . ولا يخفى أن جيوم هذا عاش فترةً من حياته فى مناخ إسلامى ، فقد شارك فى الحروب الصليبية فى بلاد الشام والأندلس .

لكل هذا يذهب خليان ريبيرا Julian Ribera Y Tarrago (ت ١٩٣٤) ومنينديث پيدال Ramón Menéndez Pidal (ت ١٩٦٥) إلى أن الشعر الأندلسى وعلى نحو خاص الزجل (وزجل ابن قزمان) هو العنصر الأهم فى الترانيم التى نظمها ألفونسو العاشر للسيدة العذراء Cantigas de Santa María .

تأخر الشعر الغنائى فى قشتالة فى نشأته عن نظيره فى جليقية ، وعلى هذا فإن ألفونسو نظم هذه الترانيم - أربعمائة قصيدة - باللغة الجليقية - البرتغالية ، وكانت هذه الترانيم مصحوبةً بموسيقى ، حيث إنها كانت تغنى ، كما إن له أغانى حب وأغانى أخرى تتصل بجحود بعض أصدقائه .

على أنه فى القرن نفسه ظهر فى قشتالة ضرب من الشعر الغنائى نظم بلغتها، وعرف باسم « نهج الإكليروس » Mester de Clerecía ، وهو رباعيات مقتبسة من أشعار الشعراء الجوالين ، وأشهرهم جونثا لودى برثيو -Gon

(١) فى الإسبانية el amor cortés .

zalo de Berceo (ت١٢٥٠) وهو قسيس نظم شعراً عن حيوات بعض القديسين ، ومنها تحميدات للعذراء مريم Loores de Nuestra Señora ومعجزاتها Miraglos .

فإذا انتقلنا إلى القرن الرابع عشر نجد خوان رويث Juan Ruíz أسقف هيتا Hita (ت ١٣٥١) ويعده البعض أعظم شيعراء العصور الوسطى ، ويجعلونه نداً للشاعر الإنجليزى تشوسر Chaucer (ت ١٤٠٠) وله كتاب « الحب الطيب » Libro de buen amor تأثر فيه بطوق الحمامة وحكايات أخرى من التراث العربى . ورغماً عما كان يتخلل هذا الكتاب من أشياء لا يرضى عنها بعض الأتقياء ، إلا أن الشاعر كان يدعى أن شعره يعين الإنسان على الخلاص ، وبسبب ما حفل به هذا الشعر من عوالم متعددة ـ وأحياناً متناقضة ـ بصفه منينديث إى بلايو Menéndez y Pelayo بالكوميديا الإنسانية للقرن الرابع عشر والملحمة الهزلية للعصور الوسطى .

ووصلت إلينا مجموعة شعرية تضم أعمال شعراء من أواخر القرن الرابع عشر وأوائل القرن الخامس عشر هى « ديوان باينا » el cancionero de Baena ، جمعها خوان ألفونسو دى باينا ، بأمر من خوان الثانى ملك قشتالة ، وأهم شعراء هذه المجموعة هو ألفونسو ألباريث دى بيا سانيدو Alfonso Alvarez deVillasanido (ت ١٤٢٥) وهو من شعراء البلاط ، وقصائده الباكرة نظمها بالجليقية ، باعتبارها أنسب لغة للتعبير الغنائى ، لكنه هجرها بعد ذلك إلى القشتالية .

فى منتصف القرن الخامس عشر تسللت النزعة الإنسانية إلى الشعر الإسبانى، ولم تعد الموسيقى تصاحب هذا الشعر ، ودرج الشعراء الجدد من رجال البلاط والنبلاء على استخدام بحور جديدة ، واستلهام الميثولوجيا اليونانية

والرومانية ، وخبا نجم الحب العفيف ، وذاع شعر الهجاء ، خصوصاً ما اتخذ منه طابعاً سياسياً .

يعد خوان دى مينا Juan de Mena (ت١٤٥٦) كاتب خوان الثانى أول الإنسانيين من شعراء قشتالة ، وكان قد عاش بعض سنوات فى إيطاليا ، وتشرب روح الرنيصانص ، ودرس البحور الجديدة ، وتأثر فى شعره بدانتى ، وأهم قصائده تدعى « متاهة الحظ » Laberinto de fortuna .

على أن أهم شاعر غنائى فى هذا القرن هو إنييجولوبيث دى مندوثا Iñigo Lapéz de Mendoza مركيز سانتيانا el Marqués de Santillana (ت ١٤٥٨) وكان قد اشتهر باقتنائه مكتبة عظيمة فى قصره بوادى الحجارة Gua-dalajara ، وتشرب النزعة الإنسانية عند دانتى وبترارك Petrarck (ت١٣٧٤) ونظم فى موضوعات متعددة ، منها موضوعات سياسية ، وأحسن أعماله Serenillas ، وهى عشر أغان ، تتخذ هيئة حوار مع بعض الراعيات من فتيات الجبال ، ويبدو فيها تأثره بشعر التروبادور .

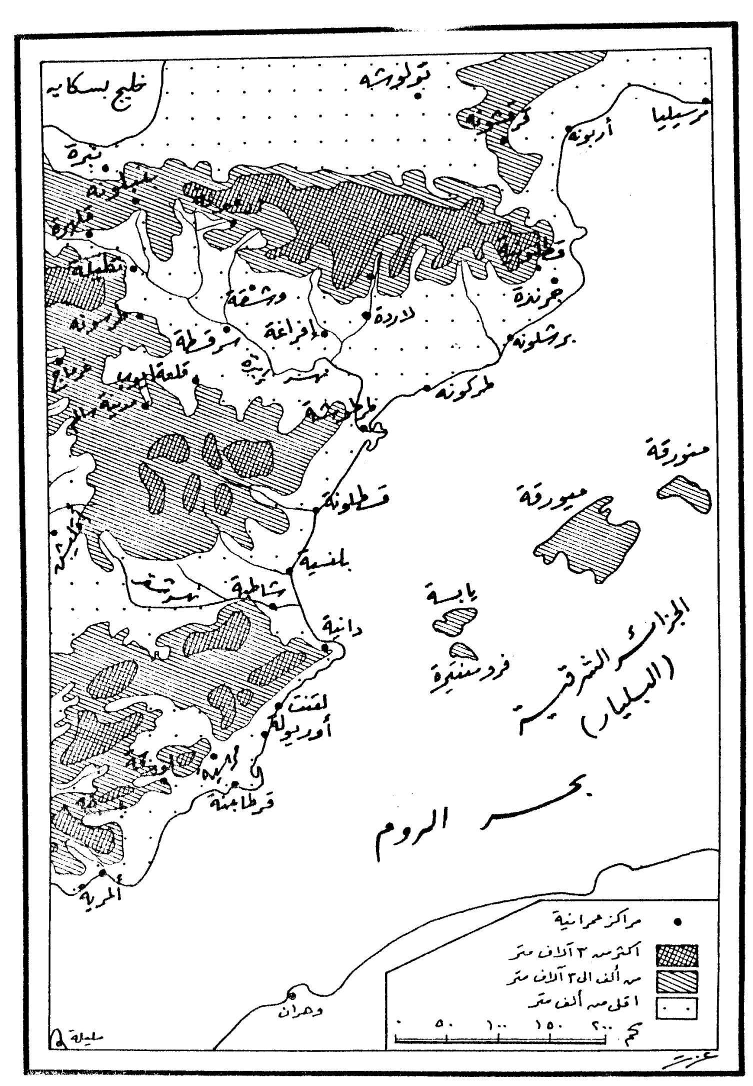
يلى مندوثا فى الأهمية خورخى مانر يكى Jorge Manrique (ت١٤٧٨) وقد اشتهر برثائه لأبيه فى قصيدته التى ترجمت إلى لغات عدة Coplas por la muerte de su padre ، ومع أن أفكاره عن الموت مستعارة من التراث الوسيط ، إلا أن تصويره لحزنه وأساه متأثر بالاتجاه الإنسانى .

نتيجة لازدهار الشعر المكتوب بالقشتالية ، صار عدد من شعراء قطالونيا والبرتغال ينظمون بها ، على أنه لم يلبث أن ظهر شعراء مجيدون ينظمون بالقطالونية أهمهم أوسياس مارش Ausías March (ت١٤٥٩) وهو نبيل بلنسى، عمل فى خدمة ألفونسو الخامس ملك أرغونة ، ثم تقاعد فى ضياعه ، حيث عاش حياةً هادئة ، وتفرغ لنظم الشعر ، وفى ديوانه أغانى الحب Cants

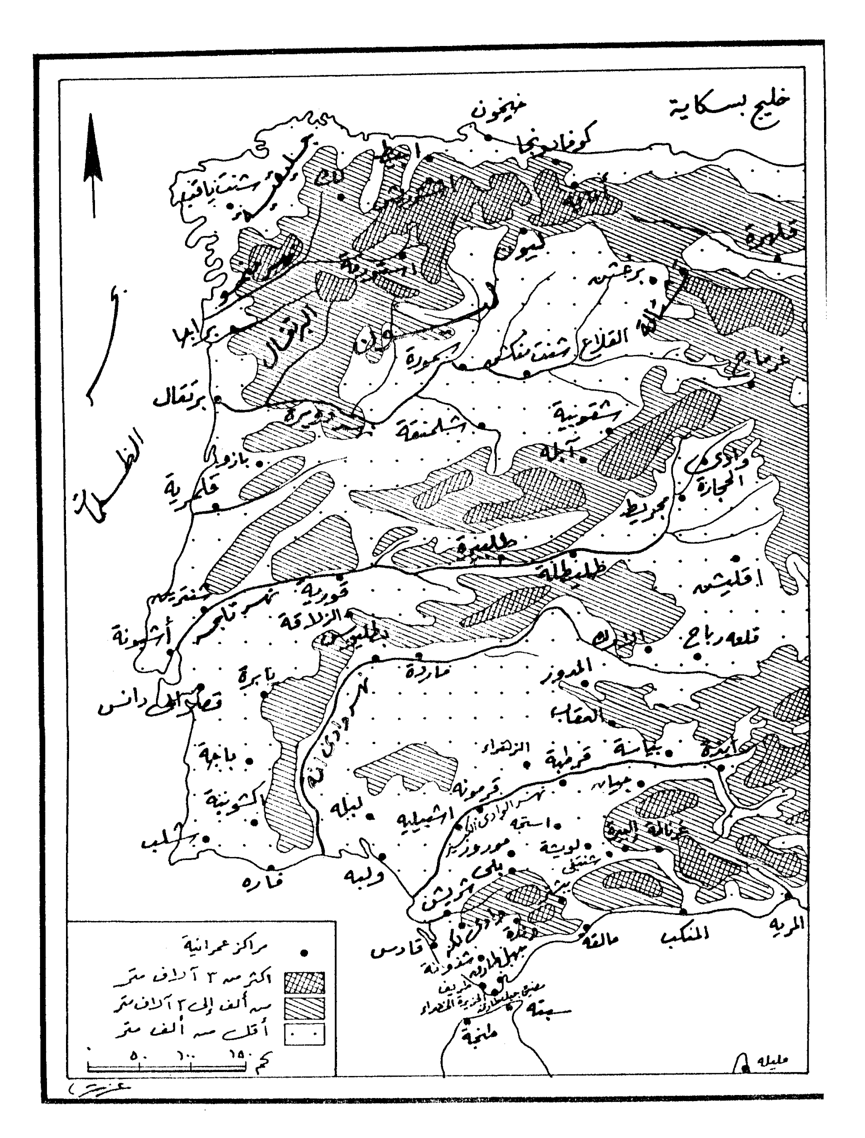
d'amor يتحدث عن الحب وهمومه ، ويتراوح شعره بين العفة والشهوة ، لكنه فى الأغانى الروحية Cants Spiritual يقرر أن الحب الحقيقى هو حب الله . ويتضح عنده تأثره بدانتى وبترارك وأرسطو وتوما الأكوينى ، واشتهر بالتجريد والنأى عند التصوير لذا دعى بشاعر الأفكار .

أما بالنسبة للبرتغال فلدينا بدرو البرتغالى (ت ١٤٦٦) وكان ثوار قطالونيا قد تنادوا به ملكاً عليهم ، وبعد أن كتب مقطوعات شعرية قصيرة بالبرتغالية ، عدل عنها إلى القشتالية .

على أننا لا نجد بين شعراء البرتغال وقطالونيا فى أواخر العصور الوسطى شاعراً كبيراً يمكن مقارنته بشاعر آخر كبير من شعراء قشتالة .


خليج بسكاية
تولوشة
أربونة
جرندة
برشلونة
طركونة
لاردة
وشقة
افراغة
سرقسطة
بلنسية
شاطبة
دانية
أوريولة
قرطاجنة
المرية
منورقة
ميورقة
يابسة
فرمنتيرة
الجزائر الشرقية
(البليار)
بحر الروم
وهران
مراكز عمرانية
أكثر من ٣ آلاف متر
من ألف الى ٣ آلاف متر
اقل من ألف متر
كم ٢٠٠ ١٥٠ ١٠٠ ٥٠ ٠

إسپانيا



خليج بسكاية
نيخون
كوفادونجا
ليون
برغش
سمورة
برتغال
قلمرية
بازو
شلمنقة
شقوبية
أبلة
وادي الحجارة
مجريط
طلبيرة
طليطلة
إقليش
قورية
شنترين
أشبونة
نهر تاجه
الزلاقة
بطليوس
ماردة
قلعة رباح
يابرة
باجة
شلب
فاره
لبلة
ولبه
إشبيلية
قرمونة
قرطبة
الزهراء
بياسة
استجة
مورور
لوشة
غرناطة
مالقة
المنكب
المرية
قادس
سبتة
طنجة
مليلة
مراكز عمرانية
أكثر من ٣ آلاف متر
من ألف إلى ٣ آلاف متر
أقل من ألف متر
١٥٠ ١٠٠ ٥٠ كم

إسپانيا

نخبة من المراجع

أ - مراجع عربية ومعربة :

أحمد : محمد خلف الله (محرر)

١ - أثر العرب والإسلام فى النهضة الأوربية . القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، يونسكو ١٩٨٧ .

جونثالث پالنثيا : أنخل (ت ١٩٤٩)

٢ - تاريخ الفكر الأندلسى . ترجمة حسين مؤنس . القاهرة ، النهضة المصرية ١٩٥٥ .

دوزى : رينهرت (ت ١٨٨٣) .

٣ - المسلمون فى الأندلس (ثلاثة أجزاء) ترجمة حسن حبشى . القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٩٤ - ١٩٩٥ .

طرخان : إبراهيم على

٤ - دولة القوط الغربيين . القاهرة ، النهضة المصرية ، ١٩٥٨ .

العبادى : أحمد مختار

٥ - دراسات فى تاريخ المغرب والأندلس . الإسكندرية ، مؤسسة شباب الجامعة ١٩٨٢ .

عنان : محمد عبد الله (ت ١٩٨٦)

٦ - دولة الإسلام فى الأندلس (أربعة أجزاء) ط٤ . القاهرة ، الخانجى ١٩٦٩.

كُحيلة : أبو أدهم عبادة بن عبد الرحمن رضا

٧ - تاريخ النصارى فى الأندلس . القاهرة ، ١٩٩٣ .

٨ - المُغرب فى تاريخ الأندلس والمَغرب . القاهرة ، ١٩٩٧ .

ليفى بروفنسال : أ (ت ١٩٥٦)

٩ ـ الحضارة العربية فى إسبانيا . ترجمة الطاهر أحمد مكى ، القاهرة ، دار المعارف ١٩٧٩ .

مكى : الطاهر أحمد

١٠ ـ دراسات أندلسية فى الأدب والتاريخ والفلسفة ط١ . القاهرة ، دار المعارف ١٩٨٠ .

مؤنس : حسين (١٩٩٦) .

١١ ـ فجر الأندلس . القاهرة ، الشركة العربية للطباعة والنشر ، ١٩٥٩ .

١٢ ـ معالم تاريخ المغرب والأندلس ط ١ . القاهرة ، دار ومطابع المستقبل ١٩٨٠ .

ب - مراجع إفرنجية :

Cagigas : Isidro de las .

1 - Los Mozárabes (2 tomos) Madrid . Instituto de estudios Africanos, 1947 .

2 - Los Mudéjares . (2 tomos) Madrid. 1948 - 1949 .

The Cambridge.

3 - Medieval history . Cambridge univ press 1913 reprinted 1936 .

Castro Américo

4 - España en su historia . Buenos Aires . Editorial Losada. 1948 .

Diccionario

5 - De historia de España . (2 tomos) Revista de Occidente Madrid . 1952 .

Lévi - Provençal : É (d. 1956) .

6 - Histoire de lÉspagne musulmane (3 vol) nouvelle édition Paris - Leiden . E. J. Brill .1950 .

Menéndez Pidal : Ramón (d. 1965)

7 - The Spaniards in their history . tr . W. Srarkie . New York . 1950 .

O'Callaghan : Joseph.

8 - A history of medieval Spain Cornell univ Press 1975 .

Simonet : D. Francisco Javier .

9 - Historia de los Mozárabes de España .Memorias de la real academia de historia . Madrid 1897 - 1903 .

Vallve : Juaquín .

10 - El Califato de Córdoba . Madrid 1992 .

كتب أخرى للمؤلف

1 - صقر قريش ؛ عبد الرحمن الداخل . القاهرة ، دار الكاتب العربي 1968 . (أعلام العرب - 76) نفد .

2 - عن العرب والبحر . القاهرة ، 1989 .

3 - أندلسيات . القاهرة ، 1989 .

4 - تاريخ النصارى في الأندلس . القاهرة ، 1993 .

5 - الزط والأصول الأولى لتاريخ الغجر . القاهرة ، 1994 .

6 - الخصوصية الأندلسية وأصولها الجغرافية . القاهرة ، دار عين للدراسات والبحوث الإنسانية والإجتماعية ، 1995 .

7 - قراءة جديدة في عهد عمر . القاهرة ، دار عين للدراسات والبحوث الإنسانية والإجتماعية ، 1996 .

8 - العقد الثمين في تاريخ المسلمين . الكويت ، دار الكتاب الحديث ، 1996 .

9 - المُغْرِب في تاريخ الأندلس والمَغْرِب . القاهرة 1997 .

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية : ١٠٦٩٥ / ٩٨

الترقيم الدولى : I.S.B.N. 977 - 19 - 6675 - 8

AL-QUṬŪF AL-DAWĀNĪ FĪ AL-TĀRĪJ AL-ISPĀNĪ

(HISTORIA DE ESPAÑA DE LA EDAD MEDIA)

POR

ʿOBĀDA. A. R. KOHELA

PROFESOR

FACULTAD DE LETRAS,

UNIVERSIDAD DE EL CAIRO

PRIMERA EDICIÓN

A. D. 1998 - A. H. 1419